علي الطنطاوي

تعريف عام

بدين الإسلام



دار المنارة

تعريفٌ عامٌ

بدِينِ الإسلامِ

بسم الله الرحمن الرحيم

علي الطنطاوي

تعريف عام بدين الإسلام

طبعة جديدة
راجعها وصحّحها وعلّق عليها حفيد المؤلف
مجاهد مأمون ديرانيّة

دار المنارة
للنشر والتوزيع

ⓗ دار المنارة للنشر والتوزيع، ١٤٤٢هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

الطنطاوي، علي مصطفى
تعريف عام بدين الإسلام/ علي مصطفى الطنطاوي
ط٢٢ - جدة، ١٤٤٢هـ ٢١٨ص ؛ ٢١×١٥سم
١-الإسلام-مبادئ عامة أ. العنوان
ديوي ٢١١ ١٤٤٢/١٠٥١٤

رقم الإيداع: ١٤٤٢/١٠٥١٤ ردمك ٥-١٥-٨٣١٢-٦٠٣-٩٧٨

الطبعة الثانية والعشرون
٢٠٢١

دار المنارة للنشر والتوزيع
أسسها الشيخ نادر حتاحت رحمه الله عام ١٩٨٤

ص ب ١٢٥٠ جدة ٢١٤٣١ المملكة العربية السعودية
هاتف ٦٦٠٣٦٥٢ فاكس ٦٦٠٣٢٣٨

info@daralmanara.com
www.daralmanara.com
daralmanarapublisher

قصة هذا الكتاب

في صدر الطبعات السابقة فصل عنوانه «قصة هذا الكتاب»، أعدت النظر فيه اليوم فوجدت أني لم أسرد فيه القصة من أولها.

ولعل أول القصة كان أيام الحرب الأولى، حرب سنة ١٩١٤، وهي الأيام التي بلغتُ فيها سنّ التمييز وأدركت ما يحيط بي، فوجدت في بيت أبي دروساً يلقيها على تلاميذه بعد الفجر وقبل العشاء. وكانت دروساً تختلف عن دروس المدرسة التي كنت أذهب إليها، وكان التلاميذ فيها مشايخ بعمائم ولحى، لم يكونوا صغاراً كتلاميذ المدرسة، فكنت أستمع إليها ولو لم أفهمها كما أفهم دروس المدرسة.

فكانت دراستي بذلك مزدوجة: درست في المدارس إلى نهاية الجامعة، وكنت مع ذلك أتلقى العلم عن العلماء، عن أبي الشيخ مصطفى الطنطاوي أولاً، وكان من صدور الفقهاء في الشام وكان أمين الفتوى عند المفتي الشيخ أبي الخير عابدين، فلما توفي -رحمه الله- في شعبان سنة ١٣٤٣هـ قرأت على غيره من العلماء[1]،

---

(١) ثم اتصلت بعدد لا أحصيه الآن من العلماء، منهم من قرأت عليه =

فكنت أول من جمع في دمشق بين أسلوبَي الدراسة. وكان العلماء يومئذ بين «شيخ» لا يعرف من علوم الدنيا الحديثة شيئاً و«أفندي» لا يفقه من علوم الدين شيئاً، إلا شيئاً قليلاً لا يغني ولا يجزي.

= ومنهم من حضرت دروسه، ومنهم من جلست إليه واستفدت منه، في الشام ومصر والعراق.

من هؤلاء الشيخ بدر الدين الحسني المحدث الأكبر، وقرينه السيد محمد بن جعفر الكتّاني صاحب «الرسالة المستطرفة»، والشيخان المعمّران: الشيخ عبد المحسن الأسطواني والشيخ سليمان الجوخَدار، ومفتي الشام الشيخ عطا الكَسْم، وخلَفه المفتي الشيخ محمد شكري الأسطواني، وخلَفه المفتي الطبيب الشيخ أبو اليسر عابدين، والسيد محمد الخضر حسين شيخ الجامع الأزهر، والشيخ عبد المجيد سليم شيخ الجامع الأزهر، والشيخ مصطفى عبد الرازق شيخ الجامع الأزهر، والشيخ محمود شلتوت شيخ الجامع الأزهر، وخالي الأستاذ محبّ الدين الخطيب، والشيخ أبو الخير الميداني، والشيخ صالح التونسي، والشيخ محمد بهجة البيطار، والشيخ توفيق الأيوبي، والشيخ أحمد النويلاتي، والشيخ عبد الله العلمي، والشيخ هاشم الخطيب، والأستاذ سليم الجندي، والشيخ عبد القادر المبارك، والأستاذ محمد كرد علي منشئ المجمع العلمي في دمشق، والشيخ المصنف الأديب الشيخ عبد القادر المغربي، والأديب الراوية الأستاذ عز الدين التنوخي، والأستاذ معروف الأرناؤوط، والأستاذ شاكر الحنبلي، والأستاذ سعيد محاسني، والشيخ عبد القادر بدران الحنبلي، والشيخ محمد الكافي المالكي، والشيخ نجيب كيوان الحنفي، والشيخ أمين سويد، والشيخ زين العابدين التونسي، والشيخ أمجد الزهاوي، والحاج حمدي الأعظمي العراقي، والشيخ قاسم القيسي، والشيخ زاهد الكوثري، والشيخ=

فتنبهت مبكراً إلى ضرورة عرض الإسلام بأسلوب عصري، وكتبت في ذلك مقالات ونشرت رسائل ذكرت فيها -من نحو خمسين سنة- بعض الآراء التي أُوردها اليوم في هذا الكتاب[١].

ففي كتابي «الإصلاح الديني»[٢] في الصفحة ١١ منه، عند

= البشير الإبراهيمي الجزائري، والشيخ كامل القصاب، والشيخ عيد السفرجلاني. وجوّدت القرآن على شيخ قراء الشام الشيخ محمد الحلواني، والشيخ عبد الرحيم دبس وزيت، وولده شيخنا وتلميذ والدي الفقيه الحنفي الشيخ عبد الوهاب، والشيخ عبد الله المنجّد، وخلق غيرهم كثير. أسأل الله لهم الرحمة والغفران، من ذكرت منهم هنا ومن غاب الآن اسمُه عن ذاكرتي، وأظن أني لو عددتهم لأربى عددهم على المئة، جزاهم الله خيراً.

(١) ولكن ذلك لم يكن إلا بارقة برقت لي، لم تكن ضياءً يكشف لي الطريق أو يرسم لي خطة لتأليف هذا الكتاب، بل لم أكن أدري ما تأليف الكتب ولا يخطر على بالي أني سأكون من المؤلفين. كانت بذرة صغيرة جمع الله لها شروط الإنبات، فكان منها شجرة ثابتة الأصل ممتدة الفروع تعيش دهراً، وربما طارت بها ريحٌ أو ذهب بها سيل أو عبث بها صبي أو نقرها طائر فذهبت ولمّا يأتِ منها شيء، وربما خرجت منها بقلة هيّنة لا تعيش إلا شهراً، وذلك من أسرار خلق الله: إذ يُخرج المختلف من المؤتلف والمتعدد من الواحد. الأشياء كلها من الذرة، والأحياء من الخلية، والذرة والخلية خَلْقُهما في الجميع واحد.

(٢) المطبوع في دمشق سنة ١٣٤٨هـ، وهو الجزء الأول من «رسائل الإصلاح» التي كان لصدورها أصداء وأُلِّفَت في الكلام عنها كتب، منها كتاب «الإفصاح عن رسائل الإصلاح» للشيخ أحمد الصابوني الحلبي رحمه الله.

الكلام على ضرورة التدين، قلت ما نصّه: "هل يمكن للإنسان أن يعيش بلا دين؟ الجواب قطعاً هو: لا، إلا أن يعيش بالمادة وحدها وينبذ كل ما وراءها، حتى نفسَه التي بين جنبيه، وحبه الذي يجيش به صدره، وشعوره بالطبيعة وجمالها والطيور وتغريدها والمقبرة ووحشتها".

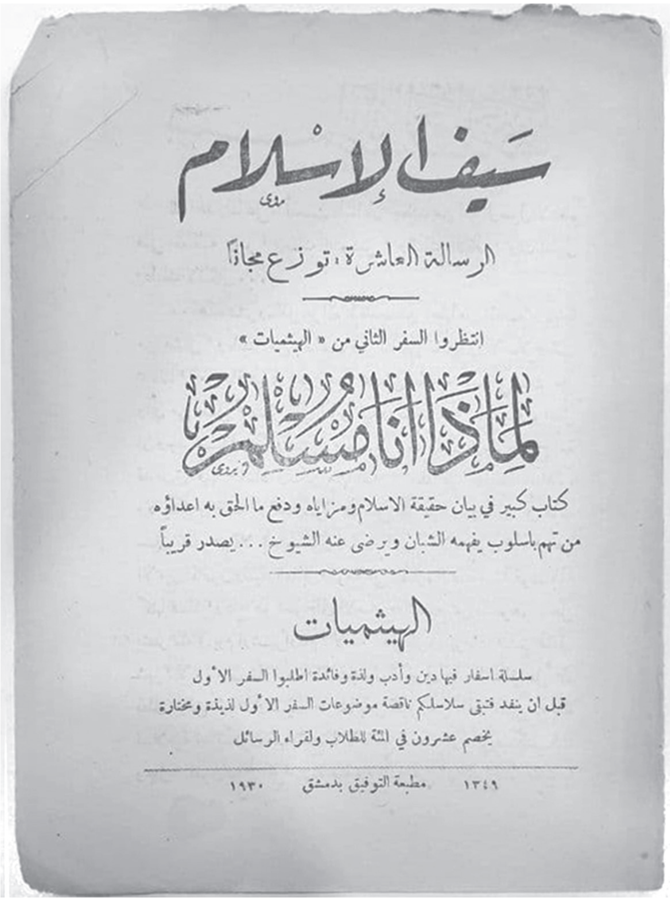
ثم تحدثت عن عالم المُثُل الأفلاطونية، واستشهدت بأقوال كانط و أوغست كونت وباستور ونيوتن وباسكال ومالبرانش وهارفي وغوليه وهوكسلي، ذلك لأني كنت حديثَ العهد بدراسة الفلسفة، وكان مكتوباً على غلاف الكتاب: «بقلم علي الطنطاوي، بكالوريوس في الآداب وفي الفلسفة».

وكتبت في الردّ على مَن يدّعي أن هذا الكون وُجد بالمصادفة ما نصّه: إذا وضعنا في كيس أربعَ كرات بِيض وواحدة حمراء وسحبنا واحدة منها كان احتمال خروج الحمراء واحداً من خمسة، وإذا وضعنا تسعاً بِيضاً وواحدة حمراء كان واحداً من عشرة، فلو وضعنا ما لانهاية له (∞) من البِيض كان الاحتمال واحداً من لانهاية، ولا يقول عاقل أن الحمراء تخرج حتماً من السحب مرة أو مرتين أو مئة مرة. وهذه الكواكب التي لا نهاية لها ليس لها إلا حالة واحدة تجعلها تسير بهذا النظام ويمتنع بينها الصدام، فكيف نقول أن هذه الحالة حصلت بالمصادفة من غير مسيِّر حكيم عليم؟

هذا ما قلته من أكثر من خمسين سنة في كتاب لي مطبوع موجود.

* * *

ثم صَحَّ العزم مني على إصدار كتاب في هذا الموضوع، وجعلتُ عنوانه: «لماذا أنا مسلم؟» وأعددتُ فصوله وأعلنتُ عنه، ونشرتُ مقدمته في رسائل «سيف الإسلام» التي كنت أصدرها سنة ١٣٤٩هـ (١٩٣٠م)[١]، ولكنْ تعذَّرَ الطبع وضاعت الأصول ولم يصدر الكتاب.



سيف الإسلام

الرسالة العاشرة، توزع مجاناً

انتظروا السفر الثاني من «الهيثميات»

لماذا أنا مسلم

كتاب كبير في بيان حقيقة الاسلام ومزاياه ودفع ما الحق به اعداؤه من تهم باسلوب يفهمه الشبان ويرضى عنه الشيوخ... يصدر قريباً

الهيثميات

سلسلة اسفار فيها دين وأدب ولذة وفائدة اطلبوا السفر الأول قبل ان ينفد فتبقى سلاسلكم ناقصة موضوعات السفر الأول لذيذة ومختارة يخصم عشرون في المئة للطلاب ولقراء الرسائل

١٣٤٩ مطبعة التوفيق بدمشق ١٩٣٠

(١) نشرتُ هذه الرسالة في كتاب «البواكير»، ص١٣٥ (مجاهد).

ولما ذهبت إلى العراق سنة ١٩٣٦ مدرّساً للأدب العربي في الثانوية المركزية في بغداد وكُلِّفت حيناً بتدريس الدين جعل الطلاب يسألونني عن كتاب واحد يفهمون منه الإسلام، لا يريدون كتاب تجويد ولا كتاب توحيد ولا كتاب تفسير ولا فقه ولا أصول ولا حديث ولا مصطلح، بل كتاباً في الإسلام يعرضه كما كان رسول الله ﷺ يعرضه على مَن يَفِدُ إليه من العرب (أو الأعراب) فيفهمونه في يوم واحد أو في بعض يوم.

فلم أكن أجد مثل هذا الكتاب، فكتبت في «الرسالة» (وكنت من كتّابها عشرين سنة كاملة، من سنة تأسيسها إلى سنة احتجابها) كتبتُ مقالات أدعو فيها العلماء إلى تأليف هذا الكتاب، وأعدتُ الدعوة، فما استجاب لها أحد إلا شيخنا الشيخ محمد بهجة البيطار، وإذا رجعتم إلى «الرسالة» وجدتم فيها ما كُتب[١].

* * *

ومرت الأيام، ورأيت الطريق الذي كنتُ أسلكه وحدي أو مع نفر من أمثالي منذ خمسين سنة، طريق الجمع بين الإلمام بعلوم الدين والإلمام بعلوم الدنيا، وقد كثر -بحمد الله- سالكوه وصاروا عشرات، ثم صاروا -بحمد الله مرة ثانية- مئات، ونشأ فيهم من هو أكثر مني علماً وأفصح لساناً وأكثر إيماناً وأفضل في كل شيء، وألّفوا عشرات من الكتب الإسلامية الجيدة، ولكن هذا الكتاب لم يؤلَّف.

---

(١) راجع مقالتَي «كتاب في الدين الإسلامي» و«كتاب الدين الإسلامي» في كتاب «فصول إسلامية» (مجاهد).

وجاءت سنة ١٣٨٧هـ فنشرت مقالة في مجلة «رابطة العالم الإسلامي» عنوانها «تعريف عام بدين الإسلام»[١] تنبّه لها صديقنا معالي الشيخ محمد عمر توفيق، وزير الحج والأوقاف يومئذ، فكتب للرابطة لتكليفي بتأليف كتاب في هذا الموضوع، وتنبّه لها صديقنا الشيخ مصطفى العطار فكتب لمعالي وزير المعارف الشيخ حسن بن عبد الله آل الشيخ، ووجدت منه ومن معالي الشيخ عبد الوهاب عبد الواسع (وكان يومئذ وكيل وزارة المعارف) كلَّ التشجيع.

وعملت الصيفَ كله والسنةَ الجامعية بعده، لكني كنتُ أدافع الكسل وأشتغل على ملل، وتجمّعت لديّ ثلاثة ظروف كبار، فيها فصول كاملات وفيها قصاصات ومذكرات، تحتاج إلى تصنيف وترتيب وعمل كثير.

وجاء الصيف الجديد وذهبت إلى عمّان، ومن خوفي على هذه الظروف حملتها بيدي، وأذكر أنني خرجت من المطار ودخلت السيارة لتحملني إلى دار زوج بنتي وهي معي. وشُغلت بمتاعب الانتقال ومباهج الاستقبال ولقاء الأصحاب والآل فلم أذكرها إلا بعد أسبوعين، فبحثتُ عنها فلم أجدها، ونفضتُ الدار نفضاً وسألت كل سائق سيارة وراجعتُ كل مخفر شرطة فلم أصل إلى شيء. وبقيت أياماً وأنا ذاهل متألم، لا أهنأ بطعام ولا أستغرق في منام، حتى إذا هدأت نفسي ورجع لي عقلي قررت أن أستعين الله وأبدأ من جديد.

---

(١) في العدد السابع من السنة الخامسة الذي صدر في رمضان من تلك السنة (١٢/١٩٦٧) (مجاهد).

وكنتُ أنزل في ضاحية من عمّان، مكتبتي في دمشق وأوراقي في مكة، وما عندي إلا المصحف وما استقرّ في ذهني مما قرأت وما سمعت من العلماء في أكثر من خمسين سنة ما كان لي فيها من عمل إلا النظر في الكتب ومجالسة أهل العلم، فقلت: لعل هذا هو الخير، فما أؤلف هذا الكتاب للفقهاء والعلماء، بل للشبّان أعرّفهم فيه ما الإسلام، وكلما أقللت النقل عن الكتب وجئت بشيء جديد كان خيراً لهم.

وباشرتُ العمل وأنجزتُ هذا الجزء الأول، وهو جزء العقيدة، في عشرة أيام، وحملتُ مخطوطته معي إلى مكة، فطُبع أولاً في صحيفة «المدينة»، والفضل في طبعه لله ثم للأستاذ عثمان حافظ[1]. ثم نشرته وزارة المعارف الأردنية في عدد خاص من مجلتها «رسالة المعلم»، وطبعت منه اثنَي عشر ألف نسخة وزّعتها على جميع المعلمين والمعلمات في المملكة الأردنية. وكان الفضل في ذلك لله ثم لمعالي الدكتور إسحاق الفرحان (وكان يومئذ مدير دائرة الكتب والمناهج في الوزارة، ثم صار هو الوزير) وللأخ الدكتور الشيخ إبراهيم زيد الكيلاني والأخ الأستاذ سليم الرشدان. ثم نشرته وزارة الدفاع الأردنية، وكان الفضل في ذلك للصديق اللواء معن أبي نوّار سفير المملكة الآن في لندن، وللصديق العقيد أحمد العبيدات (أبي أنور)، وقرأه أفراد الجيش الأردني، ثم طُبع ونُشر مرات في دور نشر مختلفة قبل أن تتولى نشرَه دار المنارة التي تنشر سائر كتبي.

---

(١) نُشر الكتاب في جريدة «المدينة» في حلقات يومية صدرت أولاها في التاسع والعشرين من رجب ١٣٨٨ (٢٢/١٠/١٩٦٨) (مجاهد).

أما الجزء الثاني والثالث اللذان أرجو أن أتكلم فيهما عن الإسلام وعن الإحسان (أي السلوك الإسلامي) فأنا والله في خجل من القراء، وعذري أن القلوب بيد الله، والله هو باعث الهمم ومنشئ العزائم، وقد -والله- ضعفت همتي ووهن العزم مني. ولقد كنتُ في شبابي في توثّب دائم، أكتب وألتمس الناشر، على قلة البضاعة وضحالة التفكير، والآن حين نضج الفكر واختمرت المعلومات وكثر الناشرون لم أعد أقوى على العمل. فإنْ ألهَمَ الله واحداً من القراء ودعا لي بظهر الغيب أن يسهّل الله عليّ كتابة الجزأين كتبتُهما بتوفيق الله وعونه كما كتبتُ الأول في عشرة أيام.

* * *

هذا، وأنا أرجو أن ينفع الله بهذا الكتاب وأن يكون زاداً لي يوم لا زاد إلا التقوى وصالح الأعمال(١). ولقد ذكرت في مقدمة الطبعة السابقة أني أكتب من ستين سنة، من سنة ١٣٤٧هـ، وأن المطبوع مما كتبتُ يزيد على ثلاثة عشر ألف صفحة، وأن لي أكثر من خمسين كتاباً ما بين رسالة صغيرة وكتاب كبير، وأني أحاضر

---

(١) بارك الله في هذا الكتاب وكتب له القَبول، فطُبع بالعربية عشرات الطبعات، وتُرجم وطُبع باللغات الفارسية والأندونيسية والفلبينية والتركية والبوسنية والألبانية والفرنسية والألمانية والإسبانية والبرتغالية والدنمركية واليونانية والروسية والرومانية. وقد نشرت دار المنارة مقدمة الكتاب منفردة في رسالة صغيرة باسم «تعريف موجز بدين الإسلام»، وتُرجمت هذه الرسالة إلى الألمانية والأرومية (وهي اللغة التي يتحدث بها نحو خمسة وثلاثين مليوناً في الصومال والقرن الإفريقي) (مجاهد).

في النوادي من سنة ١٣٤٥هـ وأتحدث في الإذاعات بلا انقطاع من يوم أنشئت محطة الشرق الأدنى في يافا قبل الحرب الثانية، وأن لديّ الآن أصول أحد عشر كتاباً لا تحتاج إلا إلى عمل قليل لِتُقدَّم للمطبعة. وأنا أرضى أن أنزل عن هذا كله ويوفق الله إلى إكمال هذا الكتاب وإكمال كتاب «ذكريات نصف قرن»[(١)] الذي أروي فيه خبر ما رأيت وما سمعت من تبدّل الدول وتحوّل الأحوال ومَن لقيت من الرجال، فلقد شهدت في الشام حكم العثمانيين وحكم الشريف فيصل وحكم الفرنسيين وعهد الاستقلال وما بعده من العهود، وعشت حيناً من عمري في مصر وفي العراق وفي لبنان وفي السعودية، ورحلت لأقصى المشرق حتى لم يبقَ بيني وبين سيدني في أستراليا إلا مرحلة ساعتين بالطيارة ورحلتُ إلى فولندام في أقصى الشمال من هولندا، ورأيت حلواً ورأيت مُرّاً، وذقت الفقر وذقت الغنى، ووجدت الوفاء ووجدت الغدر، وتركت من التلاميذ في سوريا والعراق ولبنان والسعودية آلافاً وآلافاً، منهم من صار رئيس جمهورية ومنهم من بلغ رياسة الوزراء، ومن كان وزيراً أو قاضياً كبيراً أو موظفاً أو سفيراً أو أستاذاً في الجامعة أو مقدَّماً في عالم المال والأعمال.

ولقد كنت في عمري كله بعيداً عن غمرة المجتمع معتزلاً الناس، لكني كنت أرى وأسمع كل شيء، ولطالما وقفتُ مواقف كانت حديث الناس وكانت حادثة الساعة، وكنت فيها

---

(١) وقد صدر منه ثمانية أجزاء بعنوان «ذكريات» جمعت فيها ما نشرته في مجلة «المسلمون» ثم في جريدة «الشرق الأوسط» ونشرتها دار المنارة في جدة.

ملء الأسماع والأبصار وكان اسمي فيها على كل لسان. ولكن ذلك كله مضى، وسيمضي العمر ويذهب الجاه والمال كما ذهب الشباب وينسى الناس كل ما عملت وعمل غيري ولا يبقى إلا الذي يحمله معه العبد إلى آخرته، هذا وحده الذي يبقى وكل ما سواه إلى زوال.

فيا ربّ لا تجعل عملي يذهب سُدى واكتب لي بفضلك ورحمتك بعض الثواب عليه. اللهمّ اجعل ما كتبت وما خطبت من العلم النافع الذي لا ينقطع بانقطاع العمر. اللهم إني أستغفرك وأتوب إليك، وأسألك حسن الخاتمة والوفاة على الإيمان.

جدة (الزهراء)
٢٥ ذو القعدة ١٤٠٨
علي الطنطاوي

بين يدي الكتاب

إذا كنت مسافراً وحدك فرأيت أمامك مفرق طريقين: طريقاً صعباً صاعداً في الجبل وطريقاً سهلاً منحدراً إلى السهل، الأول فيه وعورة وحجارة منثورة وأشواك وحفر، يصعب تسلّقه ويتعسر السير فيه، ولكن أمامه لوحة نصبتها الحكومة فيها: "إن هذا الطريق -على وعورة أوّله وصعوبة سلوكه- هو الطريق الصحيح الذي يوصل إلى المدينة الكبيرة والغاية المقصودة"، والثاني معبّد تظلله الأشجار ذوات الأزهار والثمار وعلى جانبيه المقاهي(١) والملاهي، فيها كل ما يلذ القلب ويسرّ العين ويشنّف(٢) الأذن، ولكن عليه لوحة فيها: "إنه طريق خطير مُهلك، آخره هُوَّة فيها الموت المحقق والهلاك الأكيد". فأيَّ الطريقين تسلك؟

لا شك أن النفس تميل إلى السهل دون الصعب واللذيذ دون المؤلم وتحب الانطلاق وتكره القيود، هذه فطرة فطرها الله عليها، ولو ترك الإنسانُ نفسَه وهواها وانقاد لها سلك الطريق الثاني، ولكنّ العقل يتدخل؛ يوازن بين اللذة القصيرة الحاضرة

(١) أقهى: داوم على شرب القهوة.

(٢) الشَّنْف: القُرط (الحلق) والتعبير هنا على المجاز.

يعقبها ألم طويل والألم العارض المؤقت تكون بعده لذة باقية، فيُؤْثِر الأول.

هذا هو مثال طريق الجنة وطريق النار.

طريق النار فيه كل ما هو لذيذ ممتع تميل إليه النفس ويدفع إليه الهوى، فيه النظر إلى الجمال ومفاتنه، فيه الاستجابة للشهوة ولذّاتها، فيه أخذ المال من كل طريق، والمال محبوب مرغوب فيه، وفيه الانطلاق والتحرر، والنفوس تحب الحرية والانطلاق وتكره القيود.

وطريق الجنة فيه المشقات والصعاب، فيه القيود والحدود، فيه مخالفة النفس ومجانبة الهوى. ولكن عاقبة هذه المشقة المؤقتة في هذا الطريق اللذة الدائمة في الآخرة، وثمرة اللذة العارضة في طريق النار الألم المستمر في جهنم. كالتلميذ ليالي الامتحان: يتألم حين يترك أهله عاكفين على الرائي(١) يشاهدون ما يسر ويمتع وينفرد هو بكتبه ودفاتره، فيجد بعد هذا الألم لذة النجاح، وكالمريض يصبر أياماً على ألم الحِمية عن أطايب الطعام فينال بعدها سعادة الصحة.

وضع الله الطريقين أمامنا ووضع فينا مَلَكة نفرّق بها بينهما، نعرف بها الخير من الشر، سواء في ذلك العالم والجاهل والكبير والصغير، كلٌّ منهم يستريح ضميره إذا عمل الخير وينزعج إذا

---

(١) كلمة وضعتها للتلفزيون، وهي «اسم فاعل» بمعنى «اسم المفعول» على المجاز العقلي، كقوله تعالى: ﴿فهو في عيشة راضية﴾ أي: في عيشة مَرضيّة.

أتى الشر. بل إن هذه الملكة موجودة حتى في الحيوان: القط إذا ألقيت إليه بقطعة اللحم أكلها أمامك متمهلاً مطمئناً، وإذا خطفها ذهب بعيداً فأكلها على عجل وعينه عليك، يخاف أن تلحق به فتنزعها منه. أفليس معنى هذا أنه أدرك أن اللقمة الأولى حق له والثانية عدوان منه؟ أليس هذا تفريقاً بين الحق والباطل وبين الحلال والحرام؟ والكلب إذا عمل حسناً تمّسح بصاحبه كأنه يطلب منه المكافأة، وإذا أذنب ذنباً نأى فوقف بعيداً، يبصبص بذنَبه كأنه يبدي المعذرة أو يتوقع العقاب.

وهذا تأويل قوله تعالى: ﴿وهديناه النَّجْدَين﴾.

وأقام الله على طريق الجنة دعاةً يدعون إليه ويدلّون عليه، هم الأنبياء، كما قام على طريق النار دعاةٌ يدعون إليه ويرغّبون فيه، هم الشياطين، وجعل العلماء ورثة الأنبياء، ما ورثوا منهم مالاً ولا عقاراً ولكن ورثوا هذه الدعوة، فمن قام بها حق قيامها استحق شرف الميراث.

وهذه الدعوة صعبة لأن النفس البشرية طبعت على الميل إلى الحرية والدين يُقيّدها، وعلى الانطلاق وراء اللذة والدين يُمسكها، فمَن يدعو إلى الفسوق والعصيان يوافق طبيعتها فتمشي معه مَشْيَ الماء في المنحدر. اصعدْ إلى خزان الماء في رأس الجبل فاثقبه بضربة معول ينزل الماء وأنت واقف حتى يستقر في قرارة الوادي، فإذا أردت أن تعيده لم يَعُد إلا بمضخات ومشقات ونفقات بالغات. والصخرة الراسية في الذروة لا تحتاج إلّا إلى زحزحتها وإمالتها حتى تتدحرج وتهوي، تنزل بلا مشقة ولا تعب، فإذا أردت أن ترجعها وجدت المتاعب والمشقات.

وهذا هو مثال الإنسان.

الرفيق الشرير يقول لك: ها هنا امرأة جميلة ترقص عارية، فتميل إليها نفسك ويدفعك إليها هواك ويسوقك إليها ألف شيطان، فلا تشعر إلا وأنت على بابها، فإذا جاء الواعظ ليصرفك عنها صَعُبَ عليك الاستجابة إليه ومقاومة ميلِ نفسك وهوى قلبك. فدعاة الشر لا يتعبون ولا يبذلون جهداً، ولكن التعب وبذل الجهد على دعاة الخير وعلى الوعاظ. داعي الشر عنده كل ما تميل إليه النفس، من العورات المكشوفة والهوى المحرم وكل ما فيه متعة العين والأذن ولذة القلب والجسد، أما داعي الخير فما عنده إلا المنع.

ترى البنت المتكشفة فتميل إلى اجتلاء محاسنها، فيقول لك: غُضَّ بصرك عنها ولا تنظر إليها. ويجد التاجر الربح السهل من الربا يناله بلا كدّ ولا تعب والنفس تميل إليه، فيقول له: دعه وانصرف عنه ولا تمدّ يدك إليه. ويبصر الموظف رفيقه يأخذ من الرشوة في دقيقة واحدة ما يعادل مرتبه عن ستة أشهر، ويتصور ما يكون له بها من سعة وما يقضي بها من حاجات، فيقول له: لا تأخذها ولا تستمتع بها.

يقول لهم: اتركوا هذه اللذات الحاضرة المؤكدة لتنالوا اللذات الآتية المغيّبة، دعوا ما ترون وما تبصرون إلى ما لا ترون الآن ولا تبصرون، قاوموا مَيْل نفوسكم وهوى قلوبكم. وذلك كله ثقيل على النفس. ولا تنكروا وصفي الدين بأن ثقيل، فإن الله سماه بذلك في القرآن فقال: ﴿إنّا سنُلقي عليك قولاً ثقيلاً﴾. وكل المعالي ثقيلات على النفس: تركُ التلميذ الرائي (التلفزيون)

والإقبال على الدرس ثقيل، وتركُ العالم مجلسَ التسلية والاشتغالُ بالقراءة والإقراء ثقيل، وتركُ النائم فراشَه والنهوض إلى صلاة الفجر ثقيل، وهجرُ الرجل زوجَه وولده ومَشيه إلى الجهاد ثقيل.

لذلك تجد الطالحين أكثر من الصالحين والغافلين السادرين في الغيّ أكثر من الذاكرين السالكين سبيل الرشاد، ولذلك كان اتبّاع الكثرة بلا بصر ولا دليل يُضلّ فاعله في أكثر الأحيان: ﴿وإنْ تُطع أكثرَ مَن في الأرض يُضلّوك عن سبيل الله﴾. ولولا أن القلة والندرة من صفات السموّ والرفعة ما كان الألماسُ(١) نادراً والفحمُ كثيراً موفوراً، ولا كان العباقرة والنابغون والأبطال المتميزون قلّة في الناس.

* * *

إن الأنبياء وورثتهم من صالحي العلماء هم الدعاة إلى طريق الجنة، والشياطين وأعوانهم من الفاسدين المفسدين من الناس هم الدعاة إلى طريق النار. وقد جعل الله فينا، في داخلنا، أنصاراً لهؤلاء وأنصاراً لهؤلاء. في داخلنا حزب هو مع الأنبياء، وحزب هو حزب الشياطين في النفس الأمارة بالسوء.

تقولون: ما العقل وما النفس؟

ولست أدّعي أني أضع لكل منهما حدوداً ظاهرة وأميّزها تمييزاً واضحاً، فإن هذه الأمور لا تزال في ظلمات جَهْلنا بها،

(١) الذي جاء في أكثر كتب اللغة أن لامها أصلية، وذلك خلافاً لما في «القاموس المحيط» للفيروزابادي.

لم يستطع العلم أن يضيء جوانبها. كلنا يقول: قلت لنفسي وقال لي عقلي، فما أنت وما نفسك؟ وما نفسك وما عقلك؟ لم يتضح ذلك لنا بعد[1]، فلست أكشف هذا المجهول، ولكن أُذكّر بمثال

(١) إذا قلت «أنا» فإن جسدي جزء من «الأنا»، ولكن ليس كل «الأنا» لأن المرء قد تُبتر يداه ورجلاه ولا تنقص «الأنا» بالنسبة إليه. ونفسي (أي ميولي وعواطفي ولذاتي وآلامي) جزء من الأنا وليس كل الأنا، لأن المشاهَد أن الإنسان يبدل عواطفه وميوله، وأن ما يلذني اليوم (وأنا على عتبة السبعين) ما كان يلذني وأنا شاب، وما كان يؤلمني وأنا شاب لم يعد يؤلمني اليوم.

فالجسد إذن يتبدل حتى لا تبقى فيه خلية مما كان فيه قبل سنين، والنفس تتبدل آمالها وآلامها، فتحبّ ما كانت تكره وتكره ما كانت تحب. فما الشيء الذي لا يتبدل فيّ والذي هو «أنا» على التحقيق؟ هو الروح. وما الروح؟

أطلعنا الله على كثير من وظائف أعضاء الجسم وأسرارها وأمراضه وعلاجها وعلى كثير من أحوال النفس وعوارضها، وقال لنا أن من النفوس الأمّارة بالسوء واللوّامة والمطمئنة (وهي نفس واحدة، ولكن هذه أحوال تعرض فتصبغها بصبغتها) وأن النفس ذائقة الموت، ولكنه لم يطلعنا على شيء من أحوال الروح لأنها من أمر ربي.

الروح لا تخضع لقيود الزمان والمكان، فقد ينام النائم ربع ساعة أمامك فيرى أنه سافر إلى أميركا أو الهند وعاش عشرين أو ثلاثين سنة وأحس بأقصى السرور أو بمنتهى الألم، فكيف دخلت عشرون سنة في عشرين دقيقة؟ كيف تداخل المكانان؟ هذا مثال لعذاب القبر ونعيمه. الروح لا يؤثر فيها المرض ولا الصحة، الروح هي التي كانت موجودة قبل ارتباطها بهذا الجسد وبهذه النفس وستبقى بعد تحلل الجسد وفناء النفس، فـ«أنا» إذن الروح. وقد بدت لي هذه المعاني وأنا أعدّ الكتاب للطبعة الخامسة.

مشاهد معلوم: تكون نائماً في ليالي الشتاء متمتعاً بدفء الفراش ولذة المنام فتسمع قرع المنبة يدعوك إلى الصلاة، فتحسّ صوتاً من داخلك يقول لك: "قم إلى الصلاة". فإذا جئت تقوم سمعت صوتاً آخر يقول لك: "نم قليلاً". فيعود الصوت الأول يقول: "الصلاة خير من النوم". فيقول الثاني: "النوم لذيذ والوقت متسع، فتأخر دقائق". ولا يزال الصوتان يتعاقبان تَعاقُبَ دقّات الساعة: نَمْ، قُمْ، نَمْ، قُم...[١]

هذا هو العقل وهذه هي النفس.

وهذا مثال يتكرر آلاف المرات في آلاف الصور كلما عرض للمرء مثل هذا الموقف فوقف أمام لذة محرمة تدعوه نفسه إلى غشيانها وكان في قلبه إيمان يدفع عقله إلى منعه منها، وعلى مقدار ما يكون من انتصار العقل تكون قوة هذا الإيمان. وليس معنى هذا أن ينتصر العقل دائماً وأن لا يقارب المسلم المعاصي أبداً، فالإسلام دين الفطرة، دين الواقع، والواقع أن الله خلق خلقاً للطاعة الخالصة ولمحض العبادة هم الملائكة، ولم يجعلنا الله ملائكة، وخلق خلقاً شأنهم المعصية والكفر هم الشياطين، ولم يجعلنا كالشياطين، وخلق خلقاً لم يعطهم عقولاً ولكن غرائز، فلا يُكلَّفون ولا يُسأَلون، وهم البهائم والوحوش، ولم يجعلنا الله وحوشاً ولا بهائم.

---

(١) ويحسّ مثل ذلك من يريد القفز من فوق حفرة أو ساقِيَة وهو يرجو الوصول ويخشى السقوط، ويسمع من نفسه صوتين متعاقبين "ثِبْ، ارجع، ثِبْ، ارجع..." فإن وثب عند قول «ثِبْ» ولم يتردد نجح، وإن تردد حتى جاء قول «ارجع» ووثب سقط، وهذا مجرَّب.

فما نحن إذن؟ ما الإنسان؟

الإنسان مخلوق متميز، فيه شيء من الملائكة وشيء من الشياطين وشيء من البهائم والوحوش، فإذا استغرق في العبادة وصَفَا قلبُه إلى الله عند المناجاة وذاق حلاوة الإيمان في لحظات التجلي غلبت عليه في هذه الحال الصفة الملكية، فأشبه الملائكة الذين لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يُؤمَرون.

فإذا جحد خالقه وأنكر ربه، فكفر به أو أشرك معه في عبادة غيره، غلبت عليه في هذه الحالة الصفة الشيطانية.

وإذا عصف به الغضب فأوتر أعصابه وألهب دمه وشدّ عضلاته، فلم يعد له أمنية إلا أن يتمكن من خصمه فيعضّه بأسنانه وينشب فيه أظافره ويطبق على عنقه بأصابعه فيخنقه خنقاً ثم يدعسه دعساً[١]، غلبت عليه في هذه الحالة الصفة الوحشية فلم يبقَ بينه وبين النمر والفهد كبيرُ فرق.

وإذا عضّه الجوع وبرّح به العطش وانحصرت آماله في رغيف يملأ معدته وكأس تبل صداه، أو تملكته الشهوة وسيطرت على نفسه الرغبة الجنسية، فغلا بها دمه واشتعلت بها عروقه وامتلأ ذهنه بخيالات الشبق وأمانيه، غلبت عليه في هذه الحالة الصفة البهيمية، فكان كالفحل أو الحصان أو ما شئت من أصناف الحيوان.

هذه حقيقة الإنسان: فيه الاستعداد للخير والاستعداد للشر،

---

(١) «دعس» عربية فصيحة، أما «دهس» فخطأ.

أعطاه الله الأمرين ومنحه العقل الذي يميز به بينهما والإرادة التي يستطيع بها أن يحقق أحدهما، فإنْ أحسن استعمال عقله في التمييز وأحسن استعمال إرادته في التنفيذ ونمّى استعداده للخير حتى تخلق به وأنجزه كان في الآخرة من السعداء، وإن كانت الأخرى كان من المعذَّبين.

* * *

صحيح أن النفس مطبوعة على الحرية والدين قيد، ولكن لا بدّ من هذا القيد، ولو تركناها تأتي الفواحش كما تشاء انطلاقاً من طبع الحرية فيها لصار المجتمع مارستاناً كبيراً، لأن الحرية المطلقة للمجانين. المجنون يفعل كل ما يخطر على باله، يمشي في الطريق عارياً، ويركب على كتفي سائق السيارة العامة، ويستحسن ثوبك فيأخذه من فوق كتفيك، وتعجبه ابنتك فيطلبها منك بحق الغرام لا بشرعة الإسلام... المجنون هو الحر الحريةَ المطلقة، وأما العاقل فإن عقله يقيد حريته.

وما العقل؟ إنه قيد. إن لفظه مشتق من الأصل الذي اشتُقَّ منه «العقال»، أي الحبل الذي يقيَّد به الجمل. والحكمة قريبة المعنى، من «حَكَمة» الدابة وهي كذلك قيد. والحضارة قيد، لأنها لا تدعك تفعل ما تريد بل توجب عليك مراعاة حقوق الناس وأعراف المجتمع. والعدالة قيد، لأنها تضع نهاية لحريتك حيث تبدأ حرية جارك.

ثم إن المعاصي لذيذة لأنها توافق طبيعة النفس. إنك تجد لذة في سماع الغيبة والمشاركة فيها لأنها تُشعرك بأنك خيرٌ من

هذا الذي يذكرونه بالسوء وأفضل، والسرقة لذيذة لأن فيها امتلاك المال بلا كدّ ولا نصب، والزنا لذيذ لأن فيه إعطاء النفس هواها وإنالتها مشتهاها، والغش في الامتحان لذيذ لأنه يوصل إلى النجاح بلا جهد، والهرب من الواجب -مهما كان- لذيذ على النفس لأن فيه الراحة والكسل.

ولكن الإنسان حين يفكر ويستعمل عقله يجد أن هذه الحرية المؤقتة لا تساوي ما بعدها من سجن في جهنم طويل، وهذه اللذة المحرمة لا تعدل ما بعدها من العذاب.

مَن يرضى أن نجعل بيننا وبينه عهداً، اتفاقية عند الكاتب العدل مدتها سنة، نعطيه خلالها كل ما يطلب من مال ونُسكنه في القصر الذي يريد في البلد الذي يختار، ونزوجه بمن شاء من النساء، مثنى وثلاث ورباع، ولو طلق كل عشية واحدة وتزوج كل صباح أخرى، ولا نمنع عنه شيئاً يريده، ولكنّا إذا انقضت السنة علّقناه من عنقه على المشنقة حتى يموت؟ ألا يقول: تعساً وبُعداً للذة سنة بعدها الموت؟ ألا يتصور نفسه ساعة يعلَّق على المشنقة فيرى أنه لم يبق في يده شيء منها؟ مع أن ألم الشنق بعض دقيقة وعذاب الآخرة دهر طويل.

ليس منا أحد لم يقارف في عمره معصية ولم يجد لهذه المعصية لذة، أقلها أنه آثر متعة الفراش مرة على القيام لصلاة الفجر، فماذا بقي في أيدينا الآن من هذه اللذة التي أحسسنا بها قبل عشر سنين؟ وليس منا أحد لم يُكره نفسه على أداء طاعة ولم يحمل لهذه الطاعة ألماً، أقله الجوع والعطش في رمضان، فماذا بقي في نفوسنا الآن من ألم الجوع في رمضان الذي جاء من عشر

سنين؟ لا شيء. ذهبت لذات المعاصي وبقي عقابها، وذهبت آلام الطاعات وبقي ثوابها. وساعة الموت، ما الذي يبقى لنا -تلك الساعة- من جميع اللذائذ التي ذقناها والآلام التي حملناها؟

إن كل مؤمن يريد أن يتوب ويرجع إلى الله، ولكنه يؤجّل ويسوّف. أنا كنت أقول: إذ حججتُ تبتُ وأنبت، ثم رأيت أني حججت وما تبت. وكنت أقول: إذا بلغت الأربعين تبتُ وأنبت، فبلغتها وما تبت، وجاوزت الستين وما تبت، وشبت وما تبت. ليس معنى هذا أني مقيم على المحرمات مرتكب للفواحش، لا وبحمد الله، ولكن معناه أن الإنسان يرجو لنفسه الصلاح ولكنه يسوّف، يظن أن في الأجل فسحة، يحسب أن العمر طويل فيرى الموت قد طرقه فجأة. وقد رأيت أنا الموت مرتين وعرفت ما شعور الميت، "مرة لما غرقت في البحر ونجوت في آخر ثانية، ومرة لما أجمع أطباء مستشفى دمشق على أني متّ أو أشرفت، ثم عدت إلى الحياة بمعجزة إلهية لم يعرف سرَّها الأطباء"[1]،

---

(١) ما بين الأقواس إضافة لم تظهر في طبعات الكتاب السابقة، وقد ظهرت في أصله الذي نُشر أولاً في حلقات في جريدة «المدينة» فاستحسنت إثباتها في موضعها هنا لتمام المعنى. وحادثة مرضه كانت سنة ١٩٥٧ وأشار إليها في الحلقة ٢٣٢ من «الذكريات» فقال: "وكان إخواننا يخافون أن يقع لي ما وقع في المرّة الماضية (سنة ١٩٥٧) في مستشفى المُجتهِد، وهو أكبر مستشفيات وزارة الصحة في دمشق في تلك الأيام، حين جاء طبيب داخلي يتدرب فيه، وكان شيوعياً خبيثاً، فأدخل في دمي جرثومة نادرة هي التي تُسمّى بالعربية «العُصَيّات الزرقاء»، فكان من أثر ذلك أن بقيت في هذا المستشفى=

وبقيت على هذا الشعور شهوراً صرت فيها صالحاً، ثم انغمست مرة ثانية في غمرة الحياة ونسيت، نسيت الموت.

كلنا ننسى الموت، نرى الأموات يمرون بنا كل يوم ولكن لا نتصور أننا سنموت، نقف في صلاة الجنازة ونحن نفكر في الدنيا، يظن كل واحد منا أن الموت كُتب على الناسِ كلهم إلا عليهم، مع أن الإنسان يعلم أن الدنيا مولية عنه وأنه مُوَلٍّ هو عنها.

مهما عاش الإنسان فهو ميت. ليعش ستين سنة، ليعش سبعين، ليعش مئة سنة، ألا تنقضي؟ ألا تعرفون من عاش مئة سنة ثم مات؟ نوح لبث يدعو قومه تسعمئة وخمسين سنة، فأين نوح الآن؟ هل بقيت له الدنيا؟ هل سلم من الموت؟ فلماذا لا نفكر في الموت ونستعد له إن كان لا بد منه؟

مَن كانت أمامه سفرة لا يعرف موعدها ألا يتهيأ لها حتى يكون جاهزاً، فإذا دُعي أجاب؟ رأيت (وكنت الصيفَ الماضي في عمان) المعلمين الأردنيين الذين تعاقدوا مع المملكة العربية السعودية للعمل فيها وقد خبّروهم أن الطيارات تنقلهم تباعاً فليستعدوا. فمن أنجز جواز سفره وأكمل حزم متاعه وودّع أهله ووضع إلى جنبه ثيابه فإنه يلبي في أي ساعة يدعى فيها، فيلبس

= ثم في مستشفى كلية الطب حين انتقلت إليه أربعة عشر شهراً". أما قصة الغرق فإنها مبسوطة في مقالة «في لجّ البحر» المنشورة في كتاب «من حديث النفس»، قال في أولها: "مات علي الطنطاوي! وليس عجيباً أن يموت، فالموت غاية كل حي، ولكن العجيب أن يرجع بعدما مات ليصف للقراء الموت الذي رآه" (مجاهد).

ثيابه ويمضي إلى المطار. ومن أهمل وأجّل حتى إذا دُعي قال لهم "أمهلوني حتى أنزل إلى السوق فأشتري متاعي وأذهب إلى القرية فأودّع أهلي وأراجع الحكومة لاستخراج جوازي" لم يمهلوه، بل ذهبوا وتركوه. ولكن ملَك الموت إذا جاء لا يتركه ويذهب، بل يأخذه كُرهاً، يأخذه ولو كان آبياً، لا يمهله ساعة، ولا دقيقة، ولا لمحة، ولا يملك أن يمهله، ولا يعرف أحد منا متى يأتي ليأخذه ملك الموت.

* * *

وما الموت؟ ما حقيقته؟ إن لحياة الإنسان مراحل، فمرحلةٌ وهو جنين في بطن أمه، ومرحلة وهو في هذه الدنيا، ومرحلة وهو في البرزخ بين الدنيا والآخرة، من يوم موته إلى يوم القيامة، والمرحلة الدائمة، وهي الحياة الحقيقية، مرحلة الآخرة. ونسبة كل مرحلة لما قبلها كنسبة ما بعدها إليها.

إن سعة هذه الدنيا بالنسبة لضيق بطن الأم كسعة البرزخ بالنسبة لهذه الدنيا وسعة الآخرة بالنسبة للبرزخ. إن الجنين يحسب دنياه هذا البطن، ولو عقل وفكر وسئل وأجاب لقال بأن خروجه منه موت محقق. ولو كان في البطن توأمان فوُلد أحدهما قبل الآخر ورآه نزل قبله ففارقه وقد كان معه لقال بأنه مات ودُفن في الأعماق، ولو رأى المشيمة التي كانت من جسده ملقاة مع القمامة لظن بأنها هي أخوه وبكى عليها كما تبكي الأم حين ترى جسد ولدها الذي كانت تخشى عليه مسّ الغبار قد أودع التراب، لا تدري أن هذا الجسد كالمشيمة، قميص توسخ وألقي، ثوب انتهى وقته وانقضت الحاجة إليه.

هذا هو الموت، إنه ولادة جديدة، خروج إلى مرحلة أطول وأرحب من مراحل الحياة. وما هذه الدنيا إلا طريق، حياتنا فيها كحياة المهاجر إلى أميركا، إنه يحسن اختيار غرفته في الباخرة ويحرص على راحته فيها ويهتم بها، ولكن هل ينفق ماله كله على تجديد فرشها ونقض جدرانها حتى لا يبقى معه شيء فيصل إلى أميركا مفلساً خالي الوفاض، أم يقول: "إن مدة بقائي في هذه الغرفة أسبوعاً، فأنا أرضى فيه بما تيسر وأمشّي فيه الحال وأدخر المال لإعداد الدار التي سأسكنها في أميركا لأن فيها المقام"؟

أتعرفون ما مثال الدنيا والآخرة؟

أعلنت أميركا مرة عن تجربة ذرية تجريها في جزيرة صغيرة من جزر البحر الهادي، وكان ذلك من خمس عشرة سنة أو نحوها، وكان في الجزيرة بضع مئات من السكان من صيادي الأسماك، فطلبت إليهم إخلاء مساكنهم، على أن تعوضهم عنها وعمّا فيها ببيوت مفروشة في أي بلد يريدون من البلدان، على أن يعلنوا استعدادهم لإخلائها وإحصاءهم لما فيها قبل موعد كذا (وحددت لهم موعداً) ثم تأتي الطيارات فتحملهم من الجزيرة.

فمنهم من أعلن الاستعداد للإخلاء وقدم الإحصاء قبل الموعد، ومنهم من أهمل وأجّل حتى قرب الموعد، ومنهم من قال: "هذا كله كذب، ما في الوجود مكان اسمه أميركا وما الدنيا إلا هذه الجزيرة، ولسنا نتركها ولا نرضى أن نفارقها"، ونسي أن الجزيرة ستُنسف كلها فتكون أثراً بعد أن كانت عيناً.

هذا مثل الدنيا، والأول مثل المؤمن الذي يفكر في آخرته

ويستعد بالتوبة والطاعة دائماً للقاء ربه، والثاني مثل المؤمن المقصر العاصي، والثالث مثل المادي الكافر الذي يقول: إنما هي حياتنا الدنيا، لا حياة بعدها، وإن الموت نوم طويل وراحة دائمة وفناء محقق.

وليس معنى هذا أن الإسلام يطلب من المسلم أن يزهد في الدنيا مرة واحدة وينفض أصابعه منها، ولا أن يسكن المساجد فلا يخرج منها، ولا أن يأوي إلى مغارة يمضي حياته فيها. لا، بل إن الإسلام يطلب من المسلمين أن يكونوا في الحضارة الخيّرة سادة المتحضرين، وفي المال أغنى الأغنياء، وفي العلم، العلم كله، أعلم العلماء. وأن يعرف كل مسلم حق جسده عليه بالغذاء والرياضة، وحق نفسه بالتسلية والإجمام والمتعة بغير الحرام، وحق أهله بالرعاية وحسن الصحبة، وحق ولده بالتربية والتوجيه والعطف، وحق المجتمع بالعمل على كل ما يصلحه، كما يعرف حق الله بالتوحيد والطاعة.

يجمع المال ولكن مع الحلال، ويستمتع بالطيبات المباحة، ويكون في الدنيا على أحسن ما يكون عليها أهلها، بشرط أن يبقى صحيح التوحيد، لا يداخل إيمانه شرك ظاهر أو خفيّ، صحيح الإسلام، يدع المحرمات ويأتي الفرائض، وأن يكون المال في يده لا في قلبه، لا يكون اعتماده عليه بل يكون اعتماده على ربه، وأن يكون رضا الله هو مقصده ومبتغاه.

* * *

دين الإسلام [1]

قلت مرة لطلابي: لو جاءكم رجل أجنبي فقال لكم أن لديه ساعة من الزمن يريد أن يفهم فيها ما الإسلام، فكيف تُفهمونه الإسلام في ساعة؟

قالوا: هذا مستحيل، ولا بد له أن يدرس التوحيد والتجويد والتفسير والحديث والفقه والأصول، ويدخل في مشكلات ومسائل لا يخرج منها في خمس سنين.

قلت: سبحان الله! أما كان الأعرابي يقدم على رسول الله ﷺ فيلبث عنده يوماً أو بعض يوم فيعرف الإسلام، ثم يحمله إلى قومه فيكون لهم مرشداً ومعلماً ويكون للإسلام داعياً ومبلغاً؟ وأبلغ من هذا: أما شرح الرسول الدين كله (في حديث سؤال جبريل) بثلاث جمل تكلم فيها عن الإيمان والإسلام والإحسان؟ فلماذا لا نشرحه اليوم في ساعة؟

---

(١) أصل هذا الفصل هو المقالة التي نشرها المؤلف في مجلة «رابطة العالم الإسلامي» في رمضان ١٣٨٧ بعنوان «تعريف عام بدين الإسلام». انظر ص١١ في هذا الكتاب (مجاهد).

فما الإسلام؟ وكيف يكون الدخول فيه؟

كل نِحلة من النِّحَل الصحيحة والباطلة، وكل جمعية من الجمعيات النافعة والضارة، وكل حزب من الأحزاب الخيّرة والشريرة، لكل ذلك مبادئ وأسس فكرية ومسائل عقائدية[1]، تحدد غايته وتوجه سيره وتكون كالدستور لأعضائه وأتباعه.

ومن أراد أن ينتسب إلى واحد منها نظر أولاً إلى هذه المبادئ، فإن ارتضاها واعتقد صحتها وقبل بها بفكره الواعي وبعقله الباطن ولم يبقَ عنده شك فيها طلب الانتساب إلى الجمعية، فانتظم في سلك أعضائها ومتبعيها ووجب عليه أن يقوم بالأعمال التي يُلزمه بها دستورها ويدفع رسم الاشتراك الذي يحدده نظامها، وكان عليه بعد ذلك أن يدل بسلوكه على إخلاصه لمبادئها، فيتذكر هذه المبادئ دائماً فلا يأتي من الأعمال ما يخالفها، بل يكون بأخلاقه وسلوكه مثالاً حسناً عليها وداعية فعلياً لها.

فالعضوية في الجمعية هي «علم» بنظامها، و«اعتقاد» بمبادئها، و«إطاعة» لأحكامها، و«سلوك» في الحياة موافق لها.

هذا وضع عام ينطبق على الإسلام، فمن أراد أن يدخل في دين الإسلام عليه أولاً أن يقبل أسسه العقلية وأن يصدق بها

(١) تجوز النسبة إلى الجمع إذا جرى مجرى العلم، فنقول: «حقوق دولية» و«قوانين عمالية» و«مظاهرات طلابية» و«مسائل عقائدية»، كما قالوا كذلك: «عالم أصولي» و«رجل أنصاري» و«مائدة ملوكية» و«رسائل إخوانية».

تصديقاً جازماً حتى تكون له عقيدة. وهذه الأسس تتلخص في أن يعتقد أن هذا العالم المادي ليس كل شيء وأن هذه الحياة الدنيا ليست هي الحياة كلها. فالإنسان كان موجوداً قبل أن يولد وسيظل موجوداً بعد أن يموت، وأنه لم يُوجِد نفسه بل وُجد قبل أن يعرف نفسه، ولم توجده هذه الجمادات من حوله لأنه عاقل ولا عقل لها، بل أوجده وأوجد هذه العوالم كلها من العدم إله واحد، هو وحده الذي يحيي ويميت، وهو الذي خلق كل شيء، وإن شاء أفناه وذهب به. وهذا الإله لا يشبه شيئاً مما في العوالم، قديم لا أول له، باق لا آخر له، قادر لا حدود لقدرته، عالم لا يخفى شيء عن علمه، عادل ولكن لا تقاس عدالته المطلقة بمقاييس العدالة البشرية. هو الذي وضع نواميس الكون التي نسميها «قوانين الطبيعة»، وجعل كل شيء فيها بمقدار، وحدّد من الأزل جزئياته وأنواعه وما يطرأ عليه على الأحياء وعلى الجمادات من حركة وسكون وثبات وتحوّل وفعل وترك، ومنح الإنسان عقلاً يحكم به على كثير من الأمور التي جعلها خاضعة لتصرفه، وأعطاه عقلاً يختار به ما يريد، وإرادة يحقق بها ما يختار، وجعل بعد هذه الحياة المؤقتة حياة دائمة في الآخرة فيها يُكافَأ المحسن في الجنة ويُعاقَب المسيء في جهنم.

وهذا الإله واحد أحد، لا شريك له يُعبد معه ولا وسيط يقرّب إليه ويشفع عنده بلا إذنه، فالعبادة له وحده خالصة، بكل مظاهرها.

له مخلوقات مادية ظاهرة لنا تُدرَك بالحواس، ومخلوقات مغيَّبة عنا، بعضها جماد وبعضها حيّ مكلَّف، ومن الأحياء ما هو

خالص للخير المحض، وهم الملائكة، ومنها ما هو مخصوص بالشر المحض، وهم الشياطين (وهم من الجن)، وما هو مختلط، منه الخيّر والشرير والصالح والطالح، وهم الإنس والجن.

وأنه يختار ناساً من البشر ينزل عليهم المَلَك بالشرع الإلهي ليبلّغوه البشر، وهؤلاء هم الرسل. وأن هذه الشرائع تتضمنها كتب وصحائف أُنزلت من السماء، ينسخ المتأخر منها ما تقدّمه أو يعدله، وأن آخر هذه الكتب هو القرآن، وقد حُرِّفت الكتب والصحف قبله أو ضاعت ونُسيت وبقي هو سالماً من التحريف والضياع. وأن آخر هؤلاء الرسل والأنبياء هو محمد بن عبد الله العربي القرشي، خُتمت به الرسالات وبدينه الأديان، فلا نبيَّ بعده.

❋ ❋ ❋

فالقرآن هو دستور الإسلام، فمن صدق بأنه من عند الله وآمن به جملةً وتفصيلاً سُمّي مؤمناً، والإيمان بهذا المعنى لا يطّلع عليه إلا الله، لأن البشر لا يشقّون قلوب الناس ولا يعلمون ما فيها، لذلك وجب عليه -ليَعدّه المسلمون واحداً منهم- أن يعلن هذا الإيمان بالنطق بلسانه بالشهادتين، وهما: «أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمداً رسول الله».

فإذا نطق بهما صار مسلماً، أي «مواطناً» أصيلاً في دولة الإسلام، وتمتع بجميع الحقوق التي يتمتع بها المسلم، وقَبِل بالقيام بجميع الأعمال التي يكلفه بها الإسلام. وهذه الأعمال (أي العبادات) قليلة سهلة، ليس فيها مشقة بليغة وليس فيها حرج.

أولها: أن يركع في الصباح ركعتين يناجي فيهما ربه، يسأله من خيره ويعوذ به من عقابه، وأن يتوضأ قبلهما، أي يغسل أطرافه، أو يغسل جسده كله (إن كانت به جنابة). وأن يركع في وسطه أربعاً، ثم أربعاً، وأن يركع بعد غياب الشمس ثلاثاً، وفي الليل أربعاً. هذه هي الصلوات المفروضة، لا يستغرق أداؤها كلها نصف ساعة في اليوم، لا يُشترط لها مكان لا تؤدَّى إلا فيه ولا شخص معين (أي رجل دين) لا تصحّ إلا معه، ولا واسطة فيها (ولا في العبادات كلها) بين المسلم وربه.

الثاني: أنّ في السنة شهراً معيناً يقدم فيه المسلم فطوره فيجعله في آخر الليل بدلاً من أن يكون في أول النهار، ويؤخر غداءه إلى ما بعد غروب الشمس، ويمتنع في النهار عن الطعام والشراب ومعاشرة النساء، فيكون من ذلك شهر صفاء لنفسه وراحة لمعدته وتهذيب لخُلقُه وصحة لجسده، ويكون هذا الشهر مظهراً من مظاهر الاجتماع على الخير والتساوي في العيش.

الثالث: أنه إذا فضل عن نفقات نفسه ونفقات عياله مقدار من المال محدود، بقي سنة كاملة لا يحتاج إليه لأنه في غنى عنه، كُلِّف أن يُخرج منه بعد انقضاء السنة مبلغ اثنين ونصف في المئة للفقراء والمحتاجين، لا يحس هو بثقلها ويكون فيها عون بالغ للمحتاج، وركن وطيد للتضامن الاجتماعي، وشفاء من داء الفقر الذي هو شر الأدواء.

الرابع: إن الإسلام رتب للمجتمع الإسلامي اجتماعات دورية: اجتماع بمثابة مجالس الحارات يُعقَد خمس مرات في اليوم، مثل حصص المدرسة، هو صلاة الجماعة، يوثق كل

عضو فيه عبوديته لله بالقيام بين يديه، ويكون من ثماره أن يعين الأقوياء الضعيف ويعلّم العلماء الجاهل ويسعف الأغنياء الفقير، ومدة انعقاده ربع ساعة، فلا يعطل عاملاً عن عمله ولا تاجراً عن تجارته، وإذا تم الاجتماع وتخلف عنه مسلم فصلّى في بيته لم يُعاقَب على تخلفه ولكن فاته ثواب حضوره. واجتماع لمجالس الأحياء يُعقد مرة في الأسبوع هو صلاة الجمعة، ومدة انعقاده أقل من ساعة وحضوره واجب على الرجال. واجتماع هو كالمؤتمر الشعبي العام، يُعقد كل سنة في مكان معين، هو في الحقيقة دورة توجيهية ورياضية وفكرية، يكلف المسلم بأن يحضره مرة واحدة في العمر (إذا قدر على حضوره) وهو الحج.

❊ ❊ ❊

هذه هي «العبادات» الأصلية التي يُكلَّف بها.

ومن العبادات أن يمتنع عن أفعال معينة، أفعال يُجمع عقلاء الدنيا على أنها شر وأن الواجب الامتناع عنها، كالقتل بلا حق، والتعدّي على الناس، والظلم بأنواعه، والمُسْكر الذي يغيّب العقل، والزنا الذي يذهب الأعراض ويخلط الأنساب، والربا والكذب والغش والغدر، والفرار من الخدمة العسكرية التي يراد منها إعلاء كلمة الله. ومنها (بل من أشدها) عقوق الوالدين والحلف كاذباً وشهادة الزور، وأمثال ذلك من الأعمال القبيحة الشريرة التي تجتمع العقول على إدراك قبحها وشرها.

وإذا قصر المسلم في القيام ببعض الواجبات أو ارتكب بعض الممنوعات ثم رجع وتاب وطلب العفو من الله فإن الله يعفو

عنه، وإن لم يتب فإنه يبقى مسلماً معدوداً في المسلمين ولكنه يكون «عاصياً» يستحق العقاب في الآخرة، ولكن عقابه مؤقت لا يدوم دوام عقاب الكافر.

أما إذا أنكر بعض المبادئ (أي العقائد الأصلية) أو شكّ فيها أو جحد واجباً مُجمَعاً على وجوبه أو حراماً مُجمَعاً على حرمته أو أنكر ولو كلمة واحدة من القرآن فإنه يخرج من الدين ويعتبر مرتداً (تُنزع عنه الجنسية الإسلامية). والردة أكبر جريمة في الإسلام، فهي كالخيانة العظمى في القوانين الحديثة، جزاؤها -إن لم يرجع عنها ويتنصل منها- الموت. وقد يترك المسلم بعض الواجبات أو يأتي بعض الممنوعات وهو معترف بالوجوب والحرمة، فيبقى مسلماً ولكنه يكون عاصياً، أما الإيمان فلا يتجزأ، فلو آمن مثلاً بتسع وتسعين عقيدة وكفر بواحدة فقط كان كافراً.

وقد يكون المسلم غير مؤمن، كمن انتسب إلى حزب أو جمعية وحضر اجتماعاتها ودفع اشتراكاتها وقام بواجب العضو فيها، ولكنه لم يقبل بمبادئها ولم يقتنع بصحتها، بل دخل فيها للتجسس عليها أو إفساد أمرها. وهذا هو المنافق[١] الذي ينطق بالشهادتين ويؤدي العبادات ظاهراً ولكنه غير مؤمن بالحقيقة ولا ناجٍ عند الله، وإن كان عند الناس معتبَراً من المسلمين، لأن

---

(١) النفاق هو إظهار الإيمان وإبطال الكفر، وليس منه قوله ﷺ: «آية المنافق ثلاث...» فمن أخلف الوعد وكذب القول أو خان الأمانة لا يعتبر بهذا وحده كافراً، وإنما هو نفاق اجتماعي غير النفاق الأصلي، نفاق العقيدة الذي ذكرناه.

الناس لهم الظواهر والله وحده يطّلع على السرائر والقلوب.

فإذا آمن الإنسان بالأسس الفكرية للإسلام، وهي التصديق المطلق بالله وتنزيهه عن الشريك والوسيط وبالملائكة وبالرسل وبالكتب وبالحياة الآخرة وبالقدر، ونطق الشهادتين وصلى الفرائض وصام رمضان وأدى زكاة ماله (إن وجبت عليه الزكاة) وحج مرة في العمر (إن استطاع) وامتنع عن المحرمات المجمَع على حرمتها فهو مسلم مؤمن، ولكن ثمرة الإيمان لا تظهر منه ولا يُحسّ بحلاوته ولا يكون مسلماً كاملاً حتى يسلك في حياته مسلك المسلم المؤمن.

ولقد لخص رسول الله ﷺ منهاج هذا السلوك بجملة واحدة، كلمة من جوامع الكلم ومن أبلغ ما نطق به بشر، كلمة تجمع الخير كله، خير الدنيا وما في عَقِبه من خير الآخرة، هي أن يتذكر المسلم في قيامه وقعوده وخلوته وجلوته وجدّه وهزله وفي حالاتها كلها أن الله مطّلع عليه وناظر إليه، فلا يعصيه وهو يذكر أنه يراه، ولا يخاف أو ييأس وهو يعلم أنه معه، ولا يشعر بالوحشة وهو يناجيه، لا يحس بالحاجة إلى أحد وهو يطلب منه ويدعوه، فإن عصى (ومن طبيعته أن يعصي) رجع وتاب فتاب الله عليه.

كل ذلك من قوله ﷺ في تعريف الإحسان: «أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك».

* * *

هذا هو دين الإسلام بالقول المجمل، وتفصيله يأتي: «العقيدة» في هذا الجزء، و«الإسلام» و«الإحسان» في الأجزاء التالية إن شاء الله.[1]

* * *

(١) عندما كتب جدي هذا الكتاب كان في ذهنه أن ينشر بعده جزأين آخَرَين يَكمُل بهما تعريفُ الإسلام: عقيدةً وعبادةً وسلوكاً. وبقي هذا الخاطر في ذهنه سنين طوالاً، وأدركته لمّا أقمت معه في أواخر السبعينيات فكنت أعاونه في ترتيب كتبه وأوراقه وأحثه على إكمال ونشر ما لم يكمل من الكتب ويُنشَر حتى ذلك الوقت، ولكنه كان يؤجل العمل ويدافعه (على عادته رحمه الله) حتى ضعفت الهمة وتصرّم الوقت، وشاء الله أن يمضي إلى لقاء ربه ولم يصدر غيرُ هذا الجزء الوحيد الذي بارك الله فيه وكتب له الانتشار والقَبول (مجاهد).

تعريفات

لا بد لي -في هذا الفصل الذي أعرّف فيه العقيدة- من أن أعرض إلى توضيح بعض المصطلحات التي يكثر دورانها على ألسنة العلماء وورودها في كتب العقائد، وهي «الشك» و«الظن» و«العلم»، لأصل منها إلى تعريف «العقيدة».

ديكارت في منهجه المشهور ومن قبله الغزالي في «المنقذ من الضلال» بدآ بالشك ليصلا منه إلى اليقين. شكّ ديكارت ليتخذ من الشك سبيلاً للتحقق، فما هو الشك؟

إذا كنت في مكة مثلاً وسألك سائل: هل في الطائف الآن مطر؟ لا تستطيع أن تقول: «نعم» ولا تستطيع أن تقول «لا»، لأن من الممكن أن يكون في الطائف في تلك الساعة مطر ومن الممكن أن يكون الجو فيها صحواً لا مطر فيه. إمكان وجود المطر خمسون في المئة مثلاً وإمكان عدمه خمسون، تساوي الطرفان فلا دليل يرجّح الوجود ولا دليل يرجّح العدم. وهذا هو «الشك».

فإن نظرت وأبصرت في جهة الشرق (والطائف شرقي مكة) غيوماً تلوح على حواشي الأفق من بعيد رجح عندك رجحاناً خفيفاً أن في الطائف مطراً، وهذا الرجحان الخفيف لإمكان

الوجود هو ما يسمونه «الظن». فأنت تقول: "أظن أن في الطائف الآن مطراً"، فالظن ستون في المئة مثلاً «نعم» وأربعون «لا».

فإن رأيت الغمام قد ازداد وتراكم واسودّ وتراكب وخرج البرق يلمع من خلاله ازداد ظنك بنزول المطر في الطائف، فصار لـ«نعم» سبعون أو خمس وسبعون في المئة، وكان هذا ما يسميه علماؤنا «غلبة الظن»، فأنت تقول لسائلك: يغلب على ظني أن في الطائف الآن مطراً. فإن أنت ذهبت إلى الطائف فرأيت المطر بعينك وأحسست به على وجهك أيقنت بنزوله، وعلماؤنا يسمون هذا اليقين «علماً».

فصار لكلمة العلم معانٍ: «العلم» المطلق الذي يقابل الجهل. و«العلم» الذي يقابل الفن والفلسفة، فالكيمياء علم، أما الرسم فهو فن والشعر فن، والعلم بهذا المعنى هو الذي تكون غايته الحقيقة، وأداته العقل، ووسيلته المحاكمة والتجربة والاستقراء، والفن هو الذي تكون غايته الجمال، وأداته الشعور ووسيلته الذوق. و«العلم» الذي يجيء بمعنى اليقين، ويقابل الشك والظن، وهو الذي نقصده في هذا البحث[1].

---

(١) أما العلم بالمعنى الخاص، كقولنا «علم النحو» و«علم الكيمياء»، فلعلمائنا فيه تعريفات كثيرة، ولكن أوضح تعريف وأبعده عن التعقيد هو ما عرّفه به سارتون بقوله: "العلم هو مجموعة معارف محققة ومنظمة". فبقوله «معارف» خرجت المشاعر والخيالات، وبقوله «محققة» خرجت النظريات والفروض، وبقوله «منظمة» خرجت المعارف المبعثرة المتفرقة.

العلم الضروري والعلم النظري

العلم الذي يحصل بالحس والمشاهدة لا يحتاج إلى دليل. الجبل الذي تراه أمامك لا تحتاج إلى إقامة الدليل على وجوده، إنك تعلم -ضرورةً- بأنه موجود، وكل من يراه (من العقلاء) يعلم أنه موجود. وهذا ما يسمى «العلم الضروري».

أما العلم بأن مربع الوتر في المثلث القائم الزاوية يساوي مجموع مربّعَي الضلعين القائمين فيحتاج إلى دليل عقلي، فالعالم أو طالب العلم الذي يصل إلى الدليل يعلم هذه الحقيقة، أما العامي الجاهل فلا يعلمها ولا يصدق بها ما دام لم يطّلع على هذا الدليل، ولو رأى المثلث أمامه، ولو أقيم على كل ضلع منه مربع له. وهذا ما يسمى بالعلم النظري، وهو الذي لا يحصل إلا بالدليل العقلي.

البديهية والعقيدة

ومن العلم النظري ما يحتاج في الأصل إلى دليل ولا يُدرَك بمجرد الحس والمشاهدة، ولكنه يعمّ ويشتهر حتى يدركه العالم والجاهل والكبير والصغير، وحتى يصير أقرب إلى «العلم الضروري». مثاله: العلم بأن «الجزء أصغر من الكل». الرغيف الناقص أصغر من الرغيف الكامل، هذه حقيقة هي في الأصل من العلم النظري الذي يحتاج إلى دليل، ولكنك لا تجد من يشك فيها ويطلب الدليل عليها، فالطفل إذا أخذت منه كف الشكلاطة الكامل وأعطيته كفاً ناقصاً لا يقبله، وإذا حاولت إقناعه بأن هذا أكبر لم يقنع لأن كون الجزء أصغر من الكل بديهية. و«مقولة

الهُوِيّة» (أي كون الشي هو نفسه) بديهية، ولو قال لك قائل "أثبت لي أن هذا القلم الذي تحمله بيدك ليس ملعقة شاي" تقول له: هذه بديهية لا تحتاج إلى إثبات لأن القلم قلم.

فالبديهيات[1] هي الحقائق العقلية التي يقبلها الناس جميعاً ولا يطلب أحد عليها دليلاً، فإذا دخلت البديهية العقل الباطن واستقرت فيه وأثرت في الحدس والشعور ووجهت الإنسان في تفكيره (عقله الواعي) وفي أعماله سُمِّيَت «عقيدة» وسُمي الاعتقاد بها «إيماناً».

ولكنا نعرف أن الإنسان يعتقد الحق أحياناً ويعتقد الباطل حيناً، ونشاهد في هذه الأيام من أتباع المذاهب المنحرفة والمبادئ الباطلة من امتزج بها قلباً وقالباً وتمسك بها ظاهراً وباطناً وبذل ماله ونفسه في نصرتها وحمايتها، فهل نسمي هؤلاء مؤمنين؟ أما إطلاقاً فلا، ولكن يمكن أن نطلق عليه اسم الإيمان مضافاً إلى الباطل الذي يؤمنون به، على نحو قوله تعالى: ﴿ألم تَرَ إلى الذين أوتُوا نصيباً من الكتاب يُؤمنون بالجِبْتِ والطاغوت﴾.

ويمكن إطلاق اسم الإيمان مقيَّداً بالوصف، نحو قوله تعالى: ﴿وما يُؤمن أكثرُهم بالله إلا وهم مشركون﴾. أما الإيمان بالمعنى الخاص الذي لا ينصرف إذا أُطلق إلا إليه ولا يدل إلا

(١) القياس أن نقول في النسبة إلى البديهية بدهي، لكن علماءنا استعملوا من القديم كلمة «بديهي» و«طبيعي» كما يستعملها جمهور الناس اليوم. وأنا أؤثر أن أستعمل العامي الفصيح تنبيهاً على فصاحته، وقد نبهت في حواشي كتبي إلى عشرات وعشرات من هذه الكلمات.

عليه، المعنى الذي يراد كلما ورد ذكر الإيمان ومشتقاته في الكتاب والسنة وعلى ألسنة العلماء، فهو: "الاعتقاد بالله رباً واحداً. ومالكاً مختاراً متصرفاً. وإلهاً مفرداً بالعبادة، لا يُشرَك معه غيرُه في كل ما هو من جنس العبادة. والاعتقاد بكل ما أَوْحى به إلى نبيه، من خبر الملائكة والرسل واليوم الآخرة والقدر خيره وشره".

وصاحب هذا الاعتقاد هو المؤمن، فإن نقص[1] شيئاً منه أو ردّه، أو تردد في تصديقه أو شك فيه فقَدَ صفة الإيمان ولم يَعُد يُعَدُّ مع المؤمنين.

* * *

(١) نقص شيئاً منه بمعنى أنقص.

قواعد العقائد[1]

القاعدة الأولى

ما أدركه بحواسي لا أشك في أنه موجود.

هذه بديهية عقلية مسلَّمة، ولكن المشاهَد أني أمشي في الصحراء ساعة الظهيرة فأرى بركة ماء تلوح ظاهرة للعين، فإذا جئتها لم أجد إلا التراب لأن الذي رأيته سراب. وأضع القلم

---

(١) أستأذن قارئ كتابي بأن أمهد لذكر هذه القواعد بكلمة ليست من موضوع هذا الكتاب، ولكنها تبين قصتها وكيف وصلت إليها.

وتفصيل ذلك: أنني كنت أدرّس الأدب العربي في بغداد قبل الحرب الثانية، فكُلّفت في النصف الثاني من العام أن أدرّس معه الدين. وكان منهج الدين سوراً من القرآن تُفسَّر وتُشرَح، فقبلت ودخلت، فإذا الفصل في هرج ومرج، وكان عهدي به في درس الأدب هادئاً ساكناً، وإذا الطلاب يتخذون من درس الدين مسلاة ومضيعة للوقت. وأدركت أن سبب ذلك ضعف الإيمان في نفوسهم، فقلت لهم: ارفعوا المصاحف واسمعوا... وألهمني الله إلهاماً مفاجئاً بلا إعداد سابق بحثاً جديداً في الإيمان، وضعت فيه بعض هذه القواعد ونشرت خلاصته في مجلة «الرسالة» سنة ١٩٣٧، وهو في كتابي=

المستقيم في كأس الماء فأراه منكسراً، وهو لم ينكسر. ويكون المرء في سهرةٍ الحديثُ فيها عن الجن والعفاريت ثم يذهب إلى داره، فإن كان الطريق خالياً مظلماً وكان مخلوع القلب واسع الخيال رأى أمامه جنياً أو عفريتاً، فشاهده وأحس بوجوده وما ثمة شيء مما رأى. والسحرة والمشعوذون يعرضون غرائب تراها ولا حقيقة لها.

فالحواس إذن تخطئ وتخدع وتتوهم، أو يتوهم صاحبها، فهل أشك -لهذا- في وجود ما أحس به؟ لا، لأني إن شككت فيما أرى وأسمع وأحس تداخلت لديّ الحقائق والخيالات وصرت أنا والمجنون سواء.

ولكنْ أضيف شرطاً آخر لحصول العلم (أي اليقين) بوجود ما أحسه، هو أن يحكم العقل بالتجربة السابقة أن الذي أحس ليس وهماً أو خداعَ حواس. والعقل يُخدَع أول مرة فيحسب السراب ماء، فإذا رآه مرة أخرى أدرك أنه سراب. والعقل يحكم

= «فِكَر ومباحث». ولما كُلّفت وضع مناهج مدارس الأوقاف في سوريا أيام الوحدة (ووضعتها كلها وحدي وطبِّقت كما وضعتها) أدخلت هذه القواعد في المنهج ودللت على ما كتبته ليكون مرجعاً، فأخذه أحد المؤلفين في العقائد وادّعاه لنفسه ووضعه في كتابه، ولكن لم يَهتدِ إلى ما أريده منه، فمشى في أول الطريق وضاع في آخره. فلما أُحلت على المعاش (وكنت مستشار محكمة النقض) وذهبت إلى الرياض ثم إلى مكة أدرّس في كلية التربية فيها سنة ١٣٨٤هـ رجعت إلى هذه القواعد، وزدت فيها حتى بلغت ثماني قواعد هي التي أذكرها هنا.

بعد أن رأى القلم منكسراً لأول مرة أنه لا يزال مستقيماً كما كان وإن بدا للعين منكسراً. والأمور التي تخطئ فيها الحواس أو تُخدع أمور محدودة معدودة معروفة لا تُبطل القاعدة ولا تؤثر فيها، ومنها عمل سحرة فرعون وما يعمله سحرة «السيرك» في هذه الأيام.

القاعدة الثانية

إن اليقين كما يحصل بالحس والمشاهدة يحصل بالخبر الذي نعتقد صدق صاحبه.

هناك أشياء ما شاهدناها ولا أحسسنا بها ولكن نوقن بوجودها كما نوقن بوجود ما نشاهده ونحس به. نوقن بوجود الهند والبرازيل ولم نَزُرْهما ولم نَرَهما، ونوقن بأن الإسكندر المقدوني فتح بلاد فارس والوليد بن عبد الملك بنى الجامع الأموي، ولم نحضر حروب الإسكندر ولا شهدنا بناء الجامع الأموي. ولو نظر كل واحد منا في نفسه لرأى أن ما يوقن بوجوده من الأشياء التي لم يرَها أكثرُ من الأشياء التي رآها من الممالك والبلدان ومن حوادث التاريخ الذي كان ومما يقع الآن.

فكيف أيقن بوجود هذه الأشياء وهو لم يدركها بحواسه؟ أيقن به حين نقله جماعات عن جماعات لا يُتصوَّر إمكان اتفاقهم في العادة على اختراع هذه الأخبار ونقلها كذباً.

القاعدة الثالثة

ما مدى العلم الذي تبلغه الحواس؟ وهل تستطيع أن تصل إلى إدراك كل موجود؟

إن مَثَل النفس والحواس مع الموجودات كمثل رجل سجنه الحاكم في برج القلعة وسدّ عليه الأبواب والنوافذ ولم يترك له إلا شقوقاً في جدار البرج، شقّاً يطل منه على النهر الذي يجري في الشرق، وشقّاً على الجبل الذي يقوم في الغرب، وشقّاً على القصر الذي يجثم في الشمال، وشقاً على الملعب الذي يقع في الجنوب.

السجين هو النفس والقلعة الجسد، وهذه الشقوق هي الحواس: حسّ النظر يُشرف منه على عالم الألوان، وحسّ السمع على عالم الأصوات، وحسّ الذوق على عالم الطعوم، وحسّ الشم على عالم الروائح، وحسّ اللمس على عالم الأجسام.

١- والسؤال الآن: هل أدرك بكل حاسة من هذه الحواس كل ما في العالم الذي تشرف عليه؟ السجين عندما ينظر من شق النهر لا يرى النهر كله ولكن جزءاً منه، وكذلك العين حين تشرف على عالم الألوان، لا تراه كله بل ترى بعضه.

أنا لا أرى نملة تمشي على بعد ثلاثة أميال مع أن النملة موجودة، ولا أرى الجراثيم والحُوَينات[١] في كأس الماء الصافي مع أن في الكأس الملايين من هذه الجراثيم، ولا أرى الكهارب[٢] التي تدور وسط الذرة دوران الكواكب في فضاء الأفلاك.

وإن لهذه النملة صوتاً ولكني لا أسمعه لأن أذني تلتقط

---

(١) حُوَيْن تصغير حيوان، وهذا ما يسمى في علم الصرف «تصغير الترخيم» ويكون بعد حذف الزوائد من الاسم.
(٢) يريد الإلكترونات (مجاهد).

الهزات من خمس إلى عشرين ألفاً، فما نقص لا تسمعه، وما زاد ثقب طبلة الأذن فبطل بذلك السمع. وأنا لا أشم للسكّر رائحة، مع أن النملة والذباب يشمه ويسرع إليه. فالحواس إذن لا تدرك من العوالم التي سُلطت عليها إلا جزءاً منها.

٢- ثم ألا يمكن أن يكون بين عالم الألوان الذي تشرف عليه العين وعالم الأصوات الذي تطل عليه الأذن عالم آخر لا أدركه أصلاً لأنه ليس عندي الحاسة لإدراكه؟ ألا يمكن أن يكون بين النهر وبين الجبل -بالنسبة لسجين البرج- بستان عظيم، لم يره ولم يعلم به لأنه لا يجد شقاً يطل منه عليه؟ فهل يحق له أن ينكره لأنه لا يراه؟

الأكْمَه (الذي وُلد أعمى) قد يستطيع بالسماع معرفة أن البحر أزرق والمرج أخضر، ولكنه لا يستطيع أن يدرك ما هي الزرقة وما هي الخضرة. والأصم قد يعرف بالتعلم أن في الأنغام البيات والرصد والسيكا، ولكنه لا يستطيع أن يدرك حقيقة النغم. فهل يحق للأعمى أن ينكر وجود الخضرة وللأصم أن يجحد حقيقة النغم لأنه لا يدركها؟

إن الغرفة التي تبدو لك ساكنة سكوناً عميقاً فيها (في جوّها) جميع الأغاني والأصوات التي تذاع الآن من جميع الإذاعات. أنت لا تحس بها لأنها ليست لوناً تراه بعينك ولا صوتاً تسمعه بأذنك، إنها اهتزازات من نوع آخر، فيها صوت ولكن لا تدركه الأذن، فإذا جئت بالرادّ [1] الذي يردّها عليك سمعتها. والضغط

(١) الراد: اسم فاعل من رَدّ وضعتها للراديو، لأنه يرد الصوت الذي يرسله المذياع.

الجوي لا تحس باختلافه القليل لأنه ليس لديك حاسة تدركه بها، فإذا جئت بالبارومتر أدركته به، والهزات الخفيفة لا تدركها ولكن الرادار يدركها.

ففي الوجود أشياء كثيرة لا تدخل في نطاق الحواس لأنها ليست لوناً يُرى ولا صوتاً يُسمع ولا جماداً يُلمس ولا رائحة تُشَمّ ولا طعماً يُذاق، فهل يحق لي أن أنكرها لأن حواسي المحدودة لا تدركها؟

٣- والحواس: هل هي كاملة؟ كان الأقدمون يحصرونها في خمس حواس فقط ولا يتصورون إمكان الزيادة عليها، ولكن كُشفت في الإنسان الآن حواسٌّ أخرى أودعها الله فيه، وما يقبل الزيادةَ يوصف بالنقصان.

أنا أغمض عيني وأبسط يدي أو أقبضها فأحس بأنها مبسوطة أو مقبوضة، لم ألمسها ولم أرها، فبأي حاسة أحسست بها؟ بما يسمى الحسّ العضلي. وأحس بالتعب والوَنْي وبالغثيان وبالانبساط أو الانقباض، وما أحسست بذلك بواحدة من الحواس الخمس بل بالحس الداخلي. وأمشي فلا أميل مع أن الطفل أول مشيه يميل، وراكب الدراجة ولاعبو السيرك الذين يأتون بالعجائب، بأي حاسة ضبطوا توازنهم؟ إن هناك حاسة ثامنة هي حاسة التوازن، وأذكر أنهم كشفوا موضعها الذي وضعها الله فيه. في الأذن الداخلية مادة سائلة قليلة بها يكون التوازن، وأذكر أنهم في تجاربهم استخرجوها من أرنب فصارت تمشي الأرنب مترنّحة كأنها سكرى.

فالقاعدة الثالثة هي أنه لا يحق لنا أن ننكر وجود أشياء لمجرد أننا لا ندركها بحواسنا.

القاعدة الرابعة

قلنا أن الحواس محدودة المدى، فأنا لا أستطيع أن أرى ببصري كل مرئي، وهذا صحيح، ولكن الله أعطانا مَلَكة نُتمّ بها نقص الحواس هي «الخيال». أنا إن لم أستطع أن أرى داري في دمشق وأنا في مكة أستطيع أن أتخيّلها فكأنني أراها، فالخيال يكمل الحواس. فهل للخيال حدود أم أنه مطلق غير محدود؟ هل أستطيع أن أتخيل شيئاً لم أدركه بالحواس؟

الخيال عند علماء النفس خيالان: «خيال مُرجِع»، كتخيلي الدار في دمشق وأنا في مكة، و«خيال مُبدع»، هو خيال الشعراء والقصاصين والرسامين وسائر أهل الفنون، فانظروا إلى خيالات هؤلاء الفنانين: هل جاؤوا بشيء غير ما في الواقع؟ الذي نحت تمثال فينوس جاء بصورة لم نرَ من يماثلها تماماً، ولكن هل كانت جديدة أم أخذ أجزاءً من الواقع فألّف بينها؟ أخذ أجمل أنف رآه وأجمل فم وأجمل جسم، فجمع هذا إلى ذاك فجاء بجديد، ولكن هذا الجديد مؤلَّف من أجزاء قديمة.

وتمثال الثور المجنح الأشوري في متحف باريس، ما فيه إلا أن ناحِتَه أخذ رأس رجل فوضعه على جسد ثور ووضع له أجنحة طائر. صورة جديدة، ولكنها مؤلفة من أجزاء قديمة. وكذلك الحيوان العجيب الذي تخيله القزويني. وخيالات الشعراء مهما أوغلت في باب الاستعارة والتشبيه والكناية والمبالغات العجيبة، لا تخرج عن كونها جمعاً بين أجزاء متفرقة في الواقع.

بل إننا إذا أوغلنا في الإغراب في جمع هذه الأجزاء نجد

الخيال نفسه قد عجز عن الإلمام بهذا الجمع، خذوا مثلاً جزءاً من عالم الرائحة وجزءاً من عالم الصوت فقولوا "إن فلاناً المغني قد غنى نغمة معطّرة بعطر الورد" أو "إن العطر الفلاني له رائحة لونها أحمر" واعرضوا هذه الصورة على خيالكم تجدوا أنكم لم تستطيعوا أن تتخيلوها، مع أنها جميعاً ما خرجت عن عالم الواقع.

فنحن لا نستطيع أن نتخيل نغمة عطرة ولا رائحة حمراء، ولا نتصور إلا الأبعاد الثلاثة (الطول والعرض والارتفاع)، لا نستطيع أن نتصور بعداً رابعاً[١] ولا دائرة ليس لها محيط ولا مثلثاً ليس له زوايا، فكيف إذن نتخيل الآخرة وما فيها وهي عالم يختلف عن عالمنا؟ إن الآخرة بالنسبة لهذه الدنيا كالدنيا بالنسبة لبطن الجنين، لو أمكن أن نتصل بالجنين ونسأله وأمكن أن يجيب وقلنا ما: ما الكون؟ لقال: إن الكون هو هذه الأغشية التي تغشاني وهذه الظلمات التي تحيط بي. ولو قلنا له أن ها هنا كوناً آخر فيه شمس وقمر وليل ونهار وبرّ وبحر وسهل وجبل وصحارى قاحلة وجنات عارشات لما فهم معنى هذا الكلام، ولو فهمه لما استطاع تخيّل حقيقته.

ومن هنا قال ابن عباس: «ما في الدنيا ممّا في الآخرة إلا الأسماء». فلا خمر الآخرة كخمرة الدنيا، ولا حورها كنسائها، ولا نار جهنم كنارها، ولا الصراط الممدود على جهنم كالجسور الممدودة على الأودية والأنهار.

---

(١) المقصود البعدي الحقيقي، أما ما ذهب إليه آينشتاين من اعتبار الزمان بعداً رابعاً فهو شيء اعتباري لا حقيقي.

فالقاعدة الرابعة: أن الخيال البشري لا يستطيع أن يُلِمّ إلا بما أدركته الحواس.

القاعدة الخامسة

لما أبصرت العين العود المستقيم أعوج وهو في كأس الماء لم ينخدع العقل بما رأت العين، بل عرف أنه لم يزل مستقيماً، ولما رأت التراب ماء في الصحراء عرف العقل أنه سراب وأنه ليس ماء ولكنه تراب. ولما أبصرنا ساحر السيرك يُخرج من فمه مئة منديل ومن كمّه عشرين أرنباً أدرك العقل أنها خدعة. فالعقل أصبح حَكَماً وحكمه أبعد مدى، ولكن هل يحكم على كل شيء ويمتد مداه إلى غير ما نهاية؟

إن العقل لا يستطيع أن يدرك شيئاً حتى يحصره بين اثنين: الزمان والمكان، فما لم ينحصر بينهما لم يدركه العقل بنفسه. فلو قال لك مدرس التاريخ: "إن حرباً وقعت بين العرب والفرس، ولكنها لم تقع قبل الإسلام ولا بعده، ولم تقع في زمن من الأزمان ولكنها وقعت فعلاً" لم تدرك ذلك ولم تصدقه ولم تقبله. ولو قال لك مدرس الجغرافية: "إن بلدة ليست في سهل ولا جبل ولا في برّ ولا بحر ولا في أرض ولا سماء ولا في مكان من الأمكنة، ولكنها موجودة" لم تدرك ذلك ولم تصدقه ولم تقبله.

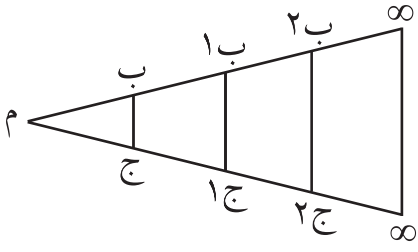
فالعقل لا يحكم إلا في حدود الزمان والمكان، فما كان خارجاً عنهما من مسائل الروح وأمور القدر وصفات الله فلا حكم للعقل عليه.

ثم إن العقل محدود، لا يحكم على غير المحدود ولا يستطيع أن يحيط به. تصوّر خلود المؤمنين في الجنة. إن عقل المؤمن موقن

بأنه حقيقة وقد جاءه هذا اليقين من الخبر الصادق، ولكن انظر: هل يحيط عقلك بالخلود؟ ركز فكرك فيه تجد أنك تتصور بقاءهم في الجنة قرناً وقرنين، ومئة قرن، ومليون، وألف مليون... ثم تجد عقلك يقف عاجزاً ويسأل: وبعد؟ إنه يريد أن يضع لذلك نهاية. إنه لا يدرك الـ«لانهاية»، وإذا افترض الوصول إليها وقع في التناقض الذي يقول ببطلانه.

إن للفيلسوف الألماني كانْط كتاباً مشهوراً في إثبات أن العقل لا يستطيع أن يحكم إلا على عالم المادة وحده، ولكن ما قال به كانط قاله علماؤنا من قبل وردّدوه وأثبتوه حتى صار كالبديهية المسلّمة وصار الكلام فيه كالحديث المعاد، حتى «متناقضات كانط» المشهورة سبق إليها علماؤنا وبيّنوا بالأدلة الرياضية أن «الدَّوْر والتسلسل» باطل.

من أقرب أدلتهم هذا الدليل، وهو أن تُخرج من نقطة «م» مثلاً (في الشكل) شعاعين، أي خطين مستقيمين متباعدين، وتفرض مدّ كل خط إلى ما لا نهاية له (∞) وتصل بين الخطين على أبعاد متساوية خطوطاً: «ب ج» و«ب١ج١» و«ب٢ج٢»، وهكذا حتى تصل إلى الخط «∞ ∞». هل هذا الخط محدود أم هو غير محدود؟



إذا قلت أنه محدود يُرَدّ عليك أنه بين لانهايتين، فكيف يكون محدوداً؟ وإن قلت أنه غير محدود رُدّ عليك بأنه بين نقطتين، فكيف يكون غيرَ محدود؟ فهو محدود وغير محدود، وهذا تناقض!

فثبت أن العقل يختل ميزانه إن حاول الحكم على غير المحدود ويقع في التناقض المستحيل إذا بحث فيما لا ينتهي.

فالعقل إذن لا يستطيع أن يحكم ولا يصح حكمه إلا في الأمور المادية المحدودة، أما ما وراء المادة (أي عالم الغيب «الميتافيزيك») فلا حكم للعقل عليه، وهو الذي أثبته كانط في كتابه وقال علماؤنا من قبل، وهو موجود في كتاب «شرح المواقف» للسيد ورسالة «المقصد الأسنى» للغزالي[١] وسائر كتب علم الكلام.

---

(١) بقيت هذه الرسالة «المقصد الأسنى في شرح أسماء الله الحسنى» في مكتبتي أكثر من ثلاثين سنة، لم أجد دافعاً إلى قراءتها، ثم أخذتها فوجدت فيها شيئاً عجيباً من عبقرية الغزالي، فهو يتكلم عن الاسم والمسمى والصلة بينهما ويربط بين أسماء الله وسلوك المسلم بأسلوب جديد وطريقة مبتكرة. وهذا شأن الغزالي في كل موضوع يكتب فيه، وإن كان في كتابه العظيم «الإحياء» كثير من الصوفيات المخالفة للسنة وفيه كثير من الأحاديث التي لا أصل لها، وكان أثره في نفس قرائه العزلة والخمول والبعد عن روح المغامرة والجهاد، مع أنه أُلِّف في عهد الحروب الصليبية التي وجب فيها الجهاد على الرجال والنساء، كما هو واجب الآن إخراجُ الكافر من أرض المسلمين التي يحتلها.

وأنا أقول بأن الغزالي أعظم مفكر إسلامي، ولكنه ليس بمعصوم، والإنصاف العلمي يستوجب ذكر عيوبه المعدودة، وكفى المرء نبلاً أن تُعَدّ معايبه.

إن الناس جميعاً، المؤمن منهم والكافر والناشئ في صوامع العبادة والمتربي في مخادع الفسوق، إذا ألمّت بهم مُلِمّة ضاقوا بها ذرعاً ولم يجدوا لها دفعاً لم يعوذوا منها بشيء من هذه الكائنات، وإنما يعوذون بقوة وراء هذه الكائنات، قوة لا يرونها ولكنه يشعرون بأرواحهم وقلوبهم وكل عصب من أعصابهم بوجودها وبعظمتها وجلالها. يقع هذا لكثير من الطلاب أيام الامتحان ولكثير من المرضى عند اشتداد الألم وعجز الطبيب، كلهم يعودون إلى ربهم ويُقبلون على عبادته، فهل سألتم أنفسكم: ما السبب في هذا وأمثاله؟ لماذا نجد كل من وقع في شدة يرجع إلى الله؟ نذكر جميعاً[1] أيام الحرب الماضية والتي قبلها، كيف كان الناس يُقبلون على الدين ويلجؤون إلى الله، الرؤساء والقُوّاد يَؤُمّون المعابد ويدعون الجنود إلى الصلاة.

ولقد قرأت في مجلة «المختار» المترجمة عن مجلة «ريدرز دايجست» مقالة نُشرت أيام الحرب لشاب من جنود المظلات (يوم كانت المظلات والهبوط بها شيئاً جديداً) يروي قصته فيقول أنه نشأ في بيت ليس فيه من يذكر الله أو يصلي، ودرس في مدارس ليس فيها دروس للدين ولا مدّرس متدين. نشأ نشأة علمانية مادية، أي مثل نشأة الحيوانات التي لا تعرف إلا الأكل والشرب والنكاح،

(١) أعني الكهول والشيوخ الذي أدركوا الحرب الأخيرة سنة ١٩٣٩ ومن قبلها الحرب الأولى سنة ١٩١٤، وقد أدركتهما وقلت ما قلت عنهما عن مشاهدة وعيان.

ولكنه لما هبط أول مرة ورأى نفسه ساقطاً في الفضاء قبل أن تنفتح المظلة جعل يقول "يا الله، يا رب" ويدعو من قلبه، وهو يتعجب من أين جاءه هذا الأيمان؟ وبنت ستالين نشرت من عهد قريب مذكراتها، فذكرت فيها كيف عادت إلى الدين وقد نشأت في غمرة الإلحاد، وتَعْجب هي نفسها من هذا المعاد.

وما في ذلك عجب، فالإيمان بوجود إله شيء كامن في كل نفس، إنه فطرة (غريزة) من الفِطَر البشرية الأصلية، كغريزة الجنس، فالإنسان «حيوان ذو دين». ولكن هذه الفطرة قد تغطيها الشهوات والرغبات والمطامع والمطالب الحيوية المادية، فإذا هزتها المخاوف والأخطار والشدائد ألقت عنها غطاءها فظهرت، ولذلك سُمّي غير المؤمن «كافراً»، ومعنى الكافر في لسان العرب «الساتر».

ومن العجيب أني وجدت تأييد هذه الفكرة في كلمتين متباعدتين في الزمان والمكان والظرف والقصد، ولكنهما متقاربتان في المعنى. كلمة لعابدة مسلمة تقية معروفة هي رابعة العدوية(١)، وكلمة لكاتب فرنسي ملحد معروف هو أناتول فرانس. أناتول فرانس يقول في معرض كفره وإلحاده: إن المرء يؤمن إذا ظهر بنتيجة فحص البول أنه مصاب بداء السكري (يوم لم يكن قد عُرف الأنسولين). ورابعة قيل لها: إن فلاناً أقام ألف دليل على وجود الله. فضحكت وقالت: دليل واحد يكفي. قيل: ما هو؟ قالت: لو كنت ماشياً وحدك

---

(١) ظهرت من سنوات قصة غنائية مصورة زعموا أنها تمثل حياة رابعة العدوية، مع أنها لا تمثل إلا ما في نفوس مؤلفها من خيالات وتهاويل، وما فيها من حقائق التاريخ إلا القليل.

في الصحراء وزلّت قدمك فسقطت في بئر لم تستطع الخروج منها، فماذا تصنع؟ قال: أنادي: "يا الله". قالت: وذاك هو الدليل.

في قرارة نفس كل إنسان الإيمان بإله، هذه حقيقة نعرفها نحن المسلمين لأن الله خبّرنا أن الإيمان فطرة فطر الناس عليها، وقد عرفها الإفرنج من جديد. دوركايم، أستاذ الاجتماع الفرنسي المشهور[١]، له كتاب في أن الإيمان بوجود إله بديهية. لا يمكن أن يعيش الإنسان ويموت من غير أن يفكر في وجود إله لهذا الكون، ولكن ربما قصر عقله فلم يَهتدِ إلى المعبود بحق فعبد من دونه أشياء، عبدها على توهّم أنها هي الله أو أنها تقرب إلى الله. فإذا جَدّ الجِدّ وكانت ساعة الخطر رجع إلى الله وحده ونبذ هذه المعبودات.

مشركو قريش كانوا يعبدون هُبل واللات والعزّى، وهي حجارة وأصنام، هُبَل صنم من العقيق جاء به عمرو بن لحيّ من عندنا، من الحمّة[٢]، قالوا له: إنه إله عظيم قادر، فحمله على جمل وجاء به، فسقط على الطريق فانكسرت يده فعملوا له يداً من ذهب. إله تنكسر يده! وكانوا مع ذلك يعبدونه! يعبدونه في ساعات الأمن، فإذا ركبوا البحر وهاجت الأمواج ولاح شبح الغرق لم يقولوا: يا هُبَل، بل قالوا: يا الله.

وهذا مشاهَد إلى اليوم، عندما تغرق السفن أو تشب النيران أو يكون الخطر أو يشتد المرض تجد الملحدين يرجعون إلى الدين.

---

(١) دوركايم يهودي مثل فرويد الذي أفسد عقول الناس حيناً من الدهر.
(٢) الحمّة ذات الينابيع المعدنية التي أخذها اليهود من سوريا بعد حرب الأيام الستة سنة ١٩٦٧.

لماذا؟ لأن الإيمان غريزة، وأصدق تعريف للإنسان أنه «حيوان متدين».

وانظروا إلى هؤلاء الملحدين الماديين عندما يأتيهم الموت، هل تظنون أن ماركس أو لينين لما أيقن بالموت دعا وسائل الإنتاج التي يؤلّهها، أم دعا الله؟ ثقوا أنهما لم يموتا حتى دَعَوا الله، ولكن حين لا ينفع الدعاء. وفرعون تكبر وتجبر وقال أنا ربكم الأعلى، فلما أدركه الغرق قال: «آمنت بالذي آمنت به بنو إسرائيل».

وفي عاطفة الحب التي يحس بها المحبّون دليل على أن الإيمان فطرة في النفوس، فالحب صورة مصغرة للإيمان ونوع من أنواع العبادة. والفرنسيون لما غلب عليهم ترك الدين استعملوا كلمة العبادة في الحب[1]. وقلدهم في ذلك بعض المتفرنجين منا فصاروا يقولون في قصصهم «يحبها» و«يعبدها» و«أحبها حتى العبادة»... ما ذلك إلا لأن العبادة هي المظهر الفطري للاعتقاد بالإله ولأن في الحب شبهاً من الإيمان.

المحب يطيع محبوبه وينفّذ كل رغبة له، وكذلك يكون المؤمن مع الله. والمحب لا يبالي أن يسخط عليه الناس كلهم إن رضي المحبوب، وكذلك يكون المؤمن مع الله. والمحب يخاف المحبوب ويخشى غضبه ويرضى بكل ما يكون منه، وكذلك المؤمن مع الله. فالحب (أي العشق) دليل على أن الإيمان فطرة في النفوس.

---

(١) كلمة العبادة في اللغة الفرنسية «adorer» فهو يقول لها «J'aime» أي أنا أحبك و«Je t'adore» أي: أعبدك.

ضيق الألفاظ

وليس معنى هذا أن حب الله من جنس حب المعشوق، لا، فالعاشق يطيع معشوقه ويخشاه ويرضى بكل ما يجيء منه ويؤثر رضاه على رضى الناس لِلَذّته به، فهو يحب فيه نفسه، ولو أن ليلى أصابها الجذام فشوّه وجهها وأكل أنفها وعينها لما دنا منها قيس ولما مال عليها، بل لفرّ منها ونأى عنها. هذا هو فرق ما بين حب المخلوق وحب الخالق.

إنهما نوعان مختلفان، ولكن اللغات البشرية -لضيقها على استيعاب المعاني الروحية- تستعمل اللفظ الواحد في معان كثيرة، فنحن نقول: فلان يحب مناظر الجبال، وفلان يحب علم التاريخ، وفلان يحب الرز باللحم، والوالد يحب ولده، والمجنون يحب ليلى، والمؤمن يحب الله... وكل حب منها يختلف عن الآخر. ومثل ذلك قولنا: "الله سميع بصير" و"فلان سميع بصير"، أي: ليس أصمّ ولا أعمى، ولكن سمع الله وبصره لا يشبه سمع العبد ولا بصره لأن الله لا يماثل شيئاً من المخلوقات ولا يماثله شيء، وجميع آيات الصفات جاءت من هذا الباب.

القاعدة السابعة

هي أن الإنسان يدرك بالحدس أن هذا العالم المادي ليس كل شيء وأن وراءه عالماً روحياً مجهولاً يدرك منه لمحات تدل عليه.

ذلك أن الإنسان يرى اللذات المادية محدودة، إذا هي بلغت غايتها ووصلت إلى حدها لم تعد اللذة لذة ولكن صارت

عادة، فذهب طعمها وبطل سحرها، وصارت كالنكتة المحفوظة والحديث المعاد.

يبصر الفقير سيارة الغني تمر به وعمارة الغني يمر بها فيحسب أنه يحوز الدنيا إن حاز مثلها، فإن صارت له لم يعد يشعر بالمتعة بها. ويسهر المحب يحلم بوصل الحبيبة، يظن أن متع الدنيا كله بحبها والأماني كلها في قربها، فإذا تزوج التي يحب ومرّ على الزواج سنتان اضمحلّت تلك الأماني وماتت تلك المتع ولم يبق له منها إلا ذكرها. ويمرض المريض ويتألم فيتصور اللذة كلها في ذهاب الألم والشفاء من المرض، فإذا عاودته الصحة ونسي أيام المرض لم يعد يرى في الصحة شيئاً من تلك اللذات. ويتمنى الشاب الشهرة ويفرح إن أذاعت الإذاعة اسمه ونشرت الصحف رسمه، فإذا هو اشتُهر وصار اسمه ملء السمع وشخصه ملء البصر صارت له الشهرة أمراً معتاداً.

ثم يجد المرء أنه يسمع الأغنية الحالمة في الليلة الساجية قد خرجت من قلب مغنٍّ عاشق فهزت من سامعها حبّة القلب وأطلّت به على عالم الروح. ويقرأ القصة العبقرية للأديب البارع فيحس كأنها تمشي به في مسارب عالم مسحور فيه مع السحر شعر وعطر، فإذا انتهت القصة رأى كأنه في حلم لَذًّ فتّان وصحا منه، فهو يحاول عبثاً أن يعود إلى لذته وفتونه.

ويعيش في لحظات التجلي، حين تصفو النفوس بالتأمل فتتخفف من أثقال المادة، فتعلو بجناحين من الصفاء والتجرد حتى تصل إلى حيث ترى الأرض وما عليها أصغر من أن ينظر إليها، لما تجد من لذة الروح التي لا تعدلها لذة الطعام للجائع

ولا لذة الوصال للمحروم ولا لذائذ المال والجاه للفقير المغمور.

وإذا بالنفس تتشوق أبداً إلى هذا العالم الروحي العلوي، العالم المجهول الذي لا تعرف منه إلا هذه اللمحات التي لا تكاد تبدو لها حتى تختفي وهذه النفحات التي لا تهبّ حتى تسكن، فيعلم أن اللذات المادية محدودة، وأن اللذات الروحية أكبر منها كبراً وأعمق في النفس أثراً، ويُوقن (بالحدس النفسي، لا بالدليل العقلي) أن هذه الحياة المادية ليست كل شيء، وأن العالم المجهول المختبئ وراء عالم المادة حقيقة قائمة، تحنُّ إليها الأرواح وتحاول أن تطير إليها، ولكن هذا الجسد الكثيف يحجبها عنها ويمسكها عن أن تنطلق وراءها، وهذا هو الدليل النفسي على وجود العالم الآخر.

القاعدة الثامنة

الاعتقاد بوجود الحياة الآخرة نتيجةٌ لازمة للاعتقاد بوجود الله.

وبيان ذلك أن الإله لا يقرّ الظلم ولا يدع الظالم بغير عقاب ولا يترك المظلوم من غير إنصاف. ونحن نرى أن في هذه الحياة مَن يعيش ظالماً ويموت ظالماً لم يُعاقَب، ومن يعيش مظلوماً ويموت مظلوماً لم يُنصَف، فما معنى هذا؟ وكيف يتم هذا ما دام الله موجوداً، وما دام الله لا يكون إلا عادلاً؟

معناه أنه لا بد من حياة أخرى يُكافَأ فيها المحسن ويُعاقَب المسيء، وأن «الرواية» لا تنتهي بانتهاء هذه الدنيا. ولو أنه عُرض فِلْم في الرائي (التلفزيون) فقُطع من وسطه وقيل «انتهى» لما صدّقَ أحدٌ من المشاهدين أنه انتهى، ولنادوا: ماذا جرى للبطل؟ وأين تتمة

القصة؟ ذلك لأنهم ينتظرون من المؤلف أن يُتِمّ القصة ويسدّد حسابَ أبطالها. هذا والمؤلف بشر، فكيف يصدّق عاقلٌ أن قصة الحياة تنتهي بالموت؟ كيف ولم يُسدَّد بعدُ الحساب ولا اكتملت الرواية؟

فأيقن العقل من هنا أن لهذا الكون رباً وأن بعد الدنيا آخرة، وأن ذاك العالم المجهول الذي لمحت الروحُ ومضة من نوره في الأغنية الحالمة والقصة البارعة واستروحت نفحة من عطره في ساعة التجلي ليس عالم المثل الذي كان خيالاً صاغه أفلاطون[١]، ولكنه عالم الآخرة الذي هو حقيقة أبدعها خالق أفلاطون.

ورأى الإنسان أن أكبر لذائذ الدنيا، لذة الوصال، لا تدوم إلا نصف دقيقة، فعلم أنها ليست إلا مثالاً من لذات الآخرة، إنها لقمة من الطعام تذوقها، فإن أعجبتك اشتريت منه فأكلت حتى شبعت، إنها نموذج تجاري[٢] تراه، فإن ارتضيته طلبت البضاعة، وأن هذه اللذة التي لا تدوم إلا نصف دقيقة مثال مصغر للذّات العالم الآخر التي تدوم أبداً، والتي لا حدَّ لها تقف عنده، والتي تبقى لذة دائماً ولا تصير عادة كما تصير اللذات في الدنيا عادات[٣].

* * *

---

(١) المثل العليا: نظرية لأفلاطون معروفة Idealism، ومنها جاء قولهم «شيء مثالي» وهو Ideal.

(٢) «النموذج التجاري» هو تعريب للاصطلاح الفرنسي Echantillon.

(٣) انظر مقالة «هل تهدي الفطرة إلى الدين؟» ومقالة «هذا هو الدليل» في كتاب «نور وهداية»، وفيهما تقاطع مع ما جاء في القواعد الثلاث الأخيرة في هذا الفصل (مجاهد).

الإيمان بالله

الإيمان بالله يتضمن أربع قضايا، هي أن الله موجود بلا موجِد، وأنه رب العالمين، وأنه مالك الكون المتصرف فيه، وأنه الإله المعبود وحده لا يُعبَد معه غيره.

(١) وجود الله

قلنا في القاعدة السادسة: إن الاعتقاد بوجود الله من الأمور البديهية التي تُدرك بالحدس النفسي قبل أن تُقبل بالدليل العقلي، فهي لا تحتاج إلى دليل، وإن كانت الأدلة على صحتها ماثلة في كل شيء. ولست أعرض هذه الأدلة فهي أكثر من أن تُستقصى، والعالم الدمشقي الشيخ جمال الدين القاسمي ذكر منها الكثير الكثير في كتابه «دلائل التوحيد»، مع أنه أُلِّف من أكثر من نصف قرن ومع أنه قد جدّت اليوم أدلة أظهرها العلم الحديث الذي لم يكن معروفاً قبل خمسين سنة، ومن نظر في كتاب «الله يتجلى في عصر العلم» (وقد كتبه ثلاثون من علماء الطبيعة والفلك ممّن انتهت إليهم الرياسة في هذه العلوم) ومثله كتاب «العلم يدعو للإيمان» يجد أن العالم الحقيقي لا يكون إلا مؤمناً والعامي لا يكون إلا مؤمناً، وأن الإلحاد والكفر إنما يبدوان من أنصاف العلماء وأرباع العلماء، ممن تعلم

قليلاً من العلم، فخسر بذلك الفطرة المؤمنة ولم يصل إلى العلم الذي يدعو إلى الإيمان فوقع في الكفر.

في هذين الكتابين مقالات هي ثمرة ما وصل إليه تفكير هؤلاء العلماء، من أمثال فرانك ألن الذي أثبت أن القول بقدم العالم (كما كان يقول فلاسفة اليونان) مستحيل وأن العلم كشف أن لكل شيء عمراً، أي أن له بداية تنفي كونه قديماً. وفرانك ألن هذا من أكبر علماء الحياة (البيولوجيا). وأمثال روبرت موريس بدج مكتشف الرادار، وعالم الكيمياء جون كليفلاند كوثران، وجون هربرت بلوند أستاذ الفيزياء... وأنا أرجو أن تقرؤوا هذين الكتابين وأمثالهما، وأمثالهما كثير.

أنا لا أحب أن أعيد سرد الأدلة القديمة على وجود الله، أدلة علماء الكلام، ولا الأدلة الحديثة التي جاء بها هؤلاء العلماء، ولكن أشير إلى دليل واحد من الأدلة القرآنية. وأدلة القرآن واضحة صريحة حاسمة، تأتي بالحجة الضخمة في العبارة القصيرة التي يفهمها العامي، وتمتلئ نفس العالم الذي يدرك مغزاها إعجاباً منها وعجباً من قوتها ودقتها ووضوحها. وكلاهما، العامي والعالم، لا يملك إلا أن يقول: صحيح!

نبهنا الله في القرآن بكلمة واحدة على أن الدليل فينا وفي أنفسنا، فكيف ننكر قضية قد سُطّر على جباهنا ما يشعر بصدقها؟ قال تعالى: ﴿وفي أنفسِكم أفلا تُبصرون؟﴾ فنحن نشعر من أعماق قلوبنا بأنه موجود، نلجأ إليه في الشدائد والملمّات بفطرتنا المؤمنة، بغريزة التدين فينا، ونرى الأدلة عليه فينا وفي العالم من حولنا،

فالعقل الباطن يؤمن بوجوده بالحدس، والعقل الواعي يؤمن بوجوده بالدليل.

فكيف لَعمري يجحد الله الجاحد وهو نفسُه الدليل على وجوده؟ إنه كمن يحمل مالَك بيده ويدّعي أنه لم يأخذه ولم يلمسه، ومَن يلبس ثيابه مبتلة يقطر منها الماء ويدعي أنه لم يقرب الماء!

هذه حقيقة الحقائق، ولكن لماذا نجد أكثر الناس لا ينتبهون إليها؟ الجواب: لأنهم لا يفكرون في أنفسهم، ﴿نَسُوا الله فأنساهم أنفسَهم﴾. إنهم يفرّون منها، يخافون الانفراد بها، لا يستطيع أحدهم أن يبقى وحيداً خالياً بنفسه بلا عمل، لذلك يشتغل عنها بحديث فارغ أو كتاب تافه، أو عمل يشغل نفسه ويصرّم فيه عمره، كأن نفسه عدو له يكرهه وينفر منه، وكأن عمره (وهو رأس ماله) حمل على عاتقه يرمي به ليتخلص منه!

انظر إلى أكثر الناس تجدهم يأكلون ويشربون وينامون ويستيقظون، يحرصون على اللذة ويبتعدون عن الألم، يبتغون الخير في الدنيا لأنفسهم وأهلهم ومن يحبون، يصبح الواحد منهم فينظف جسده ويرتدي ثيابه ويتناول طعامه ويغدو إلى عمله، يعمل لجمع المال ويستزيد من الربح، ثم يعود إلى داره فيتغدى ويستريح، ثم يعود إلى العمل أو يعمد إلى التسلية، يفتش عمّا يملأ به الفراغ ويضيع به الوقت ويقطع به العمر، حتى يعاوده الجوع فيأكل أو يدركه النعاس فينام. ثم يستقبل يوماً جديداً فيعيد فيه «برنامج» اليوم الذي مضى. يذكر ماضيه، وما ماضيه إلا الأيام التي أحس أنه عاشها في هذه الدنيا، ويفكر في مستقبله، وما مستقبله إلا الأيام التي يقدّر أنه يعيشها في هذه الدنيا.

أما المسلم فلا يكتفي من الحياة بأن يأكل ويشرب ويعمل ويتسلى، بل يسأل نفسه: من أين جئت؟ وإلى أين أسير؟ وما المبدأ؟ وما المصير؟ ينظر فيجد أن حياته لم تبدأ بالولادة حتى تنتهي بالموت، يرى أنه كان جنيناً في بطن أمه قبل أن يولد، وكان حُوَيناً منوياً في ظهر أبيه قبل أن يَسْتَجِنّ[١]، وكان قبل ذلك دماً يجري في عروق هذا الأب، وهذا الدم جاء مما تناول من الغذاء، وهذا الغذاء كان نباتاً من الأرض أو حيواناً تغذى من النبات... أطوار مرّ بها قبل الولادة لا يعرف عنها شيئاً، سلسلة طويلة فيها حلقات قليلة واضحة وباقيها يحجبه عن عيوننا الظلام، فكيف يوجد نفسه بعقله وإرادته وقد كان موجوداً قبل أن يكون له عقل وإرادة؟

إن الواحد منا لا يعرف نفسه قبل بلوغه الرابعة من عمره. لا يذكر أحدٌ منا مولده، من يذكر مولده؟ من يذكر لمّا كان في بطن أمه؟ فإذا كان موجوداً قبل أن يعلم بوجوده فهل يمكن أن يقال أنه[٢] هو الذي أوجد نفسه؟ سل هذا الكافر الملحد إن لقيته وقل له: هل خَلقت أنت نفسك بإرادتك وعقلك؟ هل أنت الذي أدخلت نفسك في بطن أمك؟ وهل أنت الذي اختار هذه المرأة لتكون أماً؟ وهل أنت الذي ذهب بعد ذلك فجاء بالقابلة لتخرجك من هذا البطن؟ فهل خُلق من العدم بلا فاعل ولا خالق؟ هذا مستحيل.

---

(١) أي قبل أن يكون جنيناً (مجاهد).

(٢) فائدة: تُكسَر همزة «إن» بعد فعل القول (أي قال يقول) إذا جئت بنص القول، فإن حكيته فتحتَها. فجملة "قل: إني ذاهب" بكسر الهمزة، وجملة "قال أنه ذاهب" بفتحها.

ديكارت لمّا جرب مذهب الشك الذي اشتهر به[١] وشكّ في كل شيء وصل إلى نفسه، فهل يستطيع أن يشك فيها لأنه هو الذي يشك ولا بد في الشك من شاكّ؟ لذلك قال كلمته المشهورة «أنا أفكر فأنا موجود»[٢]، موجود لا شكَّ في وجوده، فمَن أوجده؟ هل أوجدته هذه الكائنات المادية التي كانت من قبله: الجبال والبحار والشمس والكواكب؟ إنها جمادات لا عقل لها وهو عاقل، فهل يمنح العقلَ من ليس بعاقل؟ هل يعطي الشيءَ فاقدُه؟

وهذا هو موقف إبراهيم أبي الأنبياء عليه السلام، لما رأى أباه (وكان مَثّالاً) ينحت الأصنام بإزميله، يعمل من الحجر صورة فيتخذها هو وقومه آلهة، حجر تصنعه يد الإنسان ثم تعبده! إله أخلقه وأطلب منه أن يخلق لي ما أريد! هذا أمر لا يقبله العقل، فأين هو الإله الحق إذن؟ وذهب يبحث ويفكر، وأدركه الليل، وطلع عليه النجم برّاقاً لامعاً عالياً، لم يخرج من الأرض كالصخرة التي تُصنَع منها التماثيل، لم يعمله الإنسان بيده ثم يعبده، فقال بأنه وجد الإله الذي يبحث عنه. وإذا بالقمر يطلع فيختفي النجم، ويرى القمرَ أكبر في النظر وأكثر ضوءاً فيقول بأن القمر هو الإله، ويرقبه الليل كله، فإذا بالشمس تطلع فتطفئ شعلة القمر وتفيض النور على الأرض، فيقول: هذا هو الإله. ولكن الشمس تأفل، تذهب وتدع الأرض في الظلام، فما هذا الإله الذي يمضي ويتخلى عن ملكه؟ كلا، ليست الشمس إلهاً خلقني ولا هذه الموجودات آلهة ولا أنا

(١) مذهب ديكارت في الشك لم يكن جديداً، فهو مسبوق إليه. راجع «المنقذ من الضلال» للغزالي.

(٢) Je pense donc Je suis

الإله، أنا ما خلقت نفسي ولا خُلقتُ من غير شيء، فلم يبقَ إلا احتمال واحد هو الصحيح، هو الحق وما عداه الباطل: هو أن وراء هذه الجمادات كلها آلهاً قادراً عظيماً هو الذي أوجدها وأوجدني وأوجد كل شيء[١].

هذا الدليل هو الذي عرض له القرآن في جملة واحدة هي معجزة من معجزات البيان الرباني، ضربة قاضية على من يخضع للعقل ويحترم التفكير من الملحدين: هي قوله تعالى: ﴿أم خُلِقوا من غير شيء، أم هُمُ الخالقون؟﴾.

كان السخفاء من الملحدين من أرباع المتعلمين يقولون: الطبيعة، الطبيعة أوجدت الإنسان، الطبيعة وهبت العقل للإنسان. وكان من المعلّمين من يقول لنا هذا ونحن صغار في أيام الحرب الأولى وفي أعقابها، من المعلمين الذين شموا رائحة التمدن الجديد، من إسطنبول أولاً وباريس ثانياً، فحسبوا أنهم صاروا يُعَدّون بذلك من المنوَّرين[٢]. وكبرنا بعد وسألنا: ما الطبيعة؟ إن كلمة الطبيعة في اللغة على وزن «فَعيلة»، وهي بمعنى «مفعولة»، فإن كانت مطبوعة فمن طبعها؟

قالوا: الطبيعة هي المصادفة، قانون الاحتمالات.

---

(١) وما شك إبراهيم في الله، ولكنه تعليمٌ للناس.

(٢) وكانت كلمة «المنورين» في تلك الأيام مثل كلمة «التقدميين» الآن. ولكل زمان ألفاظ يضحكون بها علينا، كما كانوا يضحكون على الهنود الحمر في أميركا بالخرز والثياب الملونة ليأخذوا بدلاً منها بلادهم.

قلنا: هل تعرفون ما مثال هذا الكلام؟ مثاله اثنان ضاعا في الصحراء فمَرّا على قصر كبير عامر فيه الجدران المزخرفة المنقوشة والسجاد الثمين والساعات والثريات. قال الأول: إن رجلاً بنى هذا القصر وفرشه. فرد عليه الثاني وقال: أنت رجعي متأخر، هذا كله من عمل الطبيعة! قال: كيف كان بعمل الطبيعة؟ قال: كان هنا حجارة فجاءها السيل والريح والعوامل الجوية فتراكمت، وبمرور القرون، بالمصادفة، صارت جداراً! قال: والسجاد؟ قال: أغنام تطايرت أصوافها وامتزجت وجاءتها معادن ملونة، فانصبغت وتداخلت فصارت سجاداً! قال: والساعات؟ قال: حديد تآكل بتأثير العوامل الجوية وتقطع دوائرَ وتداخل، وبمرور القرون صار على هذه الصورة![1]

ألا تقولون أن هذا مجنون؟ هل المصادفات هي التي جعلت الخلية من خلايا الكبد التي لا تُرى إلا بالمجهر تقوم بأعمال كيميائية تحتاج إلى آلات تملأ بهواً كبيراً ثم لا تستطيع أن تقوم إلا بجزء منها؟ هذه الخلية تُحوّل السكر الزائد في الدم إلى مولّد السكر العنب (كليكوجين) لنستعمله عند الحاجة بعد إعادته إلى كليكوز، وتفرز الصفراء، وتعدّل الكوليسترول في الدم، وتصنع الكريّات الحمر، ولها بعدُ أعمال أخرى.

والمصادفات جعلت في اللسان تسعة آلاف عقدة صغيرة كلها تصلح للتذوق، وفي كل أذن مئة ألف خلية للسمع، وفي كل عين مئة وثلاثين مليون خلية كلها تصلح لاستقبال الضوء؟!

---

(١) راجع مقالة «هذا هو الدليل» في كتاب «نور وهداية»، وفيها توسع واستطراد في هذا الفكرة (مجاهد).

والأرض بما فيها من العجائب والأسرار، والهواء الذي يحيط بها وما يحمله من أحياء لا تُرى ولا تُدرَك، والأشكال العجيبة لذرة الثلج التي تسقط، خُلقت بهذه الدقة وأُودِع فيها هذا الجمال الذي لم نره إلا من عهد قريب؟ انظر إلى هذه الأرض وما فيها من معادن وما أُودع فيها من أسرار، وإلى أنواع حيوانها ونباتها، وما فيها من الصحارى الشاسعة والبحار الواسعة والجبال السامقة والأودية العميقة، ثم وازنها بالشمس تَرَها صغيرة ضئيلة إلى جنب الشمس وعظمها. والشمس التي تكبر الأرض بمليون مرة هي بالنسبة لكوكب من هذه الكواكب حبة رمل في الصحراء الكبرى.

والشمس التي تبعد عنا بأكثر من مئة مليون كيل (كيلومتر) إذا قدّرنا بعدها بالزمن الضوئي (وسرعة الضوء ثلاثمئة ألف كيلومتر في الثانية الواحدة) يبلغ بعدها عنا ثماني دقائق. فماذا يكون بُعد النجوم التي يصل ضوءُها إلينا في مليون سنة ضوئية؟ السنة الضوئية تعدل عشرة آلاف مليار كيلومتر[١]، فكم كيلومتراً في مليون سنة؟

وهذه النجوم، ومنها نجوم المجرة (التي لا يعرف علم الفلك عنها أكثرَ من أنها بقعة مضيئة فيها من النجوم ما لا يعلمه إلا الله) هذه النجوم على ضخامتها التي يعجز العقل عن تصورها تسير بسرعة هائلة، سرعة تتخطى حدود الأرقام، فكيف لا يقع فيما بينها

---

(١) أذكر في معرض هذا الحديث أن «أبولّو ٩» التي وصلت إلى القمر قطعت في الذهاب والإياب أربعمئة ألف كيل (كيلومتر)، أي مدة ثانية وثلث فقط بالزمن الضوئي.
ملاحظة: متوسط بُعد القمر عن الأرض هو ٣٨٤ ألف كيلومتر.

اصطدام؟ قرأت لأحد علماء الفلك أن احتمال اصطدامها كاحتمال اصطدام ست نحلات لو أطلقت في الفضاء المحيط بالأرض. إن سعة فضاء الأرض بالنسبة لست نحلات كذلك الفضاء بالنسبة لهذه النجوم التي لا تُعَدّ ولا تحصى!

وهذا الفضاء كله وسط كرة هائلة هي السماء الدنيا، كرة من جرم حقيقي ليست هواء ولا فضاء[١] ولا خطاً وهمياً هو مدار الكواكب كما تصور بعض المفسرين، كرة محيطة بهذا الفضاء وما فيه، مغلقة عليه وهو في داخلها، كرة محفوظة لها أبواب تفتح وتغلق، جعلها الله سقفاً محفوظاً لهذا الفضاء، وجعل هذه الكواكب فيها كالمصابيح التي تزيّن السقف، لها سمك وبعدها فضاء الله أعلم بسعته، ربما كان كهذا الفضاء أو أكبر منه، تحيط به كرة أخرى أكبر وأضخم، ثم فضاء ثالث، ثم كرة ثالثة، ثم فضاء رابع، ثم كرة رابعة، ثم فضاء خامس، ثم كرة خامسة، ثم فضاء سادس، ثم كرة سادسة، ثم فضاء سابع، ثم كرة سابعة، ثم تأتي أجسام في غاية الكبر والعظم هي العرش والكرسي وما أخبر الله عنه من هاتيك العوالم[٢].

ومن أعجب العجب ومن أظهر الأدلّة على الله أن هذا الفضاء بكل ما فيه موجود بصورة مصغرة بحيث لا يدرك العقل دقتها

---

(١) هذا الذي قلته عن السماء شيء فهمته من آيات الكتاب وسنن الله في الفلك التي كشفها العلماء، ولم أجد من قال به، وقد فصلت القول فيه في غير هذا الكتاب.

(٢) انظر للتوسع في هذا الرأي مقالة «ما هي السماء؟» وهي منشورة في كتاب «فصول في الثقافة والأدب» (مجاهد).

وصغرها (كما أنه لا يدرك سعة الفضاء ورحبه)، موجود في الذرة.

الذرة التي لا تُرى ولا بالمجهر الإلكتروني، الذرة التي كان يسميها العلماء والفلاسفة الأقدمون «الجوهر الفرد» (أي الجزء الذي لا يتجزأ)، الذرة التي قال العلماء أنه لو صُفَّ أربعون مليوناً منها جنباً إلى جنب كان طولها (أي طول الأربعين مليوناً) معشاراً واحداً (سنتيمتر) وسط هذه الذرة فضاء فيه نواة تدور حولها أجسام صغيرة[1] كدوران الكواكب في الفضاء، ونسبة النواة للذرة كنسبة حبة القمح للقصر العظيم، والنواة يزيد وزنها وحدها عن وزن ١٨٠٠ من هذه الكهارب، فهل هذا كله من عمل المصادفات[2]؟

وإن الذي يثلج صدر المؤمن أن هذه المقالات التافهة (كالطبيعة والمصادفات وأمثالها) قد انقطع ورودها على ألسنة العلماء ولم يبق من قائل بها إلا أشباه العوام ممن يدّعون العلم وليسوا من العلماء.

(٢) الله رب العالمين

هذه هي القضية الثانية من قضايا الإيمان بالله: وهي أن تعتقد أن الله وحده هو الذي أوجد هذه العوالم كلها، عالم الحيوان وعالم النبات وعالم الأفلاك، العوالم الظاهرة لنا والمغيَّبة عنا، أوجدها

---

(١) هذه الأجسام الصغيرة يسمونها «الكهارب» (الإلكترونات).

(٢) كتبت هذا الجزء -كما قلت في المقدمة- وما تحت يدي كتاب أرجع إليه، فكنت أكتب ما خطر على بالي وأمدتني به ذاكرتي مما قرأت وسمعت من العلماء، وأنا من سبعين سنة إلى الآن أقرأ كل يوم أكثر من عشر ساعات، فكانت هذه الأمثلة، ومن أراد أمثلة أدق وأحق وجدها في كتاب صدر قريباً اسمه «الطب محراب الإيمان».

من العدم ووضع لها هذه النواميس العجيبة التي لم نكشف إلى الآن في الكيمياء والفيزياء والطب والفلك إلا الأقل الأقل منها: ﴿وما أُوتيتم من العلم إلا قليلاً﴾، وهو وحده الذي يعلم دقيقها وجليلها، كم ورقة في كل شجرة وشكل كل ورقة ووضعها، وكم جرثومة في الدنيا وطولها وعرضها وأجزاءها التي ركبها منها، وما في كل ذرة من الكهارب الثابتة والمتحركة وعددها وما يطرأ على كل منها من عوارض وما تتصف به من حركة وسكون وتطوّر وتحوّل، كل ذلك مسجّل عنده في كتاب[١].

هذه العوالم كلها هو ربها، هو الذي أوجدها، وهو يحفظها، وهو الذي يحولها من حال إلى حال، وهو الذي جعل في كل ذرة منها ما يدل العاقل عليه ويرشده إليه.

هذه هي القضية الثانية من قضايا الإيمان بالله، قضية لا بد منها، ولكن هل يكفي الإيمان بها ليكون الإنسان مؤمناً؟ إذا جاءك من يقر بأن الله هو الخالق وهو الرب، فهل تعتبره بهذا وحدَه من المؤمنين؟ لا، إن ذلك وحده لا يكفي، لأن أكثر الأمم القديمة كانت تقول به، كفار قريش الذين بُعث محمد ﷺ لإنكار شركهم وتسفيه عقائدهم وكُلِّف بحربهم كانوا إذا سئلوا عنه اعترفوا به ولم ينكروه. بل إن إبليس (وهو شر الخلق) ما أنكر أن الله ربه، تنبهت إلى هذا من قوله ﴿ربِّ بما أغويتَني﴾ وقوله: ﴿ربِّ فأَنْظِرني﴾، فهو مقر بأن الله ربه!

---

(١) ﴿ما فرّطنا في الكتاب من شيء﴾. وليس المراد بالكتاب هنا القرآن، بل كتاب القدر الذي لا يطّلع عليه بشر.

(٣) الله مالِك الكون

والقضية الثالثة: أن الله هو مالك الكون يتصرف فيه تصرف المالك الحر بملكه. يحيي ويُميت، هل تقدر أن تدفع عن نفسك الموت وتمنحها في الدنيا الخلود؟ يمرض ويشفي، هل تقدر أن تشفي مَن حرمه الله الشفاء؟ يمنح المال ويبتلي بالفقر، يبعث السيول ويصيب بالجفاف. كان في السنة الماضية فيضانات في شمالي إيطاليا جرفت المدن ودمرت العمران، وكان في ذلك الوقت في الهند جفاف يبس معه الزرع وهلكت الماشية وصار توزيع الماء بالبطاقات. فمن زاد الماء على هؤلاء حتى شَكَوا منه وحرمه أولئك حتى تمنَّوه؟ من يعطي هذا بنات وهذا بنين ويجعل من يشاء من الناس عقيماً؟ هل يستطيع من رُزق البنات أن يحولهن إلى بنين، ومن كان عقيماً أن ينجب الولد؟

هو يكتب الموت على ناس وهم أطفال ويمد في عمر ناس حتى يصيروا شيوخاً، يبعث موجة البرد والصقيع على بلد ويبعث موجة الحر على بلد... أمور مشاهَدة لا يملك الإنسان لها دفعاً ولا منعاً.

(٤) الإله المعبود

لذلك يُقِرّ أكثر الناس بأنه هو مالك المُلك المتصرف بالكون، ولكن هل يكفي هذا ليكون مؤمناً؟

لا، بل لا بد من القضية الرابعة، وهي أنه وحده الإله المعبود. إذا اعترفت بأن الله موجود وأنه رب العالمين وأنه مالك الملك فلا تعبد معه غيره ولا تقابل غيره بأي صورة من صور

العبادة. وقد أراني الله معنى لسورة الناس فيه رد على من يقر بوجود الله وبربوبيته وملكه ولكنه لا يوحّده توحيد الألوهية، معنى لم أجد من المفسرين من ذكره وأرجو أن يكون صواباً.

يقول الله عزَّ وجل: ﴿قُلْ أعوذُ بربّ الناس، مَلِكِ الناس، إله الناس﴾. فلماذا كرر لفظ «الناس» وعمد إلى الإظهار بدلاً من الإضمار، فلم يقل مثلاً: رب الناس وملكهم وإلههم؟ الذي ظهر لي: كأن ربنا (والله أعلم) يقول لهم: هذه ثلاث قضايا متماثلة متكاملة، كل قضية مستقلة بنفسها مع ارتباطها بأختها، فهو «ربّ الناس» أي خالقهم وحافظهم، وهو «ملك الناس» أي مالكهم المتصرف فيهم، وهو «إله الناس» أي المستحق وحده لعبادتهم ولا يجوز أن يكون له شريك فيها. ومقتضى ذلك أن تصدقوا بالقضايا الثلاث أو أن تنكروا القضايا الثلاث، فما بالُكم تصدّقون بالأولى والثانية وترفضون الثالثة؟ كيف تفرّقون بين المتماثلات فتقبلون بعضاً وتأبَون بعضاً، والثلاث سواء في الثبوت لا سبيل إلى التفريق بينها في الحكم؟

❊ ❊ ❊

توحيد الألوهية

الإيمان بأن الله رب العالمين وأنه مالك الكون عمل من أعمال القلب، عقيدة يعتقدها الإنسان، أما الإيمان بأنه الإله فلا يقتصر على الاعتقاد، بل يتعداه إلى السلوك والعمل وإلى القيام بالعبادة وإفراد الله بها، فإن استنكف عن عبادته أو عبد معه غيره لم يكن مؤمناً ولو صدّق واعتقد أن الله هو رب العالمين ومالك الكون.

فما هي العبادة؟ أول ما يبدر إلى الذهن أن العبادة هي الذكر والصلاة والصيام وتلاوة القرآن وأمثال ذلك مما يقرّب إلى الله، وهذا حق، ولكن العبادة لا تقتصر على هذا، بل إن كل عمل نافع لم يمنعه الشرع يعمله المؤمن ابتغاء ثواب الله يكون عبادة. يأكل ليتقوى على الطاعة فيكون أكله بهذا القصد عبادة، وينكح ليعفّ نفسه وأهله فيكون نكاحه عبادة، وبمثل هذا القصد يكون كسبه المالَ عبادة، وإنفاقه على أهله عبادة، وتحصيله العلم والشهادات عبادة، وشغل المرأة بأعمال بيتها وخدمة زوجها ورعاية أولادها عبادة، وكل عمل مباح إنْ قَصد فاعله قصداً فيه رضا الله كان عبادة.

فالعبادة يتسع معناها حتى يشمل كل أعمال الإنسان النافعة ويحيط بها كلها، ولعل هذا هو المعنى المقصود بقوله تعالى ﴿وما خلقتُ الجنَّ والإنسَ إلا لِيَعبدون﴾.

روح العبادة

والعبادة لها روح ولها جسد، فروحها العقيدة التي دفعت إليها والغاية التي عُملت من أجلها، وجسدها عمل الجوارح، من لفظ اللسان وحركات الجسم. الصلاة مثلاً حركات وألفاظ، قيام وقعود وركوع وسجود وتلاوة وذكر وتسبيح، لكن هذا كله جسد الصلاة، فإن لم يكن الدافع إليه توحيداً صحيحاً وعقيدة سليمة ولم يكن المقصود به امتثال أمر الله وطلب رضاه كانت الصلاة جسداً ميتاً لا روح فيه.

الأساس في توحيد الألوهية

الأساس أن نعتقد أن الله وحده هو النافع وهو الضار، ولا بد لهذا من شيء من البيان: الله خالق كل شيء، أوجد العوالم وبث فيها من كل شيء، وأعطانا العقول وقال لنا: فكروا بعقولكم في هذه الأشياء التي خلقتها وانظروا ماذا في السماوات والأرض.

(١) فنظرنا فوجدنا أن الله الذي خلق هذه الأشياء قد سلط بعضها على بعض، فالنار إذا مست الشجرة اليابسة أحرقتها، والماء إذا صُبَّ على النار أطفأها، والبعوضة[١] إذا لدغت الإنسان أصابته بالبرداء (الملاريا)، والمادة التي في قشور شجرة الكينا إذا

---

(١) أعني النوع المعروف منها.

دخلت جسد المريض شفته من البرداء.

(٢) وأنه جعل بين هذه الأشياء روابط، وجعل اجتماعها بمقادير قدّرها وامتزاجها بنسب عيّنها ينتج عنه أشياء جديدة. فالكلور (وهو مادة مؤذية) والصوديوم (وهو مادة مؤذية) إذا اجتمعا كان منهما مادة نافعة لا بد للإنسان منها ولا يستغني عنها، وهي ملح الطعام.

(٣) ووجدنا أن الروابط والعلاقات تتبع كلها قواعد ثابتة وأساليب معينة لا تتبدل ولا تتغير، هي سنن الله في الكون التي اصطلحنا على تسميتها «قوانين الطبيعة».

(٤) وأن هذه الروابط بين الأشياء (التي سميناها قوانين الطبيعة) ليست كلها كالعلاقة الظاهرة بين النار والخشب الذي نحرقه والنار والماء الذي يطفئها، ليست كلها بهذه البساطة[١] وهذا الظهور، بل إن أكثرها أدق وأعمق.

الله وضع في هذا الكون دواء لكل داء، ولكنه لم يضع الدواء في مكان باد للعين ولم يجعله «جاهزاً» مُعَداً للاستعمال، بل جعله -تعالت حكمته- مخبوءاً في أوضاع عجيبة وفي أماكن لا يُظَن أنه موجود فيها. فالبنسلين الشافي وضعه ربنا في العفن الأخضر الذي يبدو أنه سمّ مميت، كما وضع أجمل العطور ذات الروائح العبقة وأبدع الأصبغة ذوات الألوان الزاهية في أقبح مادة ريحاً وأبشعها شكلاً، المادة السوداء القبيحة التي اسمها

---

(١) البساطة في اللغة السعة، ولكني قصدت بها المعنى العامي.

«القطران»، ومنها تُستخرَج العطور والألوان!

ولم توضع وضعاً قريباً، بل إن العنصر المؤثر المطلوب جعله ربنا ممزوجاً بمواد أخرى متداخلاً معها، يحتاج استخلاصه منها إلى عمليات وتجارب وجهود. ومن قرأ كتاب «التلميذة الخالدة»[1] علم كيف احتاج استخراج غرام الراديوم إلى تصفية ركام هائل كالتل الصغير من مواد مختلفة، وإجراء العمليات المتعاقبة عليها التي استمر إجراؤها سنين.

(٥) ولم نكتشف إلى الآن من هذه النواميس الكونية التي وضعها خالق الكون إلا قطرة من بحر، رأينا فيها العجب العجاب، وصنفنا هذا القليل الذي كشفناه في زمر وأصناف سميناها علوماً، فكان منها علم الحياة وعلم الكيمياء وعلم الفيزياء وعلم الجسم (الفسيولوجيا) وعلوم الطب وسائر العلوم، وانقطع إلى كل علم منها ناس منّا تفرغوا لفهم قوانين الله فيه وكشف المزيد منها، فكان منهم علماء الحياة وعلماء الكيمياء وسائر العلماء.

(٦) ووجدنا أن في هذا الكون أشياء تضرّنا وأشياء تنفعنا، وأن النفع والضرر على نوعين، منه ما يكون بسبب ظاهر تطبيقاً لقانون من قوانين الطبيعة التي كشفناها وأدخلناها في نطاق علومنا، كمن يقف قلبه بتناول مادة سامة عرفناها وعلمنا بالتجربة تأثيرها في القلب، ومنه ما يكون بغير سبب ظاهر ولا يستند إلى

---

(١) قصة مدام كوري وزوجها، وأرجو أن يقرأ الطلاب هذا الكتاب ليروا كيف يكون الصبر على تحصيل العلم. وفي سِيَر علمائنا الأولين مئات الأمثلة على مثل هذا الصبر وعلى الإخلاص للعلم والجِدّ فيه.

قانون معروف، كمن يكون قوي الجسد صحيح الجسم فيقف قلبه فجأة بسكتة قلبية لا نعرف سببها. وكلا النوعين من الله، فالله وحده هو النافع وهو الضار.

(٧) والله قد فطر الإنسان على جلب النفع، فهو يتخذ لجلبه كل وسيلة، وفطره على كُره الضرر، فهو يستعمل لدفعه عنه كل حيلة ويستعين على ذلك بكل طاقة ممكنة. وهذه الاستعانة منها ما يجوّزه الدين ومنها ما يمنعه ويراه منافياً للإيمان، فما هي الاستعانة المشروعة وما هي الاستعانة الممنوعة؟

إذا مرض ولدك فدعوت الطبيب ففحص عن المرض ووصف له الدواء كانت هذه استعانة مشروعة، لأنك استعنت على الشفاء بالقانون الطبيعي الذي وضعه خالق الكون وبالرجل العالم بهذا القانون، ولكن إن دعوت دجّالاً أو ساحراً ليعمل على شفائه بلا علم ولا قانون، بل بقوى غيبية يزعم الاتصال بها لم يثبت وجودها بالعلم الحسي ولا بالدليل السمعي[١] كانت استعانة ممنوعة. وإن جئت قبر الطبيب بعد موته فدعوته وهو لا يقدر أن يفحص المريض وأن يصف الدواء كانت استعانة ممنوعة. وإن عجز العلم ولم ينفع الدواء فتوسلت إلى الشفاء بالدعاء أو بالصدقة أو طلبت من رجل صالح أن يدعو لك كانت هذه استعانة مشروعة، وإن وقفت على قبر الرجل الصالح فاستعنت به وهو لا يملك تحريك لسانه بالدعاء لك ولا يقدر من عند نفسه على شفاء

(١) الدليل السمعي هو آية من كتاب الله أو حديث ثابت من أحاديث رسول الله ﷺ.

مريضك كانت هذه استعانة ممنوعة.

وتوسلك إلى الشفاء بسقي المريض الدواء الذي وصفه له الطبيب مشروع، ولكن إن أخذت الوصفة فجعلتها حجاباً علقته بعنق المريض أو نقعتها وسقيته ماءها واعتقدت أن ذلك يشفيه فذلك ممنوع. وطلبك النفع بأشياء لم يجعلها الله سبباً ظاهراً له ممنوع، فالمرأة العاقر التي تشتهي الولد إذا استعانت بطب الأطباء وبالأدوية التي أنزلها الله المستخرَجة وفق قوانين العلم لم تأتِ أمراً ممنوعاً ولم تخالف الدين، ولكن إذا اعتقدت (كما كان يعتقد عجائز الشام)[1] أن قرع حلقة جامع الحنابلة في جبل قاسيون أول جمعة من رجب يسبب لها الحبل أو توسّلت إلى ذلك بربط خرقة على شبّاك أحد القبور تكون قد ارتكبت ممنوعاً وخالفت عقيدة التوحيد.

فتبين من هذا أن الاستعانة بقوانين الطبيعة والرجوع إلى الرجل العالم بها واتخاذ الأسباب المعتادة لحصول النفع، كل ذلك جائز مشروع، على أن نذكر أن النافع في الحقيقة هو الله تعالى وحده دون سواه، وأن الاستعانة بقوة غيبية مزعومة لم يؤيدها العلم التجريبي ولم يثبتها الدليل السمعي إنما هي استعانة ممنوعة منافية لعقيدة التوحيد.

---

(١) وكما تعتقد نساء إيطاليا أن من تتطاول بكلتا يديها إلى نافذة ضريح أحد القديسين يزول عقمها إذا كانت عقيماً! ولنساء أوربا وأميركا اعتقادات أغرب من هذا.

التحليل والتحريم لله وحده

وهذه المنافع التي نصل إليها بتطبيق قوانين الطبيعة منافع دنيوية، لأن الله سلط عقولنا على كشف هذه القوانين ولم يسلطها على كشف ما وراء المادة ولا على جلب المنافع الأخروية، فنحن نعمل على جلب النفع ودفع الضرر في حدود المادة وفي هذه الدنيا، ولا نملك لأنفسنا في العالم الآخر نفعاً ولا ضرراً.

ولما كان الله قد جعل للنفع الأخروي سبباً، وهذا السبب هو عمل الواجب، وجعل للضرر الأخروي سبباً، وهذا السبب هو فعل الحرام، كان التحريم والتحليل الذي يترتب عليه الثواب والعقاب لله وحده، وليس لأحد أن يقول برأيه «هذا حلال وهذا حرام»، وليس لأحد أن يوجب أمراً لم يوجبه الله أو يحرّم أمراً لم يحرمه الله. ومن أعطى حق التحليل والتحريم لغير الله يكون قد عبده من دونه أو شاركه معه في عبادته[١].

حب الله وخشية الله

الإنسان يحب ويكره؛ يحب الطعام اللذيذ، ويحب المنظر الجميل، ويحب الرجل المرأة، وقد يبالغ في هذا الحب (أي العشق) فيفيض عليه -كما قدّمنا- بعض مظاهر العبادة، ولكنه

(١) ولو أن مسلماً شرب الخمر وهو معتقدٌ حرمتَها معترف بذنبه وآخَر ادّعى أن شراب الليمون مثلاً حرام لكان ذنب من حرّم الحلال بلا دليل أكبر من ذنب من ارتكب الحرام بلا إنكار لحرمته، ولقد قُرن ذلك في القرآن بالشرك: ﴿وقال الذين أشركوا لو شاء الله ما عبدنا من دونه من شيء نحن ولا آباؤنا ولا حرّمنا من دونه من شيء﴾.

يبقى مع ذلك مقيّداً محدوداً ككل حب بشري.

فنحن نحب المنفعة التي ننالها من الشيء الذي نحبه أو اللذة التي نحس بها بقرب الشخص الذي نعشقه، فإذا أصيب المحبوب بمرض مشوِّه تتساقط منه الجوارح ويذهب معه الجمال أو فسد الطعام وركبه العفن أو تبّدل المنظر وذهب منه الجمال انتهى هذا الحب، بل ربما تحوّل إلى كُره. أما حب الله الذي يحسه المؤمن فهو حب غير مقيد ولا محدود، بل إن ما نحبه في الدنيا إنما نحب فيه الخالق الذي خلقه وأوجده وسخّره لنا وأقدرنا على الانتفاع به أو التلذّذ بمرآه أو ملمسه.

والإنسان يخشى الكثير من المخلوقات؛ يخشى النار المشتعلة والوحش المفترس والسمّ المميت والظالم القوي، ولكنها خشية محدودة مقيدة، هي البعد عن الضرر الكامن في المخاوف أو الناشئ عنه، فإذا أمن الضرر ذهب من نفسه الخوف، أما خوف الله فمطلق غير مقيد ولا محدود.

وحب الله والخشية منه هما من أسس التوحيد وهما روح العبادة. ولا بد من التنبيه على أن حب الله ليس معناه نظم قصائد الغزل بالله كما فعل ابن الفارض، ولا تسميته بالعشق الإلهي كما نسبوا إلى رابعة العدوية، وخوف الله ليس معناه الفزع المؤدّي إلى الكُره ولا الجزع الموصل إلى الاختلال. بل إن حب الله بطاعته وإيثار مرضاته على شهوات النفس ووساوس الشيطان، واتباع رسوله ﷺ فيما جاء به: ﴿قُلْ إنْ كنتم تُحبّون الله فاتّبعوني﴾، فالاتباع هو مقياس الحب. وخوفه باجتناب محرماته وإيثار لذة الثواب في الآخرة على المعصية في الدنيا.

ثم إن الطاعة لله ليست كالطاعة لمخلوقاته، فنحن نطيع بعض البشر إما امتثالاً لأمر الله كطاعة الرسول، أو استجابة لدواعي الطبع، أو خوفاً من الخطر. فالشعب يطيع الحاكم والولد يطيع الوالد والمرأة تطيع الزوج والإنسان يطيع من أحسن إليه إذا أمره بما لا يضرّه، وقد يُكْرَه أحدنا على الطاعة فيطيع خوفاً من الأذى، ولكن هذه كلها (عدا طاعة الرسول، فهي من طاعة الله) كلها طاعة محدودة وليست الطاعة المطلقة التي لا حدّ لها، لأن الطاعة المطلقة لله، الطاعة في كل شيء، الطاعة فيما يسرنا ويسوؤنا، فيما نفهم حكمته وما لا نفهم حكمته. وهذه الطاعة هي ثمرة حب الله وهي الدليل عليه.

آيات الصفات

لقد اجتنبت في هذا الكتاب الخوض في المسائل الكلامية وأعرضت عن سرد اختلافات المتكلمين، ولكن مسألة آيات الصفات قد طال فيها المقال وكثر الجدال، ولا بد من بعض البسط للكلام فيها.

لقد وصف ربنا نفسه في القرآن بألفاظ موضوعة في الأصل للدلالة على معانٍ أرضية ومقاصد بشرية، مع أن الله ليس كمثله شئ، وهو الرب الخالق، تعالى عن أن يشبَّه المخلوقين. ولا يمكن أن تُفهَم هذه الألفاظ حين إطلاقها على الله بالمعنى نفسه الذي تفهم به حين إطلاقها على المخلوق.

فنحن نقول "فلان عليم" و"فلان بصير" ونقول أن الله عليم بصير، ولكن الكيفية التي يَعلم بها العبد ويبصر ليست هي التي

يعلم بها ربنا ويبصر، وعلم العبد وبصره ليس كعلم الله وبصره. كذلك نقول "استوى المعلم على منبر الفصل" ونقول "استوى الله على العرش". نحن نعرف معنى الاستواء «القاموسي» ونطبقه على المعلم، ولكن هذا المعنى لا يمكن أن يكون هو ذاته المقصود حين نقرأ ﴿الرحمنُ على العرش استوى﴾.

هذا كله متفَق عليه بين العلماء، فهم جميعاً مقرّون بأن آيات الصفات هي كلام الله، فإذا قال الله: ﴿ثم استوى على العرش﴾ لم يستطع أحد أن يقول: ما استوى. وهم جميعاً معترفون بأن المعنى القاموسي البشري لكلمة استوى ليس هو المراد من قوله ﴿استوى على العرش﴾. ولكنهم مع ذلك اختلفوا اختلافاً كبيراً في المراد المقصود بعد اتفاقهم على ترك التعطيل والتشبيه، فتساءلوا: هل هذه الآيات حقيقة أم مجاز؟ وهل تُؤوَّل أم لا تؤوَّل؟

أما الذين أوّلوا فقالوا بأن الحقيقة هي «استعمال اللفظ بالمعنى الذي وُضع له». هذا هو تعريف الحقيقة عند عامة علماء البلاغة، ولا شك أن اللسان العربي الذي نزل به القرآن وُضعت فيه هذه الألفاظ قبل نزول القرآن، ووضعت لمعانٍ أرضية مادية، حتى إنها لتعجز عن التعبير عن العواطف والمشاعر البشرية فضلاً عن التعبير عن صفات الله خالق البشر، فإن مظاهر الجمال وأشكاله لا حدّ لها وما عندنا لها كلها إلا كلمة جميل. وأين جمال المنظر الطبيعي من جمال القصيدة الشعرية من جمال العمارة المزخرفة من جمال الغادة الحسناء؟ وفي النساء ألف لون من ألوان الجمال وما عندنا لها كلها إلا هذا اللفظ الواحد، فاللغات تعجز عن وصف الشعور بالجمال. وكذلك القول في الحب، في

تعداد أنواعه واختلاف مشاعره وضيق ألفاظ اللغة عن وصف هذه الأنواع ونعت هذه المشاعر، فكيف تحيط بصفات الله وتشرح كيفياتها؟[1]

وإذا كانت الحقيقة هي استعمال اللفظ فيما وضع له، وكانت ألفاظ: «استوى» و«جاء» و«خادع» و«يمكر» و«نَسِيَهم» إنما وضعت للمعاني الأرضية البشرية المادية، وكان استعمالها في القرآن في قوله ﴿ثم استوى على العرش﴾ ﴿وجاء ربك﴾ ﴿وهو خادعهم﴾ ﴿ويمكر الله﴾ وقوله ﴿فنسيهم﴾ في غير هذا المعنى المادي الأرضي البشري الذي وُضعت له، لم تكن إذن حقيقة بمقتضى تعريفهم هذا للحقيقة.

ومن ينكر أنها مجاز (ومنهم ابن تيمية) يعرّف «الحقيقة» تعريفاً آخر خاصاً به غير التعريف الذي جرى عليه البلاغيون، ويقول ما معناه: إن تأويل هذه الألفاظ (أي تفسيرها تفسيراً مجازياً والجزم بأنه هو المراد) مردود، لأن المعاني المجازية هي أيضاً مَعانٍ بشرية.

ولقد نظرت فوجدت أن هذه الآيات على ثلاثة أشكال:

١- آيات وردت على سبيل الإخبار من الله، كقوله: ﴿الرحمن على العرش استوى﴾. فنحن لا نقول أنه ما استوى، فنكون قد نفينا ما أثبته الله، ولا نقول أنه استوى على العرش كما يستوي القاعد على الكرسي، فنكون قد شبّهنا الخالق بالمخلوق، ولكن

(١) راجع الكلام عن «ضيق الألفاظ»، وقد مضى في هذا الكتاب في القاعدة السادسة من «قواعد العقائد»، ص٦٤ (مجاهد).

نؤمن بأن هذا هو كلام الله وأن لله مراداً منه لم نفهم حقيقته وتفصيله لأنه لم يبيَّن لنا مفصلاً، ولأن العقل البشري -كما قدمنا- يعجز عن الوصول إلى ذلك بنفسه.

٢- آيات وردت على الأسلوب المعروف عند علماء البلاغة بالمشاكلة. و«المشاكلة» هي كقول القائل:

قالوا اقترح شيئاً نُجِدْ لك طبخه

قلت اطبخوا لي جُبّةً وقميصاً

وقول أبي تمام في وقعة عمّورية، يردّ على المنجمين الذين زعموا أن النصر لا يجيء إلا عند نضج التين والعنب:

تسعون ألفاً كآساد الشرى نضجت

جلودُهم قبل نضج التين والعنب

والآيات الواردة على هذا الأسلوب كثيرة، كقوله تعالى ﴿نَسُوا الله فَنَسِيَهم﴾. فكلمة «نسوا» جاءت على المعنى القاموسي للنسيان، وهو غياب المعلومات عن الذاكرة، ولكن كلمة «فنسيهم» جاءت مشاكلة لها ولا يراد منها ذلك المعنى، لأن الله لا ينسى: ﴿وما كان رَبُّك نَسِيّاً﴾. ونقول بعبارة أخرى: إن كلمة «نسوا» استُعملت بالمعنى الذي وُضعت له، وكلمة «فنسيهم» استعملت بغير هذا المعنى.

ومثلها قوله ﴿وهو معكم أينما كنتم﴾. اتفق الجميع على أنها معيّة علم لا معيّة ذات، لأن صدر الآية ينص على أن الله استوى على العرش. ومثلها قوله ﴿سنَفرُغ لكم أيها الثَّقَلان﴾، وقوله

﴿ومكروا ومكر الله﴾، وقوله ﴿يخادعون الله وهو خادعهم﴾. كل هذه الآيات لا يجوز فهمها بالمعنى القاموسي الماديّ، بل بمعنى يليق به جلّ وعلا.

٣- آيات دلت على المراد منها آياتٌ أخرى، كقوله تعالى: ﴿وقالت اليهودُ يَدُ الله مَغلولةٌ، غُلَّت أيديهم ولُعنوا بما قالوا، بل يداه مبسوطتان يُنفقُ كيف يشاء﴾. تدل على المراد منها آية ﴿ولا تجعل يدكَ مغلولة إلى عنقك ولا تبسُطْها كلّ البسط﴾، ويُفهم منها أن بسط اليد يراد به الكرم والجود، ولا يستلزم ذلك (بل يستحيل) أن يكون لله تعالى يدان كأيدي الناس والحيوان، تعالى الله عن ذلك. وقد جاء في القرآن قوله ﴿بين يدَي رحمته﴾ و﴿بين يدَي عذاب شديد﴾ والقرآن ﴿لا يأتيه الباطل من بين يديه﴾، وليس للرحمة ولا للعذاب ولا للقرآن يدان حقيقتان.

المحكم والمتشابه

بيّن الله في القرآن أن فيه آياتٍ محكمات واضحة المعنى صريحة اللفظ، وآيات وردت متشابهات، وهي التي لا يَضِحُ[١] المعنى المراد منها تماماً، بل تكثر أفهام الناس لها وتتشابه تفسيراتها حتى يتعسر أو يتعذر معرفة المراد منها، وآيات الصفات منها. وأن على المؤمن أن لا يطيل الغوص في معناها، ولا يتتبعها فيجمعها ليفتن الناس بالبحث فيها[٢].

---

(١) «يضح» هو الفعل المضارع من الفعل الماضي وضح، ومثلها وعظ يعظ.

(٢) ومن جمعها كلها وألقاها على التلاميذ فقد جانب طريقة السلف،=

موقف المسلمين منها وكيف فهموها

المسلمون الأولون، وهم سلف هذه الأمة وخيرها وأفضلها، لم يتكلموا فيها، ولم يقولوا أنها حقيقة ولم يقولوا أنها مجاز، ولم يخوضوا في شرحها، بل آمنوا بها كما جاءت من عند الله على مراد الله.

فلما انتشر علم الكلام وأُورِدت الشُّبَه على عقائد الإسلام وظهرت طبقة جديدة من العلماء انبرت لرد هذه الشبه تكلم هؤلاء العلماء في آيات الصفات، وفهموها على طريقة العرب في مجاوزة المعنى الأصلي للكلمة (إذا لم يمكن فهمها به) إلى معنى آخر، وهذا ما يسمى «المجاز» أو «التأويل»[١].

وهو موضع نزاع بين العلماء طويل. والحق أن هذه الآيات نزلت من عند الله، من أنكر شيئاً منها كفر، وأنّ مَن عطّلها تماماً فجعلها لفظاً بلا معنى كفر، ومن فهمها بالمعنى البشري وطبّقه

= ولا سيما إذا ضَمَّ إليها أحاديثَ الآحاد المروية في مثلها والتي لا تُعتبَر دليلاً قطعياً في أمور العقائد عند جمهور العلماء. وليس معنى هذا أن المرء مخيَّر في قبولها أو ردّها، بل هناك خلاف فيمن ينازع في دلالتها ومن يحملها على المجاز.

(١) «التأويل» من آلَ الأمر إلى كذا، أي صار. وأوّله إليه (على وزن فعّل) أي صيّره. ولفظ التأويل جاء في القرآن بمعنيين: تأويل لفظي، أي بيان ما ينتهي إليه معنى اللفظ: ﴿ذلك تأويل ما لم تستطع عليه صبراً﴾، وتأويل عملي، أي بيان ما تنتهي إليه الحال: ﴿يوم يأتي تأويله﴾. ومن هنا فرّق المتأخرون بين التأويل والتفسير، فالتأويل ما بيّنا، والتفسير كشف المعنى، من فَسَر (مثل سفر) أي انكشف.

على الله فجعل الخالق كالمخلوق كفر. والمسلك خطر والمفازة مهلكة، والنجاة منها باجتناب الخوض فيها واتباع سنن السلف والوقوف عند حد النص، وهذا ما أدين الله به وما أعتقده.

مظاهر العبادة

القلب الذي يؤمن بأن النفع والضرر كله من الله وأن التحليل والتحريم لله وأن الحب المطلق والخوف المطلق والطاعة المطلقة لله يمتلئ بتعظيم الله، ويستشعر معنى «الله أكبر» فيصغر معه كل شيء في جنب الله.

ولما كان في أعمال الإنسان ما يدل على التعظيم المطلق، كالدعاء والصلاة والركوع والسجود والنذر والذبح والتسبيح والتهليل، فإن المؤمن لا يصنعها إلا لله، فلا يصلي لسواه ولا يركع ولا يسجد إلا له، ولا يقول لأحد غيره «سبحانك»، ولا يطلب غفران الذنوب إلا منه، لأن هذه كلها من مظاهر التعظيم المطلق الذي هو سرّ العبادة.

ومن أعظم مظاهر العبادة الدعاء، وهو في اللغة النداء، والشرع لا يمنع أن تدعو (أي تنادي) إنساناً حيّاً يسمع صوتك ليعينك بعلمه أو قوته على جلب النفع لك، وليس هذا هو الدعاء الذي نتكلم عنه، بل الدعاء الذي نقصده هنا والذي هو مخّ العبادة هو طلب جلب النفع ودفع الضرر بلا سبب مادي ظاهر، وهذا الذي لا يوجَّه إلا لله وحده، رأساً بلا واسطة، فلا يُطلب الشفاء نفسه من الطبيب ولو كان حياً، لأن الطبيب يصف الدواء والشفاء من الله. فأوْلى ألّا يطلبه أو يطلب ما يشابهه من ميت أو من جماد،

لأنه لا يمنح النفعَ بلا سبب ظاهر إلا الله.

فالمؤمن يتخذ الأسباب ثم يطلب المسبَّب من الله، وما لا يعرف الناس له سبباً يطلبه من الله وحده، يدعوه ويقول: «يا الله»، ويعتقد أن بابه مفتوح وأن إجابته حاصلة، ولا يدعو غيره بدله، ولا يدعو غيره معه، ولا يتخذ غيره وسيطاً في الدعاء بينه وبينه. هذا هو الدعاء الذي هو مخّ العبادة.

غاية العبادة

قلت أن للعبادة جسداً هو الألفاظ التي ينطق بها اللسان والأعمال التي تقوم بها الأعضاء، ولها روح، وروحها العقيدة التي دفعت إليها والغاية التي عُملت من أجلها، أي النتائج التي قصدها من عملها. وقد شرحت جانباً من هذه العقيدة، وسأُلِمُّ الآن بطرف من هذه المقاصد.

المقصد الصحيح للعبادة: أن يكون الباعث عليها والمقصود بها رضا الله، فلا نعملها للمال ولا للجاه ولا لنيل إعجاب الناس، ولا نتخذها سلماً إلى متع الدنيا ولا نريد بها الشهرة بالصلاح. وهذا المقصد الصحيح يسمى «الإخلاص»، وما يداخله من المقاصد الأخرى يدعى «الرياء»، والذي يحدد المقصد من العمل هو النية. والله لا يسألنا يوم القيامة عن الأعمال فقط، بل يسألنا: لماذا عملناها؟ وقد يكون العمل صالحاً في ذاته، ولكن لم يصحّ المقصد منه ولم تَسْلم النية ولم تكن خالصة لله، فيتحول صلاحه إلى فساد وحُسنه إلى قبح.

الصلاة مثلاً عمل صالح، ولكن إذا كانت نية المصلي أن

يراه الناس فيعتقدوا صلاحه فيعطوه الأموال ويهدوا إليه الهدايا ولم يُصَلِّ امتثالاً لأمر الله وطلباً لرضاه كانت صلاته هذه عملاً سيئاً، وإن كانت الصلاة في الأصل من الأعمال الحسنة.

لذلك تفاوتت هجرة المهاجرين فكان منها الحسن والسيّئ، وإن كان ظاهرها واحداً وكانوا جميعاً قد اشتركوا في السفر والارتحال ومشوا في وقت واحد في طريق واحد، فمن كان يقصد الفرار بدينه ورضا ربه كانت سفرته هجرة لله يُثاب عليها ثواب المهاجرين، ومن كان خاطباً امرأة في المدينة يريد زواجها، فلما رأى المهاجرين قال في نفسه: "إني أصحبهم لأتزوج بهذه المرأة"، أو كانت له تجارة فصحبهم ليعمل في تجارته، وكان هذا وحدَه هو مقصده من السفر، كانت سفرته للدنيا ولم تكن لله.

والنيات هي التي تفرق بين العادة والعبادة. فمن أفاق متأخراً ومضى إلى عمله مستعجلاً وشُغل عن طعامه وشرابه فلم يُدخل جوفَه شيئاً إلى الغروب يكون قد قام بكل ما يطلب من الصائم، ولكن لم ينل ثواب الصائمين لأنها ما نوى الصيام ولا قصده[١]. والأعمال العادية، المباحة غير الممنوعة، إذا قصد بها صاحبها

(١) وهذا لا يعارض ما ذهب إليه الحنفية من صحة الوضوء بلا نيّة لمن غسل أعضاء الوضوء كلها، لأن الوضوء عندهم ليس عبادة مستقلة، ولكنه شرط لهذه العبادة، كما يشترط لها طهارة الثوب والمكان وستر العورة، وذلك كله يصح ولو بلا نية. وجمهور الفقهاء من غير الحنفية اشترطوا له النية لأن الفارق بين العادة والعبادة هو النية، وتعريف النية هو أن تتصور العمل قبل أن تعمله وأن تعرف لماذا تعمله.

رضا الله ونوى بها نية صالحة كانت له عبادة، ومن هنا قلنا: إن جميع أعمال الإنسان النافعة تكون له بالنية عبادة، فتشمل العبادة الحياة كلها، ويكون المرء متعبداً في طعامه وشرابه وقيامه وقعوده وكسبه وزواجه، ومن هنا يكون الفهم الصحيح لقوله تعالى: ﴿وما خلقتُ الجنَّ والإنسَ إلا لِيَعبدون﴾.

فتكون العبادة بهذا المعنى الشامل هي غاية الخلق.

الخلاصة

فتلخّص من ذلك أن توحيد الألوهية (وهو القسم الرابع والقسم الأخص من الإيمان بالله) هو أن تعتقد أن النفع والضرر كله من الله وحده، فلا تطلب النفع إلا منه، إما عن طريق السنن التي وضعها لهذا الكون المسماة بقوانين الطبيعة، وإما منه رأساً بالدعاء. تدعوه وحده، لا تدعو غيره ولا تدعوه مع غيره، ولا تتخذ إليه وسيطاً، ولا تستعين إلا به بالأسباب التي جعلها طريقاً للنفع، مع ملاحظة أنه هو النافع لا مجرد السبب. وأن تخصّه بالحب المطلق الدافع إلى الطاعة المطلقة والخشية الدافعة إلى اجتناب المحرمات، وأن تخصه بالتعظيم المطلق وبكل ما يدل عليه من قول وعمل، وأن تقصد رضاه وحده، لا تقصد بعبادتك الدنيا وأهلها.

البحث العلمي

ولما كان الله قد أعطانا العقول وأمرنا بالنظر في أسرار الوجود وفي سننه العجيبة وقوانينه التي أوجدها فيه، وكان علينا امتثال أمر الله، كان درس العلوم الطبيعية واكتشاف أسرار الوجود عبادة، بشرط ألّا تقف عند معرفة القانون بل تفكر في الإله العظيم

الذي أوجده، فتزداد بهذا الفكر إيماناً بالله وإخلاصاً في عبادته.

وشرط آخر: هو أن تستعمل هذه الأسرار فيما ينفع الناس ويرضي الله، لا فيما يضرهم ويؤذيهم ويسبب في الأرض الفساد.

شبهة وردها

يسأل كثيرون: ما بال الكافر يعمل على ما ينفع الناس، يوزع الصدقات ويبني الملاجئ والمستشفيات ويفتح المدارس، ثم لا يكون له عندكم ثواب الدنيا الآخرة؟ والرد: إن الله لا يضيع عمل عامل من ذكر أو أنثى ولا يحرم محسناً ثمرة إحسانه، بل يعطيه ما يطلبه. أليس الجزاء الأعظم أن تعطي المحسن ما يطلبه؟

فإن كان المحسن مؤمناً مصدقاً بالآخرة وطلب ثوابها أعطاه الله ثواب الآخرة، وإن كان هو نفسه لا يريد إلا الدنيا والشهرة والذكر الحسن وأن تكتب الجرائد عنه ويسجل التاريخ اسمه أعطاه ما يطلبه. هو لا يريد الآخرة، فلماذا تحزن أنت وتعترض إذا لم يُمنح ثوابها؟

جدال في غير طائل

امتلأت كتب علم الكلام بالجدال في «الصفات» و«الذات»: هل علم الله تعالى -مثلاً- بذاته أم بصفة العلم فيه؟ وبالتفريق بين صفات الدين (كالعلم والقدرة) وصفات الأفعال (كالخلق والرزق)، والجدل في كلام الله الذي جرّ إلى فتنة كبيرة ما كان لها من داعٍ هي فتنة الامتحان بالقول بخلق القرآن. وفي الحُسن والقبح والصالح والأصلح، وفي القضاء والقدر وإرادة الإنسان، وأمثالها.

ووجه الحق في هذه المسائل هو رفض البحث فيها والجدال عليها، فهي (إذا استعرنا لغة المحاكم) «دعوى مردودة شكلاً».

أولاً: لأن السلف (وهم أفضل المسلمين وخيار هذه الأمة، من الصحابة والتابعين الكبار) ما عرفوها ولا بحثوا فيها، وكان دينهم أسلم وإيمانهم أصح، وهم قدوتنا في ديننا.

ثانياً: لأن من يدقق في أقوال الفِرَق المختلفة يجدها كلها مبنية على أساس واحد، هو قياس الخالق على المخلوقين وتطبيق منطق العقل البشري وأحوال النفس الإنسانية على الله. وذلك باطل لأن الخالق لا يشبه المخلوق ولأن الله ليس كمثله شيء.

ثالثاً: لأن هذه الأمور كلها مما وراء المادة، أي من عالم الغيب، وقد تقدم (في القاعدة الخامسة من قواعد الإيمان) أن العقل قاصر حكمه على عالم المادة، لا يستطيع أن يحكم على ما وراء المادة ولا يستطيع أن يدركه.

وجه الحق فيها

وأنا أدعو إلى شيء جديد، شيء هو أقرب إلى الحق وهو أنفع لنا، هو أن ننقل الموضوع من جدال في صفات الله إلى سلوك في الحياة يوصل إلى رضاه. فبدلاً من أن نبحث بحثاً غير منتج في القرآن: هل هو مخلوق أم غير مخلوق؟ نقول: إن القرآن أنزله الله لنعمل به، فلنعمل به ولنأتمر بأمره ولنقف عند نهيه. وبدلاً من البحث في علم الله وهل هو بذاته أم بصفة زائدة على الذات؟ نقول: إذا كان الله يعلم عنا كل شيء، من سرّنا وجهرنا وانفرادنا واجتماعنا، فيجب أن نسلك في الحياة سلوكاً موافقاً

لشرع ربنا حتى يعلم عنا ما يرضيه علينا.

هذا هو الحق، وما مثل من يصنع هذا ومثل من يجادل في صفات الله إلا كمثل طلاب المدرسة الذين يقال لهم: إنها ستأتي لجة عليا من الوزارة تتولى هي امتحانكم. فالعاقل منهم يقول: إذا كانت هذه اللجنة ستتولى الامتحان فينبغي أن أستعد وأدرس ولا أدع من المنهج المقرر شيئاً لا أحفظه. والأحمق يجادل في هذه اللجنة: كيف يكون امتحانها؟ هل تتولاه كلها أم أفراد منها؟ وهل عددها شفع أم وتر؟ وهل تجيء بالسيارة أم بالطيارة؟ ... ولا يزال في هذه وشبهه حتى يأتي يوم الامتحان وهو لم يُعِدّ له شيئاً.

إن الله لا يسألنا يوم القيامة عن شيء مما بنى عليه المتكلمون جدالهم وأقاموا عليه مختلف مذاهبهم وملؤوا به كتبهم، ولو كان ذلك من شروط الإيمان لبحث فيه رسول الله ﷺ وأصحابه. فلنتركه كله، فإنه أثر من آثار الفلسفة اليونانية القديمة التي دالت دولتها وبطلت أكثر نظرياتها ووهت أدلتها، وحل محلها في مسائل الميتافيزيك (ما وراء المادة) فلسفة جديدة لا تقلّ عنها ضلالاً وتخبّطاً في مهامِهِ الظنون.

فلنجعل كتاب الله إمامنا وليكن عليه اعتمادنا، وما كان فيه من ذكر لأمور مغيَّبة لم يعرض إلا إلى جزء منها آمنّا بما ظهر فيه لنا، وفوّضنا ما خفي عنّا إلى من أنزله علينا[1].

* * *

---

(١) للتوسع في هذه الفكرة راجع مقالتَي «علم التوحيد» و«علم التوحيد=

= وكتاب المودودي» في كتاب «فصول إسلامية»، وانظر الحلقة ٢٣١ من «الذكريات» (في الجزء الثامن) وعنوانها «تفسير بعض الآيات» (مجاهد).

مظاهر الإيمان

التلميذ الذي يؤمن بأن الامتحان قريب، لم يبق دونه إلا أسبوع، ثم لا يستعد له ولا يهتم به بل يشتغل عنه باللهو والعب لا يكون كامل الإيمان بقرب الامتحان. والتائه الذي ترشده إلى الطريق الموصل فيصدقك ويؤمن بكلامك ثم يمشي إلى الشمال بدلاً من اليمين لا يكون تام الإيمان بصدق المرشد، فالإيمان الكامل تبدو آثاره في أعمال المؤمن وفي سلوكه.

الإيمان والعمل

فالإيمان لاينفك عن العمل لأن العمل نتيجة له وثمرة من ثمراته، وهو مظهره الذي يظهر به للناس. والذي يقول أن الإيمان بالقلب ولا يؤدي الفرائض ولا يدع المحرمات كالذي يدّعي أنه العاشق المتيّم، ثم يدخل عليه المحبوب فلا يتبدل نبضه ولا يسرع أو يبطئ في عروقه دمه، أو يقول أنه خائف مذعور ثم لا ينعكس خوفه فراراً ولا هجوماً، فهذا لا يكون عاشقاً ولا خائفاً، لأن الأثر[١] هو الدليل على ما في القلب، حتى إن وليم جيمس[٢] يبالغ فيقول

(١) أي رد الفعل reflexe

(٢) وهو من علماء النفس السلوكيين، أي البراغماتيست.

أنه يهرب ثم يخاف.

ولذلك قرن الله الإيمان بالعمل الصالح: ﴿إنّما المؤمنون الذين إذا ذُكِرَ الله وَجِلَت قلوبُهم، وإذا تُلِيَت عليهم آياتُه زادتهم إيماناً، وعلى ربّهم يتوكلون. الذين يُقيمون الصلاة وممّا رزقناهم يُنفقون. أولئك هُمُ المؤمنون حقاً﴾. ﴿قد أفلحَ المؤمنون، الذين هم في صلاتهم خاشعون، والذين هم عن اللَّغو مُعْرضون، والذين هم للزكاة فاعلون، والذين هم لفروجهم حافظون، إلّا على أزواجهم أو ما مَلَكت أَيْمانُهم فإنهم غيرُ مَلومين، فمن ابتغى وراء ذلك فأولئك همُ العَادُون، والذين هم لأماناتهم وعَهدهم راعون، والذين هُمْ على صلواتهم يحافظون﴾. ﴿ليس البِرَّ أن تُوَلّوا وُجوهَكم قِبَلَ المشرق والمغرب، ولكنّ البرَّ مَن آمن بالله واليوم الآخِر والملائكة والكتاب والنبيّين، وآتى المالَ على حُبِّه ذوي القُربى واليتامى والمساكين وابن السبيل والسائلين وفي الرقاب، وأقام الصلاة وآتى الزكاة، والمُوفُون بعهدهم إذا عاهدوا، والصّابرين في البأساء والضرّاء وحين البأس﴾.

الإيمان يزيد

من العلماء من نظر إلى الإيمان باعتباره عقيدة لا تقبل التجزئة، فلا يكون المرء إلا واحداً من اثنين: مؤمناً أو كافراً، ولا توسط بينهما، فذهبوا إلى أن الإيمان لا يزيد ولا ينقص. ولكن الجمهور نظر إليه مقروناً بالعمل الصالح فرأوه يزيد بازدياده، وهذا هو الحق الذي وردت به النصوص القاطعة؛ قال تعالى: ﴿وإذا تُلِيَت عليهم آياتُه زادتهم إيماناً﴾، ﴿فأما الذين آمنوا فزادَتهم إيماناً﴾، ﴿وما زادَهم إلا إيماناً وتسليماً﴾.

ترك العمل لا يكفّر

والعلماء من أهل السنة متفقون على أن مجرد ارتكاب المحرَّم من غير إنكار لحرمته، وترك الواجب من غير إنكار لوجوبه ولا استخفاف به، يعرّض صاحبه لعذاب الآخرة، لكنه لا يكفّر صاحبه ولا يخلده في النار.

وما ورد في الحديث من أن الزاني لا يزني حين يزني وهو مؤمن معناه أنه لا يكون ساعةَ الزنا ذاكراً أن الله مطّلع عليه، ولو ذكر ذلك لمنعه منه حياؤه من الله. ولو أن فاسقاً أعدَّ عُدّة الزنا وهَمَّ فرأى أباه يطل عليه ويراه، هل يستطيع أن يمضي فيه أم يمنعه منه الحياء من أبيه؟ فكيف لا يمنعه الحياء من الله وهو ذاكر أنه يراه؟

ثمرات الإيمان

وثمراته هي هذه الأعمال القلبية التي لخصها رسول الله ﷺ في الحديث الصحيح بهذه الكلمة الجامعة المانعة التي تُعدّ من جوامع الكلم ومن دلائل البيان النبوي الذي لا يدانيه ولا يقاربه بيان بشري، هي قوله في تعريف الإحسان: «أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك».

الذكر

وأول هذه الثمرات الذكر. ولقد قرأت عن أحد الصالحين(١) أن ابتداء أمره أنه كان له خالٌ متعبد، وكان يلازمه، فقال: يا خالي، ماذا أعمل لأكون مثلك؟ فقال له خاله: قل كل يوم ثلاث مرات:

---

(١) هو سهل بن عبد الله التستري.

"إن الله ناظرٌ إليّ، إن الله مطلّعٌ عليّ". فقالها واستمر عليها أسبوعاً، فأمره أن يقولها ثلاث مرات في عقب كل صلاة، فقالها. وتركه أسبوعاً ثم أمره أن يقولها بقلبه بدلاً من أن يحرك بها لسانه، فتعودّ بذلك على أن يكون دائماً ذاكراً مراقباً.

وما أمر الله بشيء في القرآن ما أمر بالذكر ولا أثنى على أحد ما أثنى على الذاكرين. والذكر في لسان العرب الذي نزل به القرآن ذكران: ذكر القلب وذكر اللسان، وكلاهما ورد في القرآن. فمن ذكر القلب قوله تعالى: ﴿إنّي نَسيتُ الحوتَ، وما أَنْسانيهُ إلا الشيطانُ أنْ أذكُرَه﴾ أي أن أتذكره ويخطر على بالي. ومنه: ﴿اذكُرْ نعمتي عليك وعلى والديك﴾ و﴿يا أيّها الذين آمنوا اذكروا نعمةَ الله عليكم﴾. ومن ذكر اللسان قوله: ﴿واذكر في الكتاب إبراهيم﴾، ﴿واذكر في الكتاب مريم﴾، ﴿اذكُرْني عند ربك﴾، ﴿واذكروا اسم الله عليه﴾.

فإذا أردت أن تتحقق لك صفة الذكر فتذكر بقلبك[١] (أي بعقلك) وأنت وحدك وأنت في الملأ وأنت في السوق وأنت في الطريق، وتذكر في كل وقت وعلى كل حال أن الله يراك، فلا تعمل إلا ما يرضيه. فإن أدّيت واجباً فاذكر أنك تؤديه امتثالاً لأمره، وإن تركت محرماً فاتباعاً لنهيه، وإن عملت مباحاً فاقصد به وجهاً تستحق به الثواب، وإن عرض لك طريقان فاختر منهما ما يدنيك

(١) ليس المراد القلب المادي الذي يضخ الدم لأنحاء الجسم، بل المراد مكان الفكر والمشاعر من الإنسان. وقد بسطت الكلام في هذا الموضوع في كتبي وفي أحاديثي في الرادّ والرائي (أي في الإذاعة والتلفزيون).

من الجنة ويباعدك عن النار، وإن نسيت فأذنبت ذنباً ثم تذكّرت فتب منه واطلب العفو عنه: ﴿إنّ الذين اتّقَوا إذا مسّهَم طائفٌ من الشيطان تذكّروا فإذا هم مُبصرون﴾.

واذكر بلسانك، فإن أفضل الذكر ذكر اللسان مع حضور القلب، فإن كان الفكر غائباً لا يعي ما يقول اللسان كان ذكره كلاماً بلا معنى، كذكر بيّاع الكعك في الشام ينادي: «الله كريم»، لا يقصد ذكر الله ولكن بيع الكعك، وذكر بياع الخسّ ينادي: «الله الدايم»!

وربما كان ذكر اللسان معصية، كمن يسمّي الله على شرب الخمر ومن يذكر الله في أغاني الفسوق التي تغنيها المغنيات. فإن قصد بذلك الهزء أو دلت عليه دلالة ظاهرة كان ذكره هذا كفراً. وأفضل الذكر تلاوة القرآن، إلا في المواضع التي عيّن لها الشارع ذكراً خاصاً، كالتسبيح في الركوع والسجود مثلاً، والذكر المأثور عن رسول الله ﷺ.

وأما ما يسمى في أيامنا بحفلات الذكر (وكان يعرف عند علمائنا بالرقص لما فيه من القيام والركوع والانحناء والاستواء بحركات موزونة ونغمات معروفة) ولا يُنطق فيه بتهليل ولا تحميد بل بأصوات مبهمة مثل «آه» و«أح»، ففي حاشية ابن عابدين[(١)] (وهي عمدة المذهب الحنفي) أنه حرام، إلا إذا فعله مغلوباً على أمره غائباً عن حسه، لم يتعمده ولكن حملته عليه سيطرة العاطفة وفرط الوَجْد، فإن استحلّه فقد يُحكَم بكفره.

(١) الجزء الثالث، صفحة ٣٠٧ من الطبعة الأميرية.

بين الخوف والرجاء

وأن يكون المؤمن بين الخوف من عقاب الله والرجاء لعفوه، يذكر أن الله سريع الحساب وأنه شديد العقاب فيغلب عليه الخوف، ويذكر أنه عَفُوٌّ رحيم وأنه أرحم الراحمين فيغلب عليه الرجاء. فإن ملأ قلبَه الخوفُ وحده يكون قد يئس من رحمة الله: ﴿إنه لا يَيْأس من رَوْحِ الله إلا القومُ الكافرون﴾. وإن ملأ قلبه الرجاء وحده يكون قد أمن مكر الله: ﴿فلا يأمَنُ مكرَ الله إلا القومُ الخاسرون﴾.

وقد قدمنا الكلام بأن الخالق لا يشبه المخلوق وأن الخوف منه ليس كالخوف من مخلوقاته، فأنت تخاف من الأسد الذي يواجهك كاشراً عن أنيابه مالئاً الجوَّ بزئيره وأنت وحدك أمامه أعزل بلا سلاح، ولكن خوف الله ليس كخوف الأسد، لأن الأسد يمكن درء خطره عنك ولو أرادك به، والله رب الأسد وخالقه، لا يمكن دفع قضائه إذا كتبه عليك. وأنت تخاف السيل الهدار، يكاد يصل إليك وأنت في مجراه لا قوة لك على دفعه، ولكنه ليس كخوف الله الذي أجراه والذي يوقفه ويجففه إذا شاء ويردّه إذا أراد. والسيل يمكن الفرار منه والابتعاد عنه، وعذاب الله إذا وقع ما منه مفر. وأنت تخاف الأمراض والآفات وفقد الأحباب وذهاب المال، ولكن ذلك ليس كخوف الله الذي بيده الأمر كله، إن شاء ابتلاك به وإن شاء عافاك منه، وما في الوجود شيء يعافيك ممّا يبتليك به الله.

فالمؤمن ينبغي أن يكون بين الخوف والرجاء، إذا وقف في الصلاة فقال «الرّحمن الرّحيم» استشعر الرجاء، وإن قال «مالك يوم الدّين﴾ أحسّ الخوف. وأكثر المسلمين اليوم غلّبوا الرجاء على

الخوف والأمل بالعفو على توقي العقاب.

على أن المسلم إذا أتى الفرائض (ولو ترك المندوبات) واجتنب المحرمات (ولو لم يجتنب المكروهات) يكون من الخائفين المتقين لكنه يخسر الدرجات العالية في الجنة[1]، فهو كالتلميذ الذي يحصل على أقل درجات النجاح، لا يرسب في فصله ولكن لا ينال تقديراً ولا مكافأة، ويكون نجاحه وسطاً لا جيداً ولا ممتازاً.

التوكل

قال الله تعالى: ﴿إنْ كنتم آمنتم بالله فعليه توكلوا﴾، وقال: ﴿إنّ الله يُحبّ المتوكلين﴾. فما هو التوكل؟ وما حقيقته؟

لقد تقدم القول بأن الله جعل فيما خلق من الأشياء النافع والضار، وجعل من سنن الكون ما هو سبب للنفع وما هو سبب للضرر، فهل التوكل على الله ترك الأسباب؟

لقد كان في المتصوّفة من يرى التوكل في ترك السبب، لا يعمل لتحصيل الرزق وينتظر أن يصل إليه رزقه بلا عمل، ويدع مريضه بلا تطبيب ويرجو أن يناله الشفاء بلا دواء، ويسلك الصحراء بلا زاد ويأمل أن يجيئه زاده من غير تعب، ويدع طلب العلم ويعتقد

---

(١) ما بين الأقواس سقط من كل طبعات الكتاب السابقة فاختلّ المعنى اختلالاً بيّناً، فقد جاءت الجملة: "المسلم إذا أتى الفرائض واجتنب المحرمات يكون من الخائفين المتقين لكنه يخسر الدرجات العالية في الجنة"، وهو معنى لا يستقيم. وقد أخذت النقص من أصل المقالات التي نُشرت في جريدة «المدينة» سنة ١٣٨٨ قبل جمعها في الكتاب (مجاهد).

أن العلم يأتيه بلا طلب[١]، وهذا مخالف للشرع، فالشرع يقول: ﴿فانتشروا في الأرض وابتغوا من فضل الله﴾ ويقول: «يا عباد الله تداووا» ويقول: «طلب العلم فريضة»، فمن ترك طلب العلم وزعم أنه يأتيه فقد خالف الشرع والطبع.

ومن الأجانب الذين يعيشون بالمادة وحدها وللمادة وحدها مَن يعتقد أن الأسباب هي التي تصنع المسبَّبات وأن الدواء يشفي بذاته والسعي هو الذي يوصل وحده إلى النجاح، وهذا مخالف للواقع، فإنه قد يوجد السبب ولا يوجد المسبَّب، قد يحصل التداوي ولا يكون الشفاء، وقد يكون في المستشفى مريضان في غرفة واحدة، المرض لديهما واحد والطبيب واحد والدواء واحد، فيموت الأول ويبرأ الثاني. وقد يحرث الفلاح الأرض بأحدث الآلات ويلقي فيها بأحسن البذور ويضع لها أغلى السماد، فيأتي البرد الشديد أو الحر الشديد أو الجفاف المحرق أو السيل الجارف، فتذهب هذه الأسباب كلها هدراً.

فلا الأسباب وحدها توجد المسبَّب حتماً ولا إهمالها يجوز عقلاً، بل الذي يدعو إليه العقل ويأمر به الشرع هو أن يتخذ المرء الأسباب كلها ثم يسأل الله تحقيق النتائج. قيِّد الناقة وتوكّل على

---

(١) واحتجّوا خطأ بقوله تعالى ﴿واتقوا الله ويعلّمكم الله﴾، مع أنها جملة من آية، من قرأها كلها أدرك أنها لا تؤدي هذا المعنى. ولو فرض أنه يحتج بهذه الجملة وحدها وأن العلم يكون بالتقوى بلا تعلم فإنه يُرَدّ عليهم بأن التقوى إنما تكون بفعل المأمور به شرعاً، ومن المأمور به طلب العلم، فمن لم يعمل بهذا الأمر لا يكون تقياً.

الله في حفظها، واقرأ دروسك كلها وتوكل على الله واسأله النجاح في الامتحان. هذا هو التوكل الحقيقي، ليس التوكل في إهمال الأسباب وتعطيل سنن الله في الكون، ولا في نسيان أن الله هو النافع الضار وابتغاء النفع حقيقة من سواه.

الأسباب لا بد منها، وفي اتخاذها إطاعة لأمر الشرع واتباع لسنن الله في الوجود، ولكن الأسباب وحدها لا تكفي لأن النتائج بيد الله. فالمتوكل على الله حقاً هو من يبذل للوصول إلى المطلوب كل جهد ويتخذ إليه كل وسيلة مشروعة ويعتقد أن الموصل هو الله، فيتوكل عليه ويطلب منه ما يريد.

الشكر

ويكون بعد ذلك راضياً عن الله مهما منعه أو أعطاه، فيتحقق بصفة الشكر: ﴿ومَن شكرَ فإنّما يشكرُ لنفسه﴾ ﴿وسيَجزي الله الشاكرين﴾.

والشكر من ثمرات الإيمان، فإذا أحسن إليك عبد من عباد الله فلم تشكره كنت مقصراً عنه مسيئاً إليه، مع أنه واسطة والمحسن الحقيقي هو الله، فكيف لا تشكر الله والله هو الذي أنعم عليك بنعمة السمع والبصر والصحة والأمن، وسخّر لك ما في الأرض وأعطاك من النعم ما لا تستطيع عدّه ولا إحصاءه؟ إن الإنسان لا يعرف قيمة النعمة إلا عند فقدها؛ إنْ وجعه ضرسه رأى أعظم النعم في زوال الألم، فإن زال عنه نسي هذه النعمة. وإن احتاج يوماً إلى دينار ولم يجده عرف نعمة الغنى، فإنْ هو استغنى نسيها. وإن انقطع التيار الكهربائي وشمل الدار الظلام

عرف نعمة النور، فإن وجده لم يعد يدرك قَدْره.

فإذا كنت لا تستطيع أن تحصي نعم الله عليك، أفلا تشكره عليها؟ تشكر الله بلسانك بحمده والثناء عليه فتقول: «الحمد لله، ربّ لك الحمد»، وتشكر الله بعملك فتفيض من هذه النعم على من حُرِم منها، وشكر الغني أن يعطي الفقير، وشكر القوي أن يساعد الضعيف، وشكر صاحب السلطان أن يقيم الحق ويسير بالعدل، فإن كنت من ذوي اليسار وكان على مائدتك خمسة ألوان وكان جارك جَوْعان فلم تعطه شيئاً لم تكن من الشاكرين، ولو قلت بلسانك ألف مرة «الحمدُ لله». وتشكر الله بقلبك فتكون راضياً عنه قانعاً بما قسم لك، لا تسخط ولا تستقلّ النعم ولا تحسد أحداً على ما أعطاه الله.

فمن جمع شكر القلب بالرضا عن الله، وشكر العمل بأن يفيض على المحرومين من فضل النعم، وشكر اللسان بأن يكثر من حمد الله، كان من الشاكرين حقاً.

الصبر

والمسلم بين نعمتين، إن أصابه خير فشكر كان له أجر، وإن مَسَّه ضر فصبر كان له أجر، فلا يعدل أجر الغني الشاكر أو يزيد عليه إلا أجر الفقير الصابر: ﴿ولَنَجزِيَنّ الذين صبروا أجرَهم بأحسنِ ما كانوا يعملون﴾

وهذه الحياة الدنيا ليست دار نعيم وليست تخلو من المكدّرات، من انحراف الصحة أو ضياع المال أو فَقْد الحبيب أو غدر الصديق أو ذهاب الأمن، هذه طبيعتها التي لا تتغير.

جُبِلَتْ على كدَر وأنت تريدها
صَفْواً مـن الأقـذارِ والأكدار
ومكلِّفُ الأيـام ضدَّ طبـاعها
متطلِّبٌ في المـاء جَذوةَ نـار

قال تعالى: ﴿ولَنَبلوُنَّكم بشيء من الخوف والجوع ونَقْص من الأموال والأنفُس والثّمرات، وبشِّر الصابرين﴾ لأنهم مع الأيام ينسون المصاب ويجدون الثواب، وغيرهم يحمل الألم ولا ينال شيئاً. مصاعب ومصائب لا بد منها، فإما أن تداويها بالصبر فتنال الأجر، وإما أن تثور عليها فتزيد ثورتك من عذابك ولا تدفع عنك ما بك. هذا هو النوع الأول من الصبر، الصبر على المصائب.

والنوع الثاني هو الصبر عن المعاصي، صبر الشاب الذي يرى العورات البادية ونفسه تميل إليها فيغض بصره من خوف الله عنها، ويعرف سبيل اللذات المحرمة فيمنع نفسه عن سلوكها على رغبته فيها. صبر الموظف الذي تُعرض عليه الرشوة تعدل راتبه عن ستة أشهر، فيكفّ يده عنها على حاجته إليها. صبر التلميذ في الامتحان إذ يتمكن من سرقة الجواب من الكتاب، فلا يقدم عليها وإن كان نجاحه مَنوطاً بها. المعاصي لذيذة للنفس، فإن امتنع عنها مع تمكنه منها كان مع الصابرين.

والثالث: الصبر على الطاعات. على القيام لصلاة الفجر وترك لذة المنام ودفء الفراش في الغداة الباردة، على احتمال الجوع والعطش في شهر الصيام في الصيف الملتهب، على إكراه النفس المُحِبّة للمال على إخراج الزكاة وبذل الصدقة. الصبر على التمسك بالدين في هذا الزمان الفاسد الذي عاد فيه الدين غريباً

كما بدأ غريباً، وصار القابض على دينه كالقابض على الجمر، وصار المتدين فيه معرَّضاً لسخرية الناس وإيذاء الحكام ونقص المرتَّب والإخراج من الديار، فمن احتمل ذلك وحده قاصداً ثوابه كان من ﴿الذين صبروا وعلى ربّهم يتوكلون، أولئك يَؤْتَون أجرَهم مرتَين بما صبروا﴾، ﴿وما يُلقّاها إلا الذين صبروا، وما يُلَقّاها إلا ذو حظ عظيم﴾.

الانقياد لحكم الشرع

قلنا بأن الإيمان عمل من أعمال القلب، سِرٌّ من الأسرار التي لا يعلم بها إلا الله، وإنما للناس الظواهر، لذلك ميّزنا المؤمن من غير المؤمن بمقاله وأعماله. فالإسلام هو مظهر الإيمان، والإسلام في اللغة هو التسليم: «أسلم» و«سلّم» بمعنى واحد. فالولد يستسلم لأبيه ثقةً به، والمحب يستسلم لمحبوبه ميلاً إليه، والمهزوم يستسلم لمن هزمه خوفاً منه. أما المؤمن فيستسلم لحكم ربه استسلاماً مطلقاً، يطيع له كل أمر ولو لم يعرف الحكمة منه ووجه المنفعة فيه، ويدع كل ما ينهى عنه ولو لم يدرك سر نهيه عنه. وهذا الاستسلام له جانبان: جانب عملي هو الامتثال بالقول والعمل، وسيأتي الكلام عنه إن شاء الله في الجزء المخصص للإسلام من هذا الكتاب[1]، وجانب نفسي هو

---

(١) الذي لم يصدر قط. وهذا المعنى شائع متكرر في كتابات علي الطنطاوي وأحاديثه؛ انظر -على سبيل المثال- مقالة «مشكلة» في كتاب «فصول في الدعوة والإصلاح» ومقالة «من هو المسلم؟» في كتاب «فصول إسلامية» (مجاهد).

الذي نبحث عنه الآن ونحن نتكلم عن الإيمان.

هذا الجانب هو الرضا القلبي بحكم الشرع واطمئنان النفس إليه، وأن نعمل الواجب أو نترك الحرام عن اقتناع، ليس في قلوبنا تبرّم به ولا سخط عليه، قال تعالى: ﴿فلا وربك لا يؤمنون حتى يُحَكّموكَ فيما شَجَر بينهم﴾، وهذا هو الجانب العملي. ﴿ثم لا يجدوا في أنفسهم حرَجاً مما قضيتَ ويُسَلّموا تسليماً﴾، وهذا هو الجانب النفسي.

فلا يكفي مجرد الاحتكام إلى الرسول إذا لم يكن في قلوبنا اعتقاد صحة هذا الحكم والرضا به والاطمئنان إليه: ﴿إنّما كان قولَ المؤمنين إذا دُعوا إلى الله ورسوله لِيَحكمَ بينهم أن يقولوا سمعنا وأطعنا، وأولئك هم المُفلحون﴾ أي يقولوها بألسنتهم مقرّين معترفين بقلوبهم.

ومن الناس من يسأل دائماً عن حكمة الشرع في كل أمر ونهي كأنهم لا يطيعون إلا إذا عرفوا الحكمة. وللشرع حكمة لا شك فيها، ولكنها قد تبدو لنا بالنص أو بالاستنباط وقد تخفى علينا، أفنعصي ربنا إذا لم تظهر حكمة شرعه لنا؟

تصور أنك كلما أمرت ولدك بأمر لم ينفذه حتى تبين لي مقصدك منه وحكمتك فيه، ولو كان الموقف ضيقاً لا يتسع للبيان ولو كان في الأمر سرّ لا يجوز معه الإعلان! ألا تعد هذا الولد عاصياً لك؟ أوَلا تنتظر منه أن يطيعك على أي حال لأنه ولدك ولأنك أبوه؟ ولو أن ضابطاً تلقى أمر القيادة فأبى أن ينفذه حتى تشرح له خطتها التي أوحت به وغايتها من إصداره، ألا يستحق العقاب؟

إن حق الله على العبد لا يقاس بحق الوالد على الولد ولا بحق القائد على الجند، ومن حقه تعالى علينا أن نطيع في المنشط والمكره والموافق لنا والمخالف لرغبتنا، لا أن نتمحّل الأدلة ونتعسّف النظر لنجد قولاً في الفقه يرضي أهواءنا، ولا أن نجعل من الحضارة الأجنبية وأعرافها التي أخذنا بها حجة على الشرع، فنؤوِّل ما لا يؤوَّل من النصوص ونتنكب الطريق المستقيم في البحث لنقول أن ديننا لا ينافي هذه الأعراف، ثم إذا تبدلت أعراف(١) المجتمع أو تحول مورد هذه الحضارة الأجنبية من الغرب إلى الشرق بدّلنا بحثنا وجئنا بتأويل جديد.

لا، بل الاحتكام إلى الشرع والعمل بحكمه والرضا به والاطمئنان إليه، هذا هو شأن المؤمنين المصدِّقين حقاً بصحة هذا الدين.

شدة ولين

ومن مظاهر الإيمان ودلائله أن يكون الحب في الله والبغض في الله، نحب المطيع التقي ولو لم يكن لنا منه نفع ونبغض الكافر الفاجر ولو لم ينلنا منه ضرر، بل إننا نبغضه ونهجره ولو كان

(١) من هذا التبدل أن نقول يوماً «ديمقراطية الإسلام» ونقول في يوم آخر «اشتراكية الإسلام»، وبذلك ندور كلما دارت الأيام ونساير هوى الحكام. والديمقراطية عندهم هي حكم الشعب. ولو أجمع الشعب كله، بل شعوب الأرض مجتمعة، على إحلال حرام أو إلغاء واجب لم يكن لهذا الإجماع وزن، بل يبقى الحرام حراماً والواجب واجباً. فالديمقراطية مقبولة على ألّا تجاوز حكم الله ولا تتعدى حدوده.

مفيداً لنا ولو كانت تربطنا به أوثق الروابط، ذلك لأن أخوّة الدين أقوى عند المؤمن من أخوّة الدم وصلة العقيدة أوثق من صلة النسب. ولقد بيّن الله لنوح أن ابنه الكافر ليس من أهله لأنه عمل غير صالح، ونفى أن تكون بين المؤمنين وبين المعاندين الذين يحاربون الدين مودّة وتعايش سلميّ مهما كانت قوة الصِّلات بين الفريقين، فقال: ﴿لا تجدُ قوماً يؤمنون بالله واليوم الآخِرِ يُوادّون مَن حادَّ اللهَ ورسوله﴾. لا يُكرههم على الإسلام إكراهاً، بل يمنعهم أن يعترضوا سبيله ويحاربوا دعوته، فإن اطمأنوا لدعوتنا ودخلوا في ديننا صاروا منا، لهم ما لنا وعليهم ما علينا، وإن سالموا دعوتنا سالمناهم وحفظنا لهم حقوقهم وإن بقُوا على دينهم.

فالمؤمن يحب إذا أحب للدين ويبغض إذا أبغض للدين، يذلّ لأخيه ولا يرى ذلك ذلّاً ويؤثره على نفسه بالشيء ولو كانت به حاجة إليه، وإذا أبغض ظهر منه الغضب لله والشدة في الدفاع عن دينه والبأس في قتال أعدائه. فهو يجمع بين اللين والشدة، والرقة والغلظة على أعداء الدين أنصار الشيطان: ﴿محمدٌ رسول الله والذين معه أشدّاءُ على الكفار رُحَماءُ بينهم﴾، ﴿أذلّةٍ على المؤمنين أعِزَّةٍ على الكافرين، يجاهدون في سبيل الله ولا يخافون لومةَ لائم﴾.

هذه حال المؤمنين لما كانوا من المجاهدين، فلما تركنا الجهاد وخالفنا الشرع وصارت شدّتنا على أنفسنا ولينُنا أمام أعدائنا سلّط الله علينا بذنوبنا من لا يخافه ولا يرحمنا، فملك بلادنا وتحكّم فينا.

التوبة والاستغفار

خلق الله الإنسان وغرز في نفسه حب العاجلة وطول الأمل والرغبة في جمع المال، والشهوة لمقاربة النساء والغضب والميل إلى البطش والانتقام، وسلّط عليه الشيطان يزيّن له الفواحش ويحبّب إليه المعاصي، ووضع فيه نفساً أمّارة بالسوء متشهِّية للحرام تعين عليه الشيطان، فكان من نتائج ذلك أنه يأتي المعاصي ويرتكب الذنوب، فماذا يصنع لينجو من عقاب المعصية وتبعات الذنب؟

إن الله -من رحمته به- فتح له باب التوبة؛ قال له: إنك تستطيع أن تمحو من صحيفتك كل ذنب عملته فكأنه ما كان، بل ربما سجّلتُ لك حسنةً مكان السيئة التي كانت عليك، كدفتر التاجر يكون مقيَّداً فيه أن له عليك مئة دينار، فلا يكتفي بأن يسامحك بها ويمحوها لك، بل ينقل قيدها من صفحة الدَّين الذي عليك إلى صفحة الدَّين الذي لك. قال تعالى: ﴿إلا مَن تابَ وعَمِلَ صالحاً، فأولئك يُبدّل الله سيّئاتهم حسنات، وكان الله غفوراً رحيماً﴾.

وباب التوبة مفتوح ما دام المرء صحيحاً معافى، فإنْ تاب التوبة الصادقة قُبلت توبته، ولا يُغلق إلا ساعة الاحتضار، الساعة التي تصير فيها الروح في الحلقوم، الساعة التي يواجه فيها الإنسان الحقيقة ويرى عياناً ما جاءه به الرسول خبراً، فتكون توبته حينئذ من قبيل تحصيل الحاصل، لأن التوبة هي الرجوع الاختياري إلى الله وهو قد أُرجع كرهاً وجبراً، فلم يعد ينفعه الإقرار بعد أن فقد الاختيار، قال تعالى: ﴿إنّما التوبةُ على الله للذين يعملون السوء

بجَهالة ثم يتوبون من قريب، فأولئك يتوب الله عليهم وكان الله عليماً حكيماً. وليست التوبةُ للذين يَعملون السيئات حتى إذا حضرَ أحدَهُمُ الموتُ قال إنّي تُبتُ الآن ولا الذين يموتون وهم كفّار﴾.

وأول شروط التوبة الانقطاع عن الإساءة والعزم على أن لا يعود إليها. فلو كنت ماشياً في الطريق ففتح رجل نافذته وألقى عليك ماء وسِخاً، فلما لُمتَه وشتمته اعتذر إليك وهو مستمر بصبّ الماء عليك، أو امتنع عنه ولكنه أوعدك بالعودة إلى مثله غداً، فهل تقبل اعتذاره؟

إن للتوبة روحاً وجسداً، فروحها استشعار قبح المعصية وجسدها الامتناع عنها. كم يمشي على طريق فيرى لوحة تدله على أنه غير طريقه المقصود. إنه يشعر بخطئه، وهذا الشعور هو الأصل، إذ لولا معرفة الخطأ ما كانت الهداية إلى الصواب، ولكنه إذا اقتصر على المعرفة ولم يعمل بمقتضاها واستمر ماشياً في الطريق المنحرف لم ينفعه علمه بانحرافه، بل إنه يكون أكبر ذنباً وأعظم تبعة، لأن الذي ينحرف وهو لا يعرف له بعض العذر، ولكن الذي يعرف الطريق وينحرف عنه عمداً لا عذر له[1].

والشرط الثاني: أن يجعل الإحسانَ بدل الإساءة والإصلاحَ مكان الإفساد. أي أن يحقق التوبة بتبديل العمل وتعديل السلوك: ﴿كتب ربكم على نفسه الرحمةَ أنه من عمل منكم سوءاً بجَهالة ثم تاب من بعده وأصلح فأنه غفورٌ رحيم﴾، ﴿فمَن تاب من بعد

---

(١) الأول ضالّ ولكن الثاني مغضوب عليه، واليهود من المغضوب عليهم لأنهم عرفوا الحق وخالفوه: ﴿فلما جاءهم ما عَرَفوا كفروا به﴾.

ظلمه وأصلح فإنّ الله يتوب عليه﴾، ﴿إلا الذين تابوا من بعد ذلك وأصلحوا﴾، ﴿إلا الذين تابوا وأصلحوا وبَيّنوا، فأولئك أتوبُ عليهم﴾.

ومن الإصلاح أن يكون تركك الذنب حقيقياً وأن تعزم عزماً صادقاً على ألّا تعود إليه، فإن عقدت على ذلك العزم الصادق ثم غلبتك النفس أو حملتك الظروف فعُدتَ إليه ثم تُبتَ قُبلت توبتك، ولو تكررت العودة وتعددت التوبة. أما إن خالط عزمَك تردّد من الأصل وقلت في نفسك "إذا اشتدت رغبتي رجعت ثم تبت" لا تكون توبتك صادقة ولا مقبولة.

هذا في التوبة من حقوق الله، إنه يكفي فيها أن تترك الذنب نادماً على فعله عازماً عزم الصدق على عدم العودة إليه. أما حقوق الناس: إن كنتَ ظلمتَ أحداً، أو أكلتَ ماله، أو آذيته في جسده أو في عرضه، أو شهدتَ عليه زوراً، أو اغتبته أو وَشَيْتَ به، أو أشعتَ عنه قالَةَ السوء... فلا بد في ذلك وأمثاله من أن تؤدي إليه حقه، أو ينزل لك عنه ويسامحك به، أو يرحمك الله فيرضّيه عنك، وإلا لم تُقبل توبتك وأخذ المظلوم يوم القيامة من حسناتك أو حمل عليك من سيئاته.

وباب التوبة مفتوح مهما كثرت الذنوب، فلا ييأس أحد من عفو الله فإن اليأس من عفو الله أكبر من كل ذنب: ﴿قل يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله، إن الله يغفر الذنوبَ جميعاً﴾.

فالتوبة هي تركٌ للسيّئ ورجوعٌ إلى الحسن، أما الاستغفار

فهو طلب الغفران من الله، وقد أمر الشرع به وحثّ عليه: ﴿هو أنشأكم من الأرض واستعمركم فيها، فاستغفروه ثم توبوا إليه﴾، ﴿واستغفروا ربكم ثم توبوا إليه إنّ ربي رحيمٌ وَدود﴾، ﴿ويا قومِ استغفروا ربَّكم ثم توبوا إليه﴾. وجاء مثل ذلك على لسان كل رسول، ينصح به قومه ويدلهم به على طريق العفو من الله والنجاة من عذابه.

والمذنبون على درجات: أما الذين ماتوا على كفرهم فلا أمل لهم في المغفرة: ﴿إنّ الله لا يغفر أن يُشرَكَ به﴾. والمشركون في الأصل أشد كفراً من أهل الكتاب ولكن الجميع في حكم هذه الآية سواء، فلا يقال لمن مات كافراً «رحمه الله» ولا «غفر الله له» ولا يقال له «المرحوم» أو «المغفور له فلان».

وأما العصاة من المسلمين الذين ماتوا بلا توبة فأمرهم إلى الله، إن شاء غفر لهم: ﴿ويغفرُ ما دون ذلك لمن يشاء﴾، وإن شاء عذبهم بالنار، لكنهم لا يخلدون فيها. ولا يستهن أحد بعذاب النار ولا يستخِفّه، فإن نار الدنيا (وهي نعمة) لا يطيق أحد احتمالها دقائق، فكيف نعرّض أنفسنا لعذاب جهنم دهوراً؟

وأما التائبون فيتوب الله عليهم بمنّه وكرمه. هذا الذي يتوب من بعد الذنب، أما الذي يتوب منه ويتنبه لنفسه ويدركه خوف ربه قبل إتمام الذنب ويتركه لله مع شدة الرغبة فيه وعظم الميل إليه فله أعظم الثواب، كمن يستزله الشيطان فيدفعه إلى الزنا، حتى إذا تمت له أسبابه وشرَع به أو همَّ فذكر الله أعرض عنه وشهوته متعلقة به ونفسه راغبة فيه. وأين مَن يقدر على ذلك إلا أن يمدّه الله بقوة منه؟ فلا يجرّبْ هذه التجربةَ أحدٌ فإنه يكون كمن يتناول

جراثيم المرض الخطير، إن نجا منه اكتسب مناعة تجعله أقوى ممّن لم يَدْنُ منه المرض، ولكن احتمال حصول المناعة من المرض واحد في المئة واحتمال الهلاك به تسعة وتسعون. هذا في مرض الجسد، أما الكفّ عن الذنب فإنه لا يُكسبه مناعة من العودة إليه.

فمن أراد السلامة من الشر فليبتعد عنه وليقطع أسبابه، وليسدّ الطريق إليه ويهجر من الناس من يرغّبه فيه ويدعوه إليه، فإن الصاحب ساحب والمرء على مذهب خليله، وقديماً قالوا: "قل لي من ترافق أقل لك من تكون". فلينتبه لذلك الناشئون ويطلبوا من الله العون.

* * *

الإيمان باليوم الآخِر

نحن والموت

نحن والموت على أصناف أربعة، صنف يهتف مع الشاعر الأحمق:

ما مضى فاتَ والمؤمَّلُ غيبٌ

ولك الساعةُ التي أنت فيها!

لا يفكر في ماضٍ ولا يعدّ لمقبل، يظن الأمس[1] قد فني والغد لا يأتي، يقول: "ما مضى فات"، ولا والله ما فات، ولكن قُيِّد علينا حَسَنُه وسيئه في كتاب لا يترك صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها. و"المؤمَّل غيب"، ولكنه غيب عن الحس حاضر في النفس موجود عند الله آتٍ لا شك فيه. وهذا الصنف شر الثلاثة، وهو الذي لا يذكر الموت ولا يفكر فيه.

وصنف يذكر الموت، ولكن كذكر الشاعر الفارسي عمر الخيام الذي فتن بباطله الناس، يقول: إذا كان الموت حقاً لا

(١) أمس إذا أتت دون تعريف تكون مبنية على الكسر، فإذا عُرّفت بأل أعربت.

شك فيه وكانت الحياة قصيرة لا بقاء لها فلنملأها بالعشق والهيام، وإذا كانت قد جُبلت على المكاره والآلام فلنهرب منها إلى كأس المُدام، فنمضي العمر في شعر وسكر وعهر.

وصنف يذكر الموت ولكن كذكر أبي العتاهية، ملأ بذكر الموت بيانه وشغل به لسانه، ولكنه لا يذكر إلا قليلاً ما بعد الموت. فكأنه يقول مع القائل: "رأيت الموت غاية كل حي"، والقائل الآخر: "إن تحت الرِّجام[1] نوماً طويلاً".

وأهل الحق الذين عرفوا أنه ليس غاية ولكنه البداية وما هو بنوم ولكنه يقظة من النوم: «الناس نيام فإذا ماتوا انتبهوا»، وعرفوا أن وراء الموت حياة أطول، حياة لا تكاد تنتهي، إما أن يكون فيها النعيم المقيم وإما أن يكون فيها العذاب الأليم. وهذا هو الصنف الرابع، صنف المؤمنين المهتدين.

الحياة الأخرى

هذه هي الحياة الحقيقية، من أصيب بقصر النظر لم يرها، ومن ابتُلي بضعف العقل لم يصدق الخبر عنها، ومن كان له بصر يرى وعقل يدرك رأى أن حياة الإنسان مراحل، فلقد كان يوماً منطوياً على نفسه مكوّماً في بطن أمه يعيش بين أحشائها، ولو كان يفكر يومئذ لظن أن هذه هي الحياة، فهو يتمسك بها ولا يخرج منها إلا مرغماً. ولو كان ينطق لحسب هذا الخروج موتاً ودفناً في

(١) جمع رُجمة، وهي الحجارة التي تُنصب على القبر أو هي القبر نفسه (مجاهد).

الأعماق، مع أنه ولادة وانتقال إلى عالم أرحب هو هذه الدنيا. والذي نراه نحن موتاً وخروجاً من هذه الدنيا هو في الحقيقة ولادة وانتقال إلى عالم أرحب، إلى عالم البرزخ، البرزخ بين الدنيا المادية الفانية والحياة الأخرى الباقية.

الاستعداد للموت

الإنسان مغروز فيه طول الأمل، فهو غريزة في نفسه، لذلك كان الموت أقرب شيء في حواسنا منا وأبعد شيء في أفكارنا عنا. نرى مواكب الأموات تمر بنا كل يوم ونحس أننا باقون، ونمشي في الجنائز ونحن نفكر في الدنيا أو نتحدث عنها، ونرى القبور تملأ رحاب الأرض ولا نفكر أننا سنكون يوماً من ساكنيها. أستغفر الله، بل تسكنها أجسادنا.

وما الأجساد؟ إن الرجل يتوسخ قميصه فيخلعه ويرميه، والطفل يولد فيدع مشيمته ويخرج منها، والرجل يموت فيفارق جسده ويتخلى عنه، وما الجسد إلا قميص يُلبس ويخلع، وما يوضع في التراب إلا الجسد.

الإنسان ينسى الموت، ولكن المؤمن يذكره دائماً ويكون أبداً على استعداد لاستقباله، يستعد بالتوبة والاستغفار ورد الحقوق. كلما أصبح وكلما أمسى حاسب نفسه، فشكر الله على ما وفقه إليه من خير واستغفره مما وقع منه من شر. يذكر الآخرة ويخاف يوماً تتقلب فيه الوجوه والأبصار، يخشى ما بعد الموت من العذاب ويرجو ما بعده من المكافأة، ويستعين على ذلك بالصبر والصلاة وفعل الخير ابتغاءَ رضا الله واحتساباً لما عنده.

ساعة الموت من أدلة الإيمان

تأمل قوله تعالى: ﴿فلولا إذا بلَغَت﴾ أي الروح ﴿الحُلْقوم﴾، وجاءت ساعة الموت التي لا مهرب منها، ﴿وأنتم حينئذ﴾ تحفّون بالمحتضر الحبيب إليكم العزيز عليكم ﴿تنظرون﴾، تظهرون العاطفة، تستنجدون الطب، تبذلون الجهد، تعانقونه وتحدبون عليه ﴿ونحن أقرب إليه منكم ولكن لا تُبصرون﴾ لأن حواسكم لا تدرك إلا عالم المادة، وقد أوشك بأن يدخل عالم ما وراءها ﴿فلولا إنْ كنتم غيرَ مَدينين﴾ كما تزعمون وغير خاضعين لرب الكون ومالكه وكان لكم شيء من الأمر ﴿تَرجعونها إن كنتم صادقين﴾ تردّون الروح إلى الجسد بعدما خرجت منه، تسخّرون لذلك عقولكم وعلومكم وأموالكم. فإن لم تستطيعوا فلِمَ لا تقرّون بأن لهذا الكون ربّاً مالكاً لكم هو أحياكم وهو يميتكم وهو بعد ذلك يحييكم؟

شبهة تافهة

قرأت لبعض الملحدين فصلاً يسألون فيه ساخرين، يقولون: إذا كان يموت في لحظة واحدة ميت في أميركا وميت في الصين فكيف يقبض مَلَك الموت روحَيهما؟

الجواب: أولاً: إن مثل المَلَك بالنسبة لأرضنا كمثل أحدنا لو انحنى على قِرْبة فيها آلاف النمل أو كأس فيها ملايين الجراثيم، بل إن الملك من الملائكة أكبر من ذلك بالنسبة إلينا، وما كرتنا الأرضية في كفّه إلا كحبة قمح في كف واحد من البشر، هذه واحدة.

والثانية: إن لمَلَك الموت أعواناً في قبض الروح، قال تعالى: ﴿حتى إذا جاء أحدَكم الموتُ تَوَفَّته رُسُلُنا وهم لا يُفَرّطون﴾.

يوم القيامة

الإيمان باليوم الآخر (يوم القيامة) هو الركن الثاني من أركان العقائد، ولا يكادُ يُذكَر الإيمان بالله في القرآن حتى يُقرَن به الإيمان باليوم الآخر.

والمؤمن يذكره دائماً، فيكثر من الخير ابتغاء ثوابه ويبتعد عن الشر -ما استطاع- خوف عذابه. إذا عرض له محرَّم لذيذ ذكر ألم الآخرة على ارتكابه فصرف نفسه عنه وزهّدها في لذته، وإنْ واجه واجباً صعباً ذكر ثواب الآخرة على فعله فحمل نفسه عليه ورغّبها فيه: تتجافى جنوبهم عن المضاجع، ينفقون في السراء والضراء، يؤثرون على أنفسهم بالخير ولو كانوا أحوج إليه، يفكّرون في شدة عقاب الله فتَوْجَل من سماع اسمه قلوبُهم، ثم يتذكرون رحمته فتلين قلوبهم به وتستريح إلى ذكره.

موعد الساعة

لقد صرح القرآن بأنه لا يعلم موعدها أحد من الخلق، لا يعلمه إلا الله وحده: ﴿يسألونك عن الساعة، قل إنما علمُها عند ربّي لا يُجَلّيها لوقتها إلا هو﴾، وأنها لا تأتي إلا بغتةً، وأن أمرها ﴿كلمح البصر أو هو أقرب﴾.

ولكن ورد في القرآن أنه يسبقها أحداث غريبة تقع في هذا الكون، منها: أنه يخرج من الأرض دابة تكلم الناس، وهذا خبر

حق من الغيب الذي لا يُدرك بالعقل البشري ولا نعلم عنه إلا ما أعلمنا الله به، والله لم يبين لنا ما هي هذه الدابة وما صفتها، فوجب الإيمان بها وترك الكلام فيها بلا دليل سمعي ثابت.

ومن ذلك: دكّ سد يأجوج ومأجوج وخروجهم منه. والله لم يبين من هم يأجوج ومأجوج وأيّ الأمم هم وما بلدهم وأين يقع السد، فإن استطعنا تحديد ذلك بالبحث والاستقراء ووصلنا إلى نتيجة لا تخالف خبر القرآن قلنا بها، وإلا صدقنا بخبر القرآن مجملاً ووقفنا عند حدوده، قال تعالى: ﴿واقتربَ الوعدُ الحقُّ فإذا هي شاخصةٌ أبصارُ الذين كفروا﴾.

وأمور أخرى ورد بها الحديث الصحيح[١] ولم يصرح بذكرها القرآن، منها أنه يُرفع العلم ويظهر الجهل، ويُشرب الخمر ويظهر الزنا، ويقلّ الرجال ويكثر النساء، وتندر الأمانة وتضطرب موازين المجتمع فيرتفع المنخفض وينزل العالي. ثم يكون ظهور الدجال ونزول عيسى ناصراً لشريعة خاتم الرسل محمد صلى الله عليه وعلى إخوانه المرسلين.

ابتداء الساعة

الذي يظهر من آيات الساعة في القرآن الكريم أن ابتداءها

---

(١) الأحاديث التي يرويها واحدٌ عن واحد لا نستطيع أن نجزم بأن الرسول قد نطق بها كما نجزم بصحة نص القرآن، لذلك نحكم بكفر من يكذّب شيئاً من القرآن ولا نحكم بكفر من ينكر شيئاً من هذه الأحاديث.

يكون بزلزال هائل لا يشبه ما عرف الناس من الزلازل[1]، يقع -والله أعلم- والحياة البشرية لا تزال مستمرة على الأرض والناس لا يزالون أحياء في الدنيا، فيصاب المجتمع البشري بفزع عام ورعب شامل، يبلغ من شدته أن الأم تذهل عن رضيعها (على ما رُكّب في طبعها من الحنوّ عليه والمَيْل إليه) والحوامل يسقطن -من الرعب- ما في بطونهن، والناس يكادون يفقدون عقولهم الواعية فيغدون كأنهم سكارى ﴿وما هم بسُكارَى ولكنّ عذاب الله شديد﴾.

ومما يرجّح القول بأن هذا الزلزال قبل القيامة قوله تعالى: ﴿إذا زُلزِلَت الأرضُ زلزالها، وأخرجت الأرضُ أثقالها، وقال الإنسانُ ما لها؟﴾ فالإنسان باقٍ في الأرض يشهد الزلزال ويسأل عن أمره ويبحث أسبابه[2].

حوادث فلكية

يوم القيامة وما يكون فيه وما يأتي بعده هو -كما تقدم القول- من الأمور الغيبية، ليس للحواس إحاطة به كما تحيط بالمخلوقات المادية، ولا للعقل البشري حكم عليه كما يحكم على الحوادث

(١) في الفصول الأولى من الكتاب جعلت الكلام عاماً للمسلم وغير المسلم واعتمدت فيه على أدلّة العقل أكثرَ من أدلّة النقل، فلما وصلت إلى شعب الإيمان وصار الكلام موجهاً على الغالب للمؤمن جعلت الاعتماد على الأدلة السمعية وأكثرت الاستشهاد بالآيات.

(٢) وقال قوم في ذلك: بل هو البعث، لقوله تعالى: ﴿وأخرجت الأرض أثقالها﴾. والقولان محتمَلان، ولا أجزم بل أقول: الله أعلم.

الدنيوية، وعمله كله في فهم النصوص وإدراك معناها.

وفي القرآن نصوص صريحة تدل على أن كثيراً من السنن الكونية (التي سمّيناها اصطلاحاً «قوانين الطبيعة») تطرأ عليها تبديلات وتعديلات، فكأن استمرارها مَنوط باستمرار هذه الحياة الدنيا، فإن انتهت مدتها انتهى أمد هذه القوانين. وكأن العالم الذي تشاهده بأرضه وكواكبه -على ما فيه من الإتقان العجيب- بناء مؤقت أُقيم لغرض محدود ولمدة محدودة.

من هذه الحوادث أن الجبال تصيبها رجفة أرضية هائلة تفتّت صخورها حتى تصير كالقطن المنفوش، ويغدو الجبل العظيم تلّاً متداعياً وكثيباً مهيلاً، ثم تنسف نسفاً فتسير كما تسير كثبان رملية، ثم تغدو سراباً وتصير الأرض كلها قاعاً مستوياً.

كل هذا خبّر به القرآن، وخبّر أن البحار تنفجر مياهها ثم تتبخر، والكواكب ينثر عقدها ويتبدل مسيرها، والقمر يُجمع مع الشمس، والسماء تُكشط وتنشق وتنفطر، ثم تُطوى كما تطوى الرسائل في السجل الكبير، ثم تكون النتيجة أن الأرض تُبدَّل فكأنها غير الأرض، وأن السماء تبدّل فكأنها غير السماء. وكل هذا خبر به القرآن.

النفخ في الصور

لا نعرف ما هو الصور على حقيقته ولا كيفية النفخ فيه، وكل ما يقال في وصفه وتفصيل أمره ما لم يكن مستنداً إلى دليل سمعي صحيح لا يعوَّل عليه. والذي جاء في القرآن أنه يُنفخ فيه فيفزع من في السماوات ومن في الأرض، ويُنفخ فيه فيُصعَق من

في السماوات ومن في الأرض. والظاهر من القول أنهما نفختان، وربما كانت (وهذا أرجح) نفخة الفزع هي نفخة الصعق، فلا يبقى بعد ذلك من الأحياء أحدٌ إلا مات ﴿إلا من شاء الله﴾، وتمضي مدةٌ الله أعلم بمداها، لم يخبرنا الله عنها، ثم يُنفخ نفخة البعث فتعود الحياة لكل ميت ويُبعثون من قبورهم ﴿ينظرون﴾ ﴿إلى ربهم ينسلون﴾.

البعث والحشر

يُبعث كل ميت على الحالة النفسية التي مات عليها، يظن أنه لم يمر عليه إلا ساعة أو ساعات، كالذي تصدمه سيارة وهو يشتري أو يبيع أو يتحدث، فيغمى عليه ويغيب عن وعيه ثلاثة أيام، فإذا صحا عاد يُتمّ حديثه أو يكمل بيعه وشراءه، لا يدري أنها مرت عليه أيام ثلاثة. وكذلك يكون الناس يوم البعث، لذلك علّمنا الدين أن نسأل الله حسن الخاتمة.

وقد أقام الله للناس أمثلة على ذلك في الدنيا، منها الذي مرّ على القرية الخالية الخاوية فقال: ﴿أنَّى يُحيي هذه اللهُ بعدَ موتها؟ فأماته الله مئة عام ثم بعثه، قال كم لبثتَ؟ قال لبثتُ يوماً أو بعض يوم، قال بل لبِثْتَ مئة عام﴾. وأهل الكهف الذين ناموا ثلاثمئة وتسع سنين، ثم قاموا يظنون أنهم ناموا ساعات، وبَعثوا يشترون بنقودهم التي أُلغي التعامل بها وهم لا يدرون.

هذه حال الناس عند البعث، يظن كل منهم أنه نام قليلاً واستيقظ، يتناقشون فيما بينهم: ﴿يُقسِمُ المجرمون ما لبثوا غيرَ ساعة﴾، ﴿وقال الذين أوتوا العلمَ والإيمان لقد لبثتم في كتاب

الله إلى يوم البعث، فهذا يومُ البعث ولكنكم كنتم لا تعلمون﴾.

يظنون أنهم لا يزالون في الدنيا، ولكن هول الموقف يقطع كل رابطة بينهم: ﴿فلا أنسابَ بينهم يومئذ﴾. يرى المرء صديقه الحميم فلا يسأل عنه ولا يهتم به، لا يهتم أحد إلا بنفسه، يهرب من أخيه وأمه وأبيه ومن زوجته وبنيه، بل إنه يضحّي بهم ويقدّمهم فدية له لو كان يُقبل منه الفداء.

ويُتركون أمداً الله أعلم بمدته يموج بعضهم في بعض، ثم يُجمعون فيُساقون إلى الحشر، يُساقون جميعاً. البشر كلهم، من آدم إلى آخر واحد من ذريته، من مات منهم على فراشه، ومن غرق في البحر، ومن أكله السبع، ومن سقط من الطيارة، ومن أُحرق بالنار وذُري رمادُه في الهواء، يعيدهم الذي أوجدهم من العدم أول مرة ويجمعهم جميعاً، ويساقون إلى أرض المحشر، هم والجن والشياطين والوحوش: ﴿مُهطعين إلى الدَّاعِ يقول الكافرون هذا يومٌ عَسِر﴾.

ثم يأمر ربنا بجهنم فتبرز للناس من بعيد، ويقول لهم: ﴿ألم أعهَدْ إليكم يا بنى آدم أن لا تعبدوا الشيطان، إنه لكم عدو مُبين، وأن اعبدُوني هذا صراطٌ مستقيم، ولقد أضَلّ منكم جِبلّاً كثيراً، أفلم تكونوا تعقلون؟ هذه جهنّمُ التي كنتم توعَدون﴾. ويأمر ربنا فيُفرَز المجرمون ويمتازون فيُعرَفون، فيتمنى كل منهم أنه لم يكن بشراً ويقول: ﴿يا ليتَني كنتُ تراباً﴾.

ثم يجمع الله الكافرين في جهنم مع الذين كانوا يعبدونهم من دون الله ويظنونهم آلهة من الجن والشياطين، وما اخترعوا

من أسماء ما لها حقائق وما أنزل الله بها من سلطان، زعموها آلهة كما فعل اليونان بما سمَّوه زيوس وأفروديت، والرومان: جوبيتر وفينوس، والفرس: هرمز وأهرمان، والمصريون: حابي، والفينيقيون: بعل، واللات والعزّى عند العرب... زعموهم شركاء لله، فيقول لهم: ﴿نادوا شركائيَ الذين زعمتم، فدعَوهم فلم يستجيبوا لهم﴾، فقال لهم ربنا: ﴿ما لكم لا تَناصَرون؟﴾.

وينظر الضعفاء إلى المستكبرين الذين جعلوا أنفسهم في الدنيا زعماء فقادوا قومهم إلى الشرك وإلى الكفر، فاستنصروهم فقالوا: ﴿إنّا كنا لكم تبَعَاً فهل أنتم مُغنونَ عنّا من عذاب الله من شيء﴾ فأجابوهم بالبراءة منهم وأقروا بعجزهم عن أن يُغنوا عنهم ولا عن أنفسهم شيئاً، ووقف الجميع خاضعين خانعين، قد ذلوا جميعاً أمام رب العالمين، وذهبت الألوهيات المزعومة ومُحيت الزعامات الباطلة المكذوبة، وانفصمت عُرى الحلف الشيطاني بين الكفار وما كانوا يعبدون من مخلوقات، وتبرأ كل معبود بالباطل ممن كان يعبده.

حتى الشيطان يعترف لمن تبعه بكذبه فيقول: ﴿لمّا قُضِيَ الأمرُ إنّ الله وعدكم وعد الحق ووعدتكم فأخلفتُكم﴾. ويتملص من التبعة ويلقيها كلها عليهم، مقرّاً بضعفه وعجزه في الدنيا وأنه لم يكن يملك إلا الوسوسة والتضليل، ما كان له من حول ولا طول ولا كان يقدر على نفع ولا ضرّ ويقول: ﴿وما كان لي عليكم من سلطان إلا أن دعوتكم فاستجبتُم لي[1] فلا تلوموني ولوموا

---

(١) وفي هذا دليل على بطلان الدجالين الذين يزعمون أنهم يستخدمون=

أنفسكم﴾، ﴿إنّ كيدَ الشيطان كان ضعيفاً﴾.

الحساب

ولا بد من الوقوف للحساب، فيقام ميزان العدل المطلق الذي لا يضيع مثقال حبة من خردل ولا ذرة من غبار، ولا واحدة من الكهارب (الإلكترونات) التي تسبح في فضاء الذرة ولا أصغر من ذلك، تُحصى على المرء أعماله كلها وتُقدَّر ظروفه كلها، وتبرز نياته الخيّرة وإخلاصه القلبي فتكون ثقلاً له في جانب الحسنات من الميزان، وما كان في قلبه من نفاق أو رياء فيكون ثقلاً عليه في جانب السيئات من الميزان[١].

محاكمة عادلة، لا ينفع فيها الإنسانَ إلا عملُه الذي قدّمه وعفوُ ربه الذي يرجوه ورحمته التي يؤمّلها، لا يسعفه ما كان له من مال إلا ما أنفق منه لله وفي سبيل الله، ولا يعينه ما كان له من جاه إلا إن استعمله في طاعة الله. ولا يستطيع أحد أن ينفع أحداً أبداً، ولا تملك نفس لنفس شيئاً، ولا يجد أحدهم شفيعاً يشفع له إلا من بعد إذن ربه.

وشفاعة الآخرة ليست كشفاعة الدنيا، فالشفيع في الدنيا يدخل على الحاكم يدلّ عليه بمودته له أو جاهه عنده، يلزمه الشفاعة ولو كان في قرارة نفسه لا يريدها، فيحابي بها موظفاً

= الجن والشياطين فيضرّون بهم من يريدون وينفعون من يشاؤون، وأنهم يستخرجونهم من أجسام المصابين بداء الصرع.

(١) كل ما قالوا في وصف الميزان وشكله لا دليل عليه.

أو يبرئ بها متهماً. أما الشفاعة في الآخرة فتكون عندما يريد ربنا برحمته العفو عن أحد ويريد بكرمه تشريف أحد، يجعله سبباً ظاهراً لهذا العفو فيأذن له بالشفاعة له، فيشفع بإذنه وأمره.

الشهود والبينات

محاكم الدنيا التي يتولاها حكام من العباد لها عدالة بشرية محدودة ووسائل للإثبات ظاهرة معدودة، ولكن محاكمات الآخرة قاضيها رب الأرباب وعدالتها مطلقة لا حدّ لها، وبيّناتها شهادات الأنبياء والملائكة الذين كانوا يحصون الأعمال ويدوّنون الحسنات والسيئات، والصحف التي دُوّنت فيها هذه الإحصاءات، واعترافات المذنبين وشهادات الأعضاء.

شهادة الرسل

إذا كان يوم الحساب أُحضر النبيون كما قال تعالى: ﴿ووُضِع الكتابُ وجيءَ بالنبيّين﴾. وكانت محاكمة كل أمة وفق شريعتها بحضور نبيها: ﴿وترى كلَّ أمّة جاثية، كلّ أمة تُدعَى إلى كتابها﴾، ﴿فكيف إذا جئنا من كل أمّةٍ بشهيدٍ وجئنا بك على هؤلاء شهيداً﴾.

الكتب والصحف

هذه الصحف التي تسجَّل فيها أعمالنا كلها في الدنيا تكون مطوية مَخفيّة، سراً لا يدري به الخلق، فإن تاب العبد من ذنوبه المدوَّنة فيها التوبةَ الصادقة مُحيت منها، وإلا بقيت فيها، فإذا حل يوم الحساب نُشرت وأُعلنت، كنتائج الامتحانات تكون سراً عند الفاحصين فلا يعلم برسوب الراسب سواهم، فإذا جاء وقت

إعلانها عرف بذلك الناس وافتضح الراسب في أهله وبين إخوانه. ولكن الفضيحة هنا على رؤوس الخلائق جميعاً، وهي الفضيحة الكبرى، والراسب هنا يسقط في جهنم ويخسر -إن كان كافراً- سعادة الأبد ويلقى العذاب الدائم.

تُنشر الصحف وتوزَّع، فيَلقى كل إنسان كتابه منشوراً ويقال له: ﴿اقرأ كتابَكَ كفى بنفسك اليومَ عليك حَسيباً﴾. فمَن كانت حسناته التي دوَّنها ملَك اليمين أكثر ناوله كتابه بيمينه بشارةً له بأنه سوف ﴿يحاسَبُ حساباً يسيراً﴾، فإذا رأى ما فيه فرح واستبشر، كما يفرح التلميذ الذي يأخذ نتيجة الامتحان فيرى أنه ناجح ويحب أن يطلع على نجاحه الإخوان والأقران، يقول: ﴿هاؤُمُ اقرؤوه كتابِيَهْ. إني ظننتُ﴾ أي أيقنت في الدنيا ﴿أنيّ مُلاقٍ حسابِيَهْ﴾. ومن كانت سيئاته التي دوَّنها ملك الشمال أكثر ناوله كتابه بشماله، فيبكي على نفسه ويوقن بهلاكه ويقول: ﴿يا ليتني لم أوتَ كتابِيَهْ، ولم أدرِ ما حسابِيَهْ، يا ليتها كانت القاضية، ما أغنى عنّي ماليَهْ، هلك عني سُلطانيَهْ﴾، ﴿وأما من أوتِيَ كتابَهُ وراء ظهره فسوف يدعو ثُبوراً ويصلى سَعيراً﴾.

ويقرأ المجرمون كتبهم فيرون كل عمل عملوه مدوَّناً فيها ﴿أحصاه الله ونسوه﴾، فيقولون متعجبين: ﴿يا ويلتَنا! ما لهذا الكتاب لا يغادر صغيرةً ولا كبيرة إلا أحصاها؟ ووجدوا ما عملوا حاضراً﴾. وأيقنوا أنهم ظلموا أنفسهم: ﴿ولا يظلم ربُّك أحداً﴾، وندموا على ما فرطوا حين اتبعوا وسوسة الشيطان وهوى النفس الأمّارة بالسوء، فمقتوا لذلك أنفسهم، وإذا هم: ﴿يُنادَونَ: لَمَقتُ الله أكبرُ من مقتكم أنفسَكم إذ تُدعَون إلى الإيمان فتكفرون﴾.

الدفاع ثم الإقرار

ثم إذا وقف الكفار للحساب لجؤوا إلى الإنكار وحلفوا كذباً على براءتهم، يظنون أنهم أمام حاكم من البشر ممّن لهم الظواهر، ونسوا أنهم أمام رب العالمين الذي يطّلع على ما في النفوس ويعلم ما تُكِنّ الضمائر: ﴿فيحلفون له كما يحلِفوُن لكم﴾، يقولون: ﴿واللهِ ربِّنا ما كنّا مشركين﴾. فيمسك الله بألسنتهم ويمنعهم من أن ينطقوا، ويأمر أعضاءهم التي مارست الحرام فتقّر بما صنعت، وتنطق اليد معترفة بما اجترحت من حرام والرِّجل بما مشيت إليه من حرام: ﴿اليومَ نَختِمُ على أفواههم، وتكلّمنا أيديهم وتشهد أرجلهم بما كانوا يكسبون﴾.

فإذا أُخذوا بإقرارهم وثبت الذنب عليهم عاتبوا أعضاءهم: ﴿وقالوا لجلودهم: لِمَ شهدتم علينا؟ قالوا: أنطقنا اللهُ الذي أنطق كل شيء﴾. كانوا يختبئون في الدنيا ليأتوا الفواحش، مع أن المتحدث اليوم في الرائي (التلفزيون) يكون في غرفة لها أبواب مغلقة وجدران مطبقة، ثم يراه من ورائها الملايين ويُسمَع كلامه ويُشهد عليه، فإنْ كان هذا مما وُفِّق إليه البشر في الدنيا فكيف بعلم الله وحسابه في الآخرة؟ لذلك يؤنبهم ربهم ويقول لهم: ﴿وما كنتم تَستترون أن يشهدَ عليكم سمعكم ولا أبصاركم ولا جلودكم﴾. وكيف يفر المرء من جلده وبصره وسمعه وهو معه قائم به؟ ﴿ولكن ظننتم أنّ الله لا يعلم كثيراً مما تعملون، وذلكم ظنكمُ الذي ظننتم بربكم، أرداكُم فأصبحتُم من الخاسرين﴾.

وهذه عاقبة كل كافر بالله منكر ليوم الحساب لا يمتد بصره إلى أبعد من هذه الدنيا، يجحد الآخرة وهي آتية لا ريب فيها،

ويختفي بذنبه من الله والله مطّلعٌ عليه وأعضاؤه التي يمارس بها الذنوب ستشهد عليه، فكيف يتوارى من شاهد هو معه لا يستطيع أن يفارقه؟

اللهم عفوَك وغفرانك، واستر علينا في الآخرة كما سترت علينا في الدنيا وأنت الغفّار الستّار.

اعتراض تافه

وقد كان فريق من الناس يقولون لنا ساخرين ونحن صغار: "كيف تنطق اليد والرجل وما لهما لسان وما تقدران على بيان؟" فاختُرعت آلات التسجيل والسينما الناطقة، وصارت تُقام في مداخل المصارف آلات تصوير خفية تصوّر بالأشعة التي لا تُرى[١] تتحرك لمجرد اجتياز الشخص من أمامها، فإذا سرق السارق وأنكر عرضوا عليه الفلم، يعيد حركاته وسكناته وهمسه لنفسه وكلامه مع رفيقه... فكانت هذه المخترَعات حجّة على أولئك المتعالين الجهلاء، كأنها تقول لهم: ويحكم! الذي أنطق الشريط في الدنيا وسجّل الحركات والكلمات تعلن كلام السارق الذي أخفاه وتثبت عليه فعله الذي أنكره، الذي وَفَّق إلى هذا في الدنيا ألا يُنطق اليد والرِّجل في الآخرة؟

الحساب ونتائجه

الحساب أنواع، منه الحساب اليسير كحساب الذين أُعطوا كتابهم بأيمانهم، ومنه الحساب الشديد كحساب القرية التي

(١) الأشعة التي يسمونها «تحت الحمراء».

عتت عن أمر ربها. ويخرج الناس بنتيجة الحساب وهم أصناف: السابقون المقربون، وأصحاب الميمنة، وأصحاب المَشأمة.

﴿فأمّا إن كان من المقرَّبين فرَوْحٌ ورَيحانٌ وجنةُ نعيم. وأمّا إنْ كان من أصحاب اليمين فسلامٌ لك من أصحاب اليمين. وأمّا إن كان من المكذّبين الضالّين فنُزُلٌ من حميم وتَصْليةُ جحيم. إنّ هذا لَهُوَ حقُّ اليقين، فسبِّح باسم ربك العظيم﴾.

ورود جهنم

ويمرون جميعاً على صراط من فوق جهنم، يسرعون باجتيازه بمقدار قربهم من الله واستكثارهم من الحسنات، فينجو منها المتقون ويسقط فيها الظالمون. قال تعالى: ﴿وإنْ منكم إلا وارِدُها، كان على ربّك حتماً مَقضِياً، ثم نُنَجّي الذين اتَّقَوا ونَذَرُ الظالمين فيها جِثِيّاً﴾. وفي سورة التكاثر قوله تعالى: ﴿لَتَرَوُنَّ الجحيم، ثم لَتَرَوُنَّها عينَ اليقين﴾.

أما الرؤية الأولى فهي -والله أعلم- ورود المتقين عليها الذي يكون معه النجاة منها، وأما الرؤية الثانية فهي ورود الظالمين عليها وسقوطهم فيها. وربما كانت الرؤية الأولى قبل الحساب، حين تبرز الجحيم فيراها الناس كما قدمنا.

الجنة وجهنم

أوصاف الجنة التي وردت في القرآن، كقوله تعالى: ﴿تَجري من تحتها الأنهار﴾، وأن أهلها يُحَلَّون فيها من أساور من ذهب ولؤلؤاً وأن لباسهم فيها حرير، وأن فيها أنهاراً من لبن

وأنهاراً من خمر وأنهاراً من عسل، وأن فيها الغلمان والحور العين... كل ذلك جاء على وجه التقريب إلى الأفهام، لأن اللغات البشرية موضوعة في الأصل للتعبير عن الأشياء الأرضية، ومن المحقَّق أن أنهار الجنة ليست كأنهار الدنيا، ولا لبنها وعسلها وخمرها كخمر الدنيا وعسلها ولبنها، ولا حورها كنساء الأرض ولا غلمانها كغلمانها... ولو رجعنا إلى المقدمات التي قدمناها في أول الكتاب (وهي قواعد العقائد) لذكرنا أن الخيال البشري يعجز عن الإحاطة بها أو تمثّل حقيقتها.

والذين فصّلوا في وصفها من المفسرين لم يستندوا في ذلك إلى دليل، وكان منتهى جهدهم أن قاسوا الآخرة على الدنيا كما قاس المتكلمون عدالة الله وصفاته على ما عرفوا من الصفات البشرية والعدالة البشرية، فتخبطوا في متاهات وضلالات كان ينجيهم منها ويبعدهم عنها، أن يقفوا عند حدود النصوص وأن يسلكوا مسلك السلف، وأن يقروا بعجز العقل عن إدراكها والخيال عن تمثيلها.

ومن هذه المباحث السقيمة والمجادلات العقيمة ما قالوه عن الحور العين وهل الاستمتاع بهن كالاستمتاع بنساء الدنيا، ونسوا أن هذه المتعة على شكلها المعروف غايتها الحمل وبقاء النسل[1] ولا داعي لذلك في الآخرة، فكان الحق أن نؤمن بكل ما ورد في القرآن، ثم نشتغل بالعمل الصالح الذي يوصلنا إلى الجنة

---

(١) ولو فكر العاقل لاستقبحها، ولكن الله وضع الشهوة لمنع هذا التفكير، كما وُضع البنج (أي المخدِّر) ليمنع الشعور بألم العملية الجراحية.

بدلاً من المناقشة في تفصيل أمرها والخلاف على وصف حقيقة ما فيها مما لم يذكره القرآن لنا.

دخول الجنة

وليس دخول الجنة بالتمني والتشهّي، ولكن بالإيمان والطاعة: ﴿ليس بأمانيِّكم ولا أمانيِّ أهل الكتاب، مَن يعملْ سُوءاً يُجْزَ به﴾، ﴿أم حسبتُم أن تدخلوا الجنةَ ولمّا يَعلمِ الله الذين جاهدوا منكم ويعلمَ الصابرين﴾.

فالمؤمن الذي يدخل الجنة إما أن يكون فاعلاً للخير داعياً إلى الله باذلاً الجهد في سبيل إعلاء كلمته عاملاً على ذلك بنفسه وماله ولسانه، فيكون من الذين جاهدوا، فإن لم يستطع فعليه -على الأقل- أن لا يكون منفعلاً بالشرّ ولا متبعاً لدعوته، وأن يَسلم بنفسه وأهله، وأن يصبر على ما يلقى في سبيل تمسكه بدينه، فيكون من الصابرين.

فإذا انتهى الحساب واجتاز المؤمن الصراط تحققت النجاة: ﴿وسيقَ الذين اتّقَوا ربَّهم إلى الجنة زُمَراً، حتى إذا جاؤوها وفُتحت أبوابها[1] وقال لهم خَزَنتُها سلامٌ عليكم طِبتُم فادخلوها خالدين، وقالوا الحمد لله الذي صدَقَنا وعْدَه وأورثنا الأرض نتبَوَّأ من الجنة حيث نشاء، فنِعْمَ أجرُ العاملين﴾.

---

(١) في آية جهنم قال ﴿حتى إذا جاؤوها فُتحت أبوابها﴾ لأنها كسجن مغلوق الأبواب فلا تُفتح إلا لاستقبال داخل أو خروج خارج، أما هنا فقال ﴿وفُتحت أبوابها﴾ لأنها مفتحة دائماً، وإن كان لا يدخلها أحد إلا بإذن ربها خالقها.

وصف الجنة

أمّا سعتها فإن عرضها عرض السماوات والأرض. ولا تعجبوا من هذا فإن الآخرة بالنسبة لهذه الدنيا بالنسبة لبطن الأم. أما يرى الجنين بطن الأم دنياه كلها؟ أوَليست دارٌ واحدة من دور الدنيا أوسعَ من دنيا الجنين بالآف المرات؟

هذه الجنة أُعِدّت للمتقين. ومن هم المتقون الذين أُعِدّت لهم؟ وماذا كانوا يصنعون لعلنا نصنع مثلهم فنكون معهم؟ لقد بيّن أن المتقين هم: ﴿الذين يُنفقون في السرّاء والضرّاء، والكاظمين الغيظَ، والعافين عن الناس، والذين إذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم ذكروا الله فاستغفروا لذنوبهم﴾. هذه بعض صفات المتقين، فمن اتّصف بها -بعد تصحيح العقيدة وصدق التوحيد- أدخله الله بكرمه ومنِّه هذه الجنة التي أعدّها لهم.

والجنة درجات، ففيها «جنة النعيم»، وهي أبعد من أن ينالها كل واحد: ﴿أيطمع كلُّ امرئ منهم أن يُدخَلَ جنة نعيم؟﴾. وفيها الجنة التي سماها الله «الغرفة» ووعد بها عباد الرحمن، الذين وصفهم في سورة الفرقان بأنهم الذين يجمعون صحة الاعتقاد واستقامة السلوك وكثرة العبادة وعلوّ الأخلاق، فدل ذلك على أن الغرفة درجة عالية في الجنة خُصَّ بها هؤلاء الذين جمعوا صفات الكمال وصبروا على مشقة القيام بها وصرف النفس عن رغبتها في التملّص منها.

وبيّن ربنا أن في الجنة ﴿جنّات معروشات وغير معروشات﴾ وأن فيها مكاناً اسمه «جنة المأوى» ومكاناً اسمه «جنات عدن»،

وأن لمن خاف مقام ربه جنتين لا جنة واحدة، وأن فيها ما دعاه بعلّيّين، فدلَّ ذلك على أن نعيمها درجات وأهلها منازل.

أهل الجنة وأحوالهم

يجتمع أهل الجنة بإخوانهم وأهلهم: ﴿ادخُلوا الجنة أنتم وأزواجكم تُحبَرون﴾، ﴿هم وأزواجهم في ظلال على الأرائك متكئون﴾، ﴿والذين آمنوا واتبعتهم ذُرّيتُهم بإيمان ألحقنا بهم ذُرّيتَهم﴾. يجتمعون على ودٍّ وصفاء: ﴿ونزعنا ما في صدورهم من غِلٍّ﴾، تُصَفّ لهم الأسِرّة والأرائك فتكون مجالسهم عليها: ﴿متكئين على سُرُرٍ مصفوفة﴾ يقعدون عليها ﴿إخواناً على سُرُرٍ متقابلين﴾، عليها فرش بطائنها من شيء نفيس سماه رُّبنا «الإستبرق» وحولهم جنتان ملتفتان ثمارهما قريبة من أيديهم دانية منهم، يخدمهم فيها خدم صغار: ﴿ويطوف عليهم غلمان لهم كأنهم لؤلؤٌ مكنون﴾ ﴿يَدعون فيها بكل فاكهة آمنين﴾ ﴿يُطاف عليهم بكأس من مَعين، بيضاءَ لَذّةٍ للشاربين، لا فيها غَولٌ ولا هم عنها يُنزَفون﴾.

والطعام يطاف به ﴿عليهم بصِحافٍ من ذهب﴾، أما شرابهم فيُحمل إليهم ﴿بأكواب وأباريقَ وكأس من مَعين﴾. يؤتى إليهم بكل ما يريدون من طعام: ﴿وفاكهةٍ مما يتخيّرون، ولحم طير مما يشتهون﴾ ﴿في سدْرٍ مخضود، وطلح منضود، وظلّ ممدود، وماء مسكوب، وفاكهة كثيرة، لا مقطوعة ولا ممنوعة، وفُرُش مرفوعة﴾ ﴿لا يرون فيها شمساً ولا زَمْهَريراً، ودانيةً عليهم ظلالُها وذُلِّلَت قُطوفُها تذليلاً﴾ ﴿تعرف في وجوهم نَضرةَ النعيم﴾ فوجوههم ﴿ناعمةٌ، لسعيها راضية﴾.

يقصدون من أركان الجنة حيث شاؤوا، يتقابلون فيها ويتحدثون ﴿تحيتُهُم فيها سلامٌ﴾. لا يقولون إلا خيراً ﴿وهُدُوا إلى الطَّيِّب من القول﴾، ﴿وأقبل بعضهم على بعض يتساءلون، قالوا إنا كنا قبلُ في أهلنا مشفقين﴾ خائفين من دخول النار ﴿فمَنَّ الله علينا ووقانا عذابَ السَّمُوم﴾. وهذا من ثمرة الدعاء والاستغفار: ﴿إنّا كنا مِن قبلُ ندعوه، إنه هو البَرُّ الرحيم﴾.

فإذا تحدثوا تذكروا في أحاديثهم أيام الدنيا وأحوال أهلها، وما كان من أمرهم فيها وما انتهوا إليه في الآخرة: ﴿قال قائلٌ منهم: إنه كان لي قَرين، يقول﴾ ساخراً معانداً ﴿أئنَّك لَمِنَ المُصَدِّقين؟ أئذا مِتنا وكنا تراباً وعظاماً أئنا لمَدينون؟﴾ قال (أي المؤمن في الجنة لإخوانه فيها): ﴿هل أنتم مطَّلِعُون﴾ على أهل النار لتروه فيها؟ ودل ذلك على أنهم يستطيعون الاطلاع عليهم. ﴿فاطّلعَ فرآهُ في سواء الجحيم﴾، قال له (وهذا وما يأتي بعده يدل على أن أهل الجنة وأهل النار يتبادلون الحوار): ﴿تالله إنْ كدتَ لَتُرْدِينِ، ولولا نعمةُ ربي لكنتُ من المُحضَرين﴾. ويمُنّ عليهم ربهم بالحور العين يزوّجهم بهن: ﴿وزوَّجناهم بحور عين كأمثال اللؤلؤ المكنون﴾، أنشأهن إنشاء فجعلهن ﴿أبكاراً، عُرُباً أتراباً﴾ قاصرات الطرف (من الحياء) ﴿لم يَطمثهنّ إنسٌ قبلهم ولا جانّ﴾.

وأهل الجنة ﴿دَعواهُم فيها سبحانك اللهم وتحيتُهم فيها سلام، وآخِرُ دعواهُم أن الحمد لله رب العالمين﴾. يقولون ﴿الحمدُ لله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتديَ لولا أنْ هدانا الله، لقد جاءت رُسُل ربّنا بالحق﴾ ﴿ونودُوا أن تِلكمُ الجنةُ أورثتموها بما

كنتم تعملون﴾ ﴿لا يَمَسُّهم فيها نَصَبٌ وما هم منها بمُخرَجين﴾ ﴿لا يذوقون فيها الموتَ إلا المَوتةَ الأولى﴾ ﴿والملائكة يدخلون عليهم من كلّ باب﴾ يحيونهم ويهنئونهم، يقولون: ﴿سلامٌ عليكم بما صبرتم فنِعْمَ عُقبى الدار﴾. ﴿إنّ هذا لَهُوَ الفوزُ العظيم، لمثل هذا فَلْيعمَلِ العاملون﴾ ﴿وفي ذلك فَلْيتنافس المُتنافسون﴾.

اللهم برحمتك التي وسعت كل شيء وعفوك ومغفرتك، وأنت العفوّ الغفور، أعذنا من عذاب النار وأدخلنا الجنة بسلام.

جهنم

المتبادر إلى الأذهان أن جهنم كالنار التي نعرفها في الدنيا، لكنها أشد منها، حتى إنها لا تقاس من شدتها بها وإنْ ماثَلَتها في نوعها. ولكن الذي يبدو لمن ينعم النظر في وصف القرآن لها أنها من نوع آخر، إذ لو كانت ناراً من نار الدنيا لأحرقت كل شيء فتركته فحماً، مع أن جهنم فيها شجر وفيها ماء وفيها ظلّ، وإن كان ظلها وماؤها وشجرها للتعذيب لا للنعيم. ونار الدنيا تحرق من يدخل فيها فيموت فيستريح من ألمها، وجهنم (نعوذ بالله منها) ألم دائم لأهلها: ﴿لا يُقضَى عليهم فيموتوا ولا يُخَفَّفُ عنهم من عذابها﴾، لا تحرق الجلود فتُذهبها ولكن تنضجها، وكلما نضجت جلودهم بدّلهم الله جلوداً غيرها ليذوقوا العذاب، وأهلها يعيشون ويفكرون ويتذكرون ويختصمون.

وفي جهنم شجرة، ولكنها شجرة الزَّقُّوم التي ﴿تَخرُجُ من أصل الجحيم، طَلْعُها كأنه رؤوس الشياطين﴾. وفي جهنم طعام وأهلها يأكلون، ولكنهم آكلون من ثمر هذه الشجرة

الخبيثة ﴿فمالئون منها البُطون﴾ ﴿إنّ شجرة الزَّقّوم طعام الأثيم، كالمُهْلِ﴾ عكر الزيت ﴿يَغلي في البطون كغَلْيِ الحميم﴾. وفي جهنم شراب، فيها ماء ولكنه ماء صديد، يُسقى منه الكافر فهو ﴿يتجرَّعُهُ ولا يكادُ يُسيغُه﴾. فإذا أكلوا من هذه الشجرة وشربوا بعدها من الحميم، من هذا الماء الذي وصفه القرآن، وهم من شدة عطشهم يشربون منه شُرْبَ الهيم، شرب الإبل الهائمة العطشى، ثم يُصَبُّ من فوق رؤوسهم من هذا الحميم ﴿يُصْهَرُ به ما في بطونهم والجلود﴾.

وفي جهنم ثياب، ولكنها من نار: ﴿فالذين كفروا قُطِّعت لهم ثيابٌ من نار﴾. وفي جهنم ظلّ وظُلَلٌ، ولكنها من نار: ﴿لهم من فوقهم ظُلَلٌ من النَّار ومن تحتهم ظُلَلٌ﴾، إنه ﴿ظل من يَحموم، لا بارد ولا كريم﴾.

هذه عاقبة من آثر الدنيا وترفها وأصرّ على الكفر وأنكر البعث: ﴿إنهم كانوا قبل ذلك مُترَفين، وكانوا يُصرُّون على الحِنثِ العظيم، وكانوا يقولون: أئذا مِتنا وكنا تراباً وعظاماً أئنا لَمَبعوثون؟﴾، ﴿لهم فيها زفيرٌ وشهيق، خالدين فيها ما دامت السماوات والأرض إلا ما شاء ربك، إنّ ربك فَعّالٌ لما يريد﴾.

دخول النار

إذا انتهى الحساب وحقت كلمة العذاب على الكفار يُساقون إلى جهنم زُمَراً، فتغتاظ جهنم نفسُها من كفرهم وإصرارهم وإعراضهم عن رسل ربهم، وخَزَنة جهنم لا ينقضي عجبهم من حماقتهم وعنادهم فهو يعودون إلى سؤالهم: ﴿تكاد تَمَيّزُ من

الغيظ، كلّما أُلقي فيها فوج سألهم خَزَنتُها: ألم يأتِكم نذير؟﴾ فلم يسعهم إلا الاعتراف ﴿قالوا: بلى، قد جاءنا نذير فكذّبْنا وقُلنا ما نزّلَ الله من شيء﴾.

فقالت لهم الملائكة: ﴿إنْ أنتم إلا في ضلال كبير﴾، فأقروا بأنهم كانوا صُمّاً لا يسمعون وكانوا قد عطلوا عقولهم فلا يفكرون، وأنهم لو كانوا سمعوا المواعظ وفكروا في أنفسهم وفي الكون من حولهم لاستدلوا بذلك على الله فآمنوا به واتبعوا رسله وما وصلوا إلى جهنم: ﴿وقالوا لو كنا نَسمعُ أو نَعقِلُ ما كنا في أصحاب السّعير، فاعترفوا بذنبهم فسُحقاً لأصحاب السَّعير﴾.

جهنم سجن

جهنم ﴿لها سبعةُ أبواب﴾ يوزَّع أهلها عليهم ﴿لكلّ بابٍ منهم جزءٌ مقسوم﴾. وهي مغلقة بمَزاليج ضخمة كأنها الأعمدة: ﴿إنها عليهم مُوْصَدَةٌ في عَمَدٍ ممدَّدةٍ﴾، وهم يُلقَون فيها في مكان ضيق ﴿مُقَرَّنين﴾ مربوطاً بعضهم ببعض وقد أعد الله لهم ﴿سلاسلَ وأغلالاً وسعيراً﴾.

محاولات للخروج

عمّر الله الإنسانَ في الدنيا دهراً وأعطاه فيها عقلاً يختار به ما يريد وإرادةً ينفذ بها ما يختار، فاختار بعض الناس سلوك طريق جهنم وعملوا ما يوصلهم إليها، فلما بلغوها راحوا يحاولون الخروج منها ويعِدون أنهم إن أُعيدوا إلى الدنيا آمنوا وأصلحوا! يحسبون الأمر كامتحانات الدنيا، فمَن رسب في دورة استدرك النجاح في أخرى، لا يدرون أن من خرج من الدنيا لا يعود إليها

ومن دخل النار من الكفار لا يخرج منها، فحق عليهم قول الله عزَّ وجلّ: ﴿ولقد جئناهم بكتاب فصّلناه على علم هُدىً ورحمةً لقوم يؤمنون. هل يَنظرون إلا تأويلَه؟ يومَ يأتي تأويلُه يقول الذين نَسُوهُ من قبلُ: قد جاءت رُسُل ربنا بالحق، فهل لنا من شُفَعاء فيشفعوا لنا أو نُرَدُّ فنعملَ غيرَ الذي كنا نعمل؟﴾ ﴿وهم يصطرخون فيها: ربَّنا أخرجنا نعملْ صالحاً غيرَ الذي كنا نعمل﴾.

فيكون الجواب الحاسم: ﴿أوَلَمْ نُعمِّرْكم ما يتذكّرُ فيه مَن تذكّر، وجاءكم النذير؟ فذوقوا فما للظالمين من نصير﴾. فيَلجؤون[1] إلى خَزَنة جهنم، كما يلجأ السجين إلى حُرّاس السجن، يظن أنهم يملكون له نفعاً أو يدفعون عنه ضرّاً، يقولون ﴿لخَزَنة جهنّم: ادعُوا ربكم يخفِّفْ عنا يوماً من العذاب. قالوا: أوَلَمْ تَكُ تأتيكم رُسُلكم بالبيِّنات؟﴾ ثم قالوا لهم ساخرين منهم: ﴿فادعوا، وما دُعاء الكافرين إلا في ضلال﴾

فإذا يئسوا منهم عمدوا إلى مالك، رئيس حرس جهنم ﴿ونادَوا: يا مالِكُ لِيَقْضِ علينا ربُّك﴾، فأجابهم الجواب الصارم الحاسم، قال: ﴿إنكم ماكثون﴾. فيفكرون في أن يفتدوا أنفسهم كما كانوا يفتدون في الدنيا بالمال، ولكن هيهات: ﴿ولَوْ أنّ للذين ظلموا ما في الأرض جميعاً ومثلَه معه لافتدَوا به من سوء العذاب يوم القيامة. وبدا لهم من الله ما لم يكونوا يحتسبون، وبدا لهم

---

(١) من الناس من يضع همزة هذه الكلمة على الألف «فيلجأون»، وهو غلط، ومنهم من يضعها على مدة «يلجئون» فيرسمون الهمزة على كرسي بعد الجيم، والصواب -فيما أرى- هو ما رسمتها عليه.

سيِّئات ما كسبوا وحاق بهم ما كانوا به يستهزئون﴾.

فلا تفيدهم هذه المحاولات شيئاً، ويبقون في جهنم ﴿ولهم مقامِعُ من حديد، كلّما أرادوا أن يخرجوا منها من غَمٍّ أُعيدوا فيها﴾ وقيل لهم: ﴿ذُوقوا عذاب الحريق﴾.

أحاديثهم واختلافهم

أهل الجنة إخوان على سرر متقابلين، قد نُزِع ما في صدورهم من غِلّ وهُدوا إلى الطيّب من القول فما في أحاديثهم لغو ولا كذب ولا إثم، وأهل جهنم في نزاع وجدال:

﴿كلما دخلت أمةٌ لعنت أختها، حتى إذا ادَّاراكوا فيها جميعاً قالت أُخراهُم لأُولاهُم ربَّنا هؤلاء أضلّونا فآتِهِمْ عذاباً ضِعفاً من النار. قال لكلٍّ ضعفٌ، ولكن لا تعلمون. وقالت أُولاهم لأُخراهم فما كان لكم علينا من فضل فذوقوا العذاب بما كنتم تكسبون﴾، ﴿هذا فوجٌ مُقتحمٌ معكم لا مرحباً بهم، إنهم صالُوا النار. قالوا: بل أنتم لا مرحباً بكم، أنتم قدّمتموه لنا فبئس القرار. قالوا: ربَّنا مَن قدم لنا هذا فزِدْه عذاباً ضِعْفاً في النار. وقالوا: ما لنا لا نرى رجالاً كنا نعدهم من الأشرار؟ أتّخَذناهم سِخريّاً أم زاغت عنهم الأبصار؟ إن ذلك لَحَقٌّ تَخاصُمُ أهل النار﴾، ﴿وقال الذين كفروا: ربَّنا أرِنا اللذين أضلّانا من الجن والإنس نجعَلْهما تحت أقدامنا ليكونا من الأسفلين﴾.

حوار بين أهل الجنة وأهل النار

سبق ما يشير إلى أن أهل الجنة يستطيعون أن يطّلعوا على

أهل النار، وفي القرآن أن هؤلاء وهؤلاء يتنادَون ويتحدثون: ﴿ونادى أصحابُ الجنة أصحابَ النار أنْ قد وجَدْنا ما وعَدَنا ربُّنا حقاً، فهل وجدتم ما وعد ربكم حقاً؟ قالوا: نعم. فأذَّنَ مؤذِّنٌ بينهم أنْ لعنةُ الله على الظالمين. ونادى أصحابُ النار أصحابَ الجنة أن أفيضوا علينا من الماء أو مما رزقكم الله. قالوا: إن الله حرَّمهما على الكافرين، الذين اتخذوا دينهم لهواً ولعباً وغرَّتهم الحياة الدنيا﴾.

الأعراف

الذي يُفهَم من الآيات أن «الأعراف» مكان بين الجنة والنار، يقوم فيه مدة من الزمان من قصرت به حسناته عن دخول الجنة ولم تبلغ سيئاته إدخاله النار، يرون منه الجنة ويأملون في دخولها ويخاطبون أهلها، ويرون النار ويعوذون بالله منها ويكلمون أصحابها، وبينهما (أي بين أهل الجنة وأهل النار) حجاب: ﴿وعلى الأعراف رجالٌ يعرفون كلّاً بسيماهُم. ونادَوا أصحاب الجنة أنْ سلامٌ عليكم، لم يدخلوها﴾ أي أهل الأعراف ﴿وهم يطمعون﴾ في دخولها ﴿وإذا صُرفت أبصارُهم تِلقاءَ أصحاب النار قالوا﴾ أي قال أهل الأعراف ﴿ربَّنا لا تجعلنا مع القوم الظالمين﴾.

ورأوا في جهنم ناساً يعرفونهم كانوا في الأرض من الجبارين، يعتزون بجموعهم وأتباعهم وجماهير العامة التي تؤيدهم فيتكبرون بذلك ويطغون، فنادوهم وقالوا لهم: ﴿ما أغنى عنكم جمعُكم وما كنتم تستكبرون﴾. وسيرون يومئذ أنه ما أغنى عنهم شيئاً ولا خفف عنهم من عذابهم كثيراً ولا قليلاً، وأنهم قد خلّفوه كله وراءهم وتركوه خلف ظهورهم.

إنه لا ينزل مع الميت إذا مات صديق ولا رفيق ولا حليف ولا أليف ولا جند ولا أعوان، كلهم يتركه وينصرف عنه فينزل القبر وحده، ويُبعَث من القبر وحده، ويقف للحساب وحده. هذه حقيقة مشاهَدة في الدنيا، ولكن عَمِيت الأبصار عن رؤيتها وعميت البصائر عن إدراكها.

فيا ربِّ افتح أبصارنا حتى نرى الحقائق الدالّة عليك، ونَوِّرْ بصائرنا حتى نبصر الطريق الموصل إليك، وجنّبنا الفتن ما ظهر منها وما بطن، وارزقنا رضاك والجنة، وأعذنا من غضبك والنار، يا عفّو يا غفّار.

* * *

الإيمان بالقَدَر

معنى القدر والقضاء

الذي يُفهم من الآيات التي ذكرت القدر، كقوله تعالى: ﴿وإنْ مِنْ شيء إلا عندنا خزائنه، وما نُنَزِّلُه إلا بقَدَر معلوم﴾، وقوله: ﴿إنّا كلَّ شيء خلقناهُ بقَدَر﴾، وقوله عن الأرض: ﴿وبارك فيها وقدَّر فيها أقواتَها﴾، وقوله عن القمر: ﴿والقمر قدَّرناه منازل﴾، وقوله: ﴿وخلق كلَّ شيء فقدَّره تقديراً، وكلُّ شيء عنده بمقدار﴾... الذي يُفهم منها أن القدر هو السنن التي سنّها الله لهذا الكون والنظام الذي سلكه به[1] والقوانين الطبيعية التي سيّرَه عليها، وأنّ كل ما فيه قد خُلق بمقادير معينة ونِسَب محددة، فما من موجود إلا وقُدِّر قبل إيجاده مقدارُه وعدد ذراته وكمية العناصر التي يتألف منها ونوعها وما يعرض له من امتزاج بغيره وانفصال عنه وما يناله من حركة وسكون، كل ذلك محدد منذ الأزل.

---

(١) النظام هو الخيط الذي تنظم به حبات العقد والسبحة، والسلك الذي تُسلك به.

وأنا أوضح الفرق بين القدر والقضاء بمثال (ولله المثل الأعلى): العمارات التي تقام تعلَّق عليها لوحة فيها: "إن التصميم للمهندس الفلاني والتنفيذ للمقاول الفلاني". فالمهندس يرسم الخريطة ويعين علو البناء وسمك الجدران وما يوضع فيها من الحديد والإسمنت والحجر ونسبة كل منها وما يكون فيها من أبواب ونوافذ، يقدر ذلك ويحدده، هذا مثال القدر. والمقاول ينفذ ما قدره المهندس، وهذا مثال القضاء. وكلاهما لله وحده. وكما يمكن للمهندس أن يبدّل -إذا أراد- في بعض تفصيلات التصميم فالله -من رحمته- جعل الدعاء والصدقة سبباً في رفع بعض ما كان مقدَّراً، قدّرها وحده ورفعها بالدعاء وحده[1].

الثواب والعقاب

هذا معنى القدر بوجه عام، وهو يشمل كل موجود أوجده الله، قدر الله مقاديره وأحواله وعلم ما سيكون له وما يكون منه. ومن جملة مخلوقات الله الإنسان، وهنا تعترض مشكلة طالما خاض فيها الخائضون وطالما كثر فيها الجدال، هي أمر الثواب والعقاب. إذا كان كل ما يقع في الكون مرسوماً ومعلوماً عند الله من قبل وكانت سنن الله لا تبديل لها ولا تغيير، فكيف يكون

(١) ولو كان كل ما يَفعل العبد مُجبَراً عليه من الأزل، لا يبدَّل ولا يعدِّل وليس له اختيار فيه، لم يبقَ من فائدة لبعثة الأنبياء وجهاد الكفار ولا للدعاء. وقد دعا الأنبياء والخلفاء الراشدون وصلحاء كل أمة طالبين دفع الشر وجلب الخير. وقد رأيت عند وجيه الحجاز، الشيخ الجليل محمد نصيف رحمه الله، رسالة مخطوطة للشوكاني في هذا المضمار لم يُكتب في موضوعها مثلها.

الثواب والعقاب؟

والجواب الإجمالي أنه لا بد من التفريق بين وضع الإنسان المشاهَد الملموس وبين صفات الله وأعماله، وهي مغيَّبة لا يستطيع العقل أن يحكم عليها ولا يصل إلى إدراكها ولا يعرف عنها إلا ما جاء بطريق الوحي.

الإنسان مخير

وأنا أتكلم الآن عن الوضع القائم المشاهد، وسأتكلم بعد ذلك عن النصوص. والواقع أن الإنسان له حرية، له عقل يستطيع أن يحكم به على الأمور المادية ويميّز به بين الخير والشر والصلاح والفساد، وله إرادة يستطيع أن يعمل بها الخير أو أن يعمل الشر.

كل إنسان عاقل يدرك أن الصلاة خير وأن الزنا شر، ويقدر -إذا خرج من داره- أن يمشي من جهة اليمين إلى المسجد فيصلي أو يمشي من جهة الشمال إلى الماخور فيزني. هل يشك أحد في هذا؟ وإذا كانت يدي سليمة ما بها مرض أو شلل فأنا أستطيع أن أرفعها، فهل في الناس من يدَّعي أنني لا أستطيع رفع يدي؟ وإذا كنت قادراً على رفع يدي رفعتها لأعطي فقيراً ديناراً أو رفعتها لأضرب بريئاً بالعصا، فهل هذا كذاك؟ أليس إعطاء الفقير حسنة تستحق الثواب وضرب البريء سيئة تستوجب العقاب؟ والتلميذ يستطيع أن يُمضي ليالي الامتحان باللهو واللعب ويستطيع أن يشغلها بالجد والدرس، أليس هذا صحيحاً؟ فهل يدّعي أحدٌ أن سقوط اللاعب كان ظلماً أو أن نجاح المُجِدّ كان محاباة؟

والإنسان مجبر

لقد استطعت أن أحرك يدي بإرادتي لأن الله جعل عضلاتها خاضعة لي، ولكني لا أستطيع التحكم في عضلات قلبي ومعدتي. وهذا التلميذ قد يكون ذكياً يدرس الدرس مرة فيحفظه ثم يلهو ويتسلّى، وقد يكون غبياً يدرس الليل والنهار فلا يفهم ولا يحفظ. وقد يكون بيته هادئاً وأبوه عالماً ييسر له أمر الدرس، وقد يكون بيته صاخباً وأبوه جاهلاً مشاكساً فلا يستطيع أن يدرس. فهو لا يملك منح نفسه الذكاء، ولا يملك اختيار أبويه، ولا انتخاب الزمان الصالح ليوجد فيه ولا البيئة الصالحة ليُمضي فيها طفولته... هذه كلها أمور لا يملكها الإنسان، كما لا يملك أن يجعل أنفه أجمل وقامته أطول، فهو من هذه الناحية مجبر.

حر مخيَّر في حدود الطاقة البشرية

فالإنسان حر مخيَّر في حدود الطاقة البشرية، وكونه مجبراً في بعض الحالات لا ينفي عنه صفة الحرية، كالسيارة والصخرة، لا ينكر أحد أن السيارة تمشي ولكنْ في حدود قوة محرّكها ومدى احتمالها، فإن صُنعت سيارة شحن لا يمكن أن تمشي بسرعة سيارة السباق، وإن صُنعت لتمشي على الأرض فإنْ عاق مسيرَها عائق لم تفقد صفة القدرة على السير، ولا تكون كالصخرة.

وكذلك الإنسان: تعترضه في الحياة عوارض تعطل إرادته، وعوائق تحول وجهته، وتؤثر فيه أمور لا يملك دفعها ولا إبدالها، ولكن ذلك لا ينفي أنه حر. فهو إنسان حر يتصرف ضمن الحدود الإنسانية وليس إلهاً ليصنع ما يشاء.

الثواب والعقاب مَنوط بالحرية

فإن لم تكن حريةٌ فلا عقاب. المُكرَه على فعل الشر لا يعاقَب عليه، والله إنما يؤاخذنا على ما نملك الخيار في فعله أو تركه. للإنسان ما كسب وعليه ما اكتسب، لا يكلف الله نفساً إلا وسعها، والله لا يضيع مثقال ذرة. وإذا كانت المحاكم البشرية -بعدالتها النسبية- تقدر ظروف المتهم ودوافعه وبيئته واستعداده وترى تقدير ذلك من العدل، فهل يُترك ذلك في محكمة رب العالمين التي فيها العدالة المطلقة؟ وهل يعاقَب المذنب الناشئ من والدين فاسقين وبيئة فاسدة والذي عاش طفولة مهملة مشردّة كمَن أذنب الذنب نفسه وهو ناشئ في أفضل البيئات مولود من خير الآباء؟

مقاييس العدالة

على أن أكثر علماء الكلام قد أخطؤوا أكبر الخطأ حين طبقوا على الله مقاييس العدالة البشرية. تنبهت إلى هذه الحقيقة بواقعة وقعت لي، أسردها الآن فيها عبرة وإن لم يكن موضع سردها هذا الكتاب.

كنت سنة ١٩٣١ أدرِّس في مدرسة ابتدائية في الشام، وكنت في فورة الشباب وعنفوانه وفي رأسي خواطر وفي نفسي غرور وعلى لساني بيان واندفاع، فعرضت لي شكوك في مسألة القدر كنت أسأل عنها العلماء فلا أجد عندهم الجواب الشافي لها، فيدفعني الغرور إلى جدالهم وإزعاجهم. حتى جاء يوم كنت فيه في المدرسة وكنت أؤدب تلميذاً بالضرب (وكان الضرب من

وسائل التأديب في تلك الأيام) ففجر الولد وتوقّح وجعل يصرخ ويقول: هذا ظلم، أنت ظالم!

ثقوا -يا أيها القراء- أني لما سمعت ذلك سقطت العصا من يدي ونسيت الولد والمدرسة، ورأيت كأني كنت في ظُلمة فأضيء لي مصباح منير، فقلت لنفسي: إن التلميذ يرى ضربي إياه ظلماً وأنا أراه عدلاً، والعمل واحد، وإذا ذهب يشكو إلى أهله قالوا له: لا، ما هذا ظلم، هذا عدل، إنه يضربك لمصلحتك.

فإذا كان التلميذ لا يحق له أن يطبق مقاييسه الناقصة على عدالة المعلم فكيف أطبق أنا مقاييسي البشرية للعدالة على الله؟ ألا يمكن أن يكون الفعل الذي أراه ظلماً هو عين العدل؟ الولد المريض يرى الإبرة التي يدخلها الطبيب تحت جلده ظلماً وهي في رأي أبيه عدل كل العدل، لأن الولد نظر إلى ألمها والأب أبصر أثرها في شفاء الولد.

إن القاضي لا يستطيع أن يحكم في دعوى حتى يطّلع على مراحلها كلها ووقائعها جميعاً، ونحن إنما نطلع غالباً على طرف من الواقع ونصدر أحكاماً خاطئة بعد دراسات ناقصة. لو تهت أنت ورفيقك في الصحراء، فمرّت سيارة فخمة دعاكما صاحبها وأركبكما فيها، فأخرج صديقك سكينة فمزق جلد المقعد، ألا ترى عمله ظلماً؟ إنه ظلم بلا شك، ولكن إذا علمت أن أمامك عصابة من قطاع الطريق كلّما رأوا سيارة سليمة أخذوها وإن كانت ممزقة المقعدة تركوها، ألا يتحول هذا الفعل في نظرك من ظلم إلى عدل؟

بل إن صاحب السيارة لو عرف هذه الحقيقة لمزق جلد مقعدها بنفسه لأنه يفضل أن تبقى السيارة له ومقعدها ممزق عن أن تذهب كلها وهي سليمة؟ أليس هذا صحيحاً؟ هذه هي قصة الخضر وموسى لمّا ركبا في السفينة وخرقها، ضربها الله مثلاً نفهم منه ألّا نسرع إلى إصدار الأحكام قبل الإحاطة بالوقائع.

مع النصوص

لا بد لي قبل الكلام على النصوص من التذكير بهذه القواعد:

١- إن عمل العقل منحصر بفهم النصوص ولا يستطيع أن يدرك من نفسه حقيقة القدَر بالتفصيل، لأنه -كما قدمنا- عاجز عن الخوض فيما وراء المادة، لذلك ينبغي اجتناب المباحث التي لم يوضِّحها النص.

٢- أن نعرف أن الأصل هو القرآن، فإن تعارضت آية منه وحديثٌ من أحاديث الآحاد ولم يمكن التوفيق بينهما على شكل مقبول أخذنا بالآية[١].

٣- أنه لا يمكن أن يكون في القرآن أو صحيح الحديث نص صريح ينكر وجود أمر واقع مشاهد ملموس، لأن الذي أنزل القرآن هو الذي أوجد الواقع، ولا ينفي ربُّنا ما أوجده.

---

(١) من القواعد المعروفة عند أهل المصطلح أن الرسول ﷺ لا يقول ما يناقض القرآن ولا ما يخالف الواقع المشاهَد، فإنْ رُوي حديث مناقض للقرآن أو يخالف الواقع المشاهد نحكم أن الرسول لم يقله، ولو رُوي بسند صحيح.

٤- إن كثيراً من النصوص التي يُفهم منها الإجبار ونفيُ الاختيار عن الإنسان، كقوله تعالى: ﴿هو الذي يُصَوّركم في الأرحام كيف يشاء﴾ فلا يملك الوليد الذي صُوِّر بنتاً أن يجعل نفسه صبياً ولا الأسود اللون أن يصيِّر لونه أبيض. ومثلها قوله تعالى: ﴿وربك يخلُقُ ما يشاء ويختار، ما كان لهم الخِيَرَة﴾، وما يشير إلى الأحداث الكونية التي هي فوق طاقة الإنسان كقوله: ﴿أفرأيتم ما تحرثون، أأنتم تزرعونه أم نحن الزارعون؟ لو نشاء لَجَعلناه حُطاماً﴾، ومثلها: ﴿وإنْ يمسَسْك الله بضُرٍّ فلا كاشفَ له إلا هو﴾، وما يدل على الظروف المؤدية إلى الصلاح أو الفساد وليست من صنع الإنسان، كقوله: ﴿ونفسٍ وما سوّاها، فألهمها فُجورها وتقواها﴾، ومن الآيات التي جاءت فيها كلمة الهداية بمعنى الدلالة والإرشاد، كقوله: ﴿وهديناه النجدَين﴾ وقوله: ﴿إنا هديناه السبيل، إمّا شاكراً وإمّا كَفوراً﴾... الذي ظهر لي أن أكثر هذه النصوص تشير إلى الأمور التي تؤثر في صلاح الإنسان وفساده بعض التأثير وليست من صنعه، وقد قدمت القول بأن الله لا يؤاخذ العبد عليها، ولا يمكن أن يجبر الله عبده على أمر بحيث لا يستطيع تركه ثم يعاقب عليه.

هذه هي النصوص التي وقف عندها أصحاب الفرق المنحرفة فأساؤوا فهمها وأخطؤوا في تطبيقها، وكان عليهم:

١- التفريق بين آيات الإخبار عن مشيئة الله وقدرته وتصرفه في ملكه، والآيات المتعلقة بالثواب والعقاب.

٢- اعتبار مجموع النصوص لا الوقوف عند أفرادها، ومَن تتبّعَ مجموع النصوص رأى أن القرآن يثبت للإنسان الحرية

والإرادة اللتين يترتب عليهما الثواب والعقاب.

فمن يقرأ قوله تعالى عن القرآن: ﴿يُضِلّ به كثيراً ويهدي به كثيراً﴾ يفهم منه بادي الرأي[1] أن الهدى والضّلال أمر مقرَّر قدّره الله على العباد، فجعل هؤلاء ضالين وهؤلاء مهتدين. ولكن إذا انتبه إلى قوله تعالى ﴿هُدىً للمُتّقين﴾ وقوله ﴿وما يُضِلّ به إلا الفاسقين﴾ علم أن الهدى والضلال ليس إلزاماً من الله ولكنه تبع لحالة المرء، فإن كان متّقياً كان القرآن هدى له، وإن كان فاسقاً كان له ضلالاً.

وتبقى مع ذلك الشبهة قائمة، فيقول القائل: وما يدريني إذا كان الله قد جعلني مع المتقين أو جعلني مع الفاسقين؟ فإذا انتبه إلى قوله تعالى ﴿للمُتّقين الذي يُؤمنون بالغيب ويُقيمون الصلاة ومما رزقناهم يُنفقون﴾ وقوله ﴿إلا الفاسقين الذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه ويقطعون ما أمر الله به أن يُوصَل ويُفسدون في الأرض﴾ علم أن المسألة ليس فيها إجبار، وأن مردها إلى صفات وأعمال داخلة في نطاق حرية الإنسان وطاقته.

فأنت تستطيع أن تؤمن بالغيب وتقيم الصلاة وتنفق في سبيل الله وتستطيع أن تنقض العهد وتقطع الموصول وتفسد في الأرض، أمور في طاقتك عملها وفي إمكانك تركها، فإنْ عملت الثلاث الأولى كنت بذلك من المتقين فاستحققت الهداية، وإن عملت الثلاث الأخرى كنت بذلك من الفاسقين فاستحققت الضلال.

(١) في قولك «بادي الرأي» و«بادئ الرأي» أي من النظرة الأولى ومن أول وهلة.

بحث عقيم

وهنا يرد قولهم: هل عملت السوء بمشيئة الله أم لا؟ هل كنت أستطيع ألّا أعمله؟ وهل خلقت أنا عملي؟ وأمثال هذه الأمور التي ملأ بحثها كتب علم الكلام.

وذلك كله بحث عقيم لأن الخالق لا يقاس على المخلوقين والعقل لا يحكم على الله وصفاته، والله لا يُسأل عمّا يفعل وإنما يَسألنا عن أفعالنا، والله عادل لا شك في عدله، وخير لنا أن ننظر إلى أنفسنا وأن نحسن استعمال عقولنا ونعمل على توجيه إرادتنا إلى الخير، وندع المباحث المتعلقة بالله التي لم يتكلم فيها السلف ولا شغلوا أنفسهم بها.

الاحتجاج بالقدر

ومن العصاة من يحتج لعصيانه بالقدر؛ تقول للزاني: لِمَ زنيت؟ فيقول: لأنه قُدِّر عليّ! وهي حجة واهية مردودة من وجهين:

١- لأن الحساب والعقاب يكون على العمل وعلى الدوافع إليه والبواعث عليه، وهذا الزاني لم يطّلع على اللوح المحفوظ ويرَ أن الزنا مكتوب عليه كما يزعم ثم يذهب ليزني تنفيذاً لحكم القدر، وإنما تبع الشهوة وطلب اللذة العاجلة واستجاب لنداء الشيطان. وقد احتج المشركون بمثل هذه الحجة فقالوا: ﴿لو شاء الله ما أشركنا﴾، فردّ الله عليهم بقوله: ﴿قُلْ هل عندكم من علم فتخرجوه لنا؟﴾ أي: من أين عرفتم قبل أن تشركوا أن الشرك مقدَّر عليكم؟ وهل جربتم الإيمان فوجدتم أنه ممتنع عليكم؟

٢- ولأن هذا المحتجّ بالقدر لو كان صادقاً لرضي بكل ما يقدر الله عليه، من فقر ومرض وجوع وفَقْد حبيب وذهاب مال، والمشاهَد أنه لا يرضى بذلك، وهو مقدَّر عليه، ولا يسكن إليه، بل هو يعمل لجمع المال ودفع المرض وإذهاب الجوع، ويألم لفقد الحبيب وذهاب المال. فلماذا سخَّر قواه كلّها واستعمل عواطفه لجلب لذة الدنيا ودرء الألم فيها، ولم يسخِّر عقله لقمع الشهوة ومنع النفس من الحرام الذي ترغب فيه وهو يعلم ما في عقبه من العذاب.

نحن والسلف أمام عقيدة القدر

خصوم الإسلام يتهمون المسلمين اليوم بالتواكل والتكاسل لأنهم يؤمنون بالقدر، وإن كان في هذه التهمة بعض الحق كان السبب فيها سوء فهم كثير من المتأخرين لعقيدة القدر. لقد اتخذها كثير من المسلمين الجاهلين حجة لارتكاب المعاصي وسبباً للكسل والخمول، مع أن سلفنا قد اتخذوا منها دافعاً إلى العمل والجهاد.

قرأنا أن الرزق مقسوم: «ما كان لك سوف يأتيك على ضعفك وما كان لغيرك لن تناله بقوّتك» فظن قوم أن مقتضى ذلك ترك الكسب وإهمال السعي، وأن نقعد بلا عمل وننتظر أن تمطرنا السماء ذهباً وفضة، وأن نسافر بلا مال ولا استعداد. وقرأ ذلك السلف ففهموا منه أن عليهم أن يعملوا كل ما في وسعهم وأن يبذلوا لجمع المال من الحلال كل ما في طاقاتهم، ثم إذا استفرغوا الجهد رضوا بما جاءهم، فلم يسخطوا على ربهم ولم

يحملوا الحسد لمن نال من إخوانهم أكثر مما نالوا، ولم يُبطرهم الغنى ولم يؤلمهم الفقر.

وسمعنا أن الأجل محتوم فاتخذنا ذلك سبباً لإهمال التوقِّي والاحتياط وإضاعة المسؤوليات، والخلط بين الجريمة المتعمدة وبين القدر الذي وقع بلا جُرم[1]. وسمع ذلك أجدادنا فقالوا: إذا كان الأجل محتوماً لا يموت أحد قبل موعده ولو خاض اللهب وتلقى بصدره الرماح ولا يتأخر عن موعده ولو اعتصم في حصن له سبعة أسوار فلنعمل لما يرضي الله: نجاهد بأنفسنا في سبيل الله، لا نخشى الموت لأن الموت محتوم له موعد لا يسبقه ولا يتأخر عنه، ولنجاهد بألسنتنا في إنكار المنكر ومواجهة الطاغي الظالم بكلمة الحق. فأقبلوا لا يخشون في الحق أحداً ولا يخافون إلا الله شيئاً.

وفهمنا أن كل شيء مقدَّر وأهملنا دراسة سنن الله في الكون وقوانين الطبيعة التي جعلها ربنا سبباً للنفع والضرر، وكان سلفنا هم علماءها وهم الذين يعرفونها ويستفيدون منها، فكان من نتيجة ذلك أن هبطنا من الذروة إلى الحضيض ونزلنا من الأعالي إلى الأسفل. وكانوا بالإيمان سادة الدنيا وقادتها وأساتذتها، فصرنا المَسودين المَقودين، وفتحوا بسيف الحق ثلث العالم المتحضر وفتح عدونا بسيف الباطل قلب بلادنا.

---

(١) يسرع السائق حتى إذا اصطدم قال: إنه القدر! ويهمل التلميذ، فإذا رسب احتج بالقدر!

تقديس الأموات

ولما رأينا (أي رأى بعضنا) أن حياتنا كلها قد فسدت وأن الأحياء منا قد ذلّوا وذكرنا عزّ الأجداد وصلاحهم تحوّل يأسنا من الحاضر إلى أمل بالماضي وصَغار أحيائنا إلى تعظيم أمواتنا، فنشأت من هنا مظاهر تقديس الأموات والاعتماد عليهم وانتظار المدد منهم. نظن أن نجاحهم وخيبتنا تمكنهم من إمدادنا، فصرنا نقيم الأضرحة الفخمة والقباب العالية عليها، ونبدي من التقديس لها ما رجع بنا إلى قريب من عقائد الجاهلية، وصرنا ننذر لهذه القبور ونتوسل بها التوسل الممنوع، وربما طلبنا من أصحابها النفع والضرر بلا أسباب ظاهرة ولا واسطة ملموسة، وكل ذلك رد فعل لسوء حاضرنا وجلال ماضينا.

خلط لا مبرر له

وكل ذلك جر إليه الفهم الخاطئ منا لعقيدة القدر، هذا الفهم الذي جعل فينا من يخلط بين النصوص الواردة في الأمور الإرادية التي نملك التصرف فيها، والأمور التي جعلها الله فوق إرادتنا وأعلى من أن تصل إليها طاقاتنا. ونشأ هذا الخلط العجيب في المذاهب الكلامية، فمن مدَّعٍ أن الإنسان مسيَّر لا إرادة له، لأنه لا يستطيع أن يتحكم في عضَلة قلبه -مثلاً- ولا عمل له في اختيار أبويه وانتخاب بيئته الأولى، ونسوا أن الله أعطاه عضلات يتحكم فيها وأعطاه عقلاً يستطيع به أن يصحح (على قدر الإمكان) أخطاء بيئته وآثار تربيته.

وتوسع آخرون فأعطوا إرادة الإنسان أكثر مما لها في

الواقع، وخلطوا تبعاً لذلك في أمر الثواب والعقاب، ونسوا أن الله لا يحاسب الإنسان إلا في حدود حريته وقدرته ولا يؤاخذه على ما أُكره عليه، وتخبطّوا في البحث عن عدالة الله ونسوا الحقيقة الأولى، وهي أن عدالة الله لا تقاس بمقياس العدالة البشرية.

وطريقُ السلامة في عقيدة القدر وفي سائر العقائد أن نعود فيها إلى المنبع الأصلي: القرآن، وأن نتبع فيها ما كان عليه السلف من الصحابة والتابعين، وأن ندع هذه البحوث العقيمة التي أثارتها الدراسة الناقصة للفلسفة اليونانية البدائية السطحية.

* * *

الإيمان بالغيب

عالم الغيب

قدمنا في قواعد العقائد أن الحواس لا تصل إلى إدراك كل موجود وأن في الوجود عوالم حقيقية لا ندركها بحواسنا، أقربها إلينا الروح التي يحيا بها كل واحد منا. مَن ينكر وجود الروح؟ لا أحد. مَن أدرك ماهيّة الروح؟ لا أحد. فالعالَم المدرك المشاهَد هو الذي سماه القرآن «عالم الشهادة»، والعالم المغيَّب عن حواسنا، عالم ما وراء المادة[1] هو «عالم الغيب».

أما عالم الشهادة فيستوي في الإيمان به والتصديق بوجوده الناس جميعاً[2]، حتى الحيوان الأعجم يدرك بحسّه وجودَه، فلا فضل في الإيمان به لأحد على أحد لأن ذلك من العلم الضروري، ولكنّ الفضل في الإيمان بالغيب، في من يؤمن بما لا يراه ويصدّق بوجوده اعتماداً على صدق الخبر به.

(١) metaphysique

(٢) وإن كان منه ما لا يدركه البشر، كالأجرام السماوية البعيدة التي تفصلنا عنها ملايين السنين الضوئية، والضوء يقطع ثلاثمئة ألف كيل في الثانية، فقد يوجد جرم ويفنى قبل أن يصل ضوؤه إلينا.

وهذا ما يمتاز به المتقون، ولذلك جعل الله أول صفة وصف بها المتقين في أول سورة البقرة أنهم ﴿الذين يُؤمنون بالغيب﴾.

كيف نؤمن بالغيب؟

كيف نؤمن بالغيب ولم يعطنا الله الحواس التي ندركه بها؟ إننا لو تُركنا لحواسنا نعتمد عليها وحدها ولعقولنا نحكم بها على ما جاء من طريق الحواس فقط لبقينا على جهلنا بما وراء المادة، فكان من حكمة الله ومن رحمته بنا أنه لم يترك العقل في عجزه عن إدراكه، بل أخبره بما يحتاج إليه من خبرها.

وهذا الإخبار لا يأتي من داخل النفس، بل من خارجها، وليس من قبيل الحدس النفسي ولا الإلهام الروحي ولا الوميض الذهني ولا الاستنتاج العقلي. ليس صادراً عن الطاقة الإنسانية، ولكنه آتٍ من خارجها بطريق من الطرق الثلاثة:

الأول: أن يضع الله هذه الأخبار في الإنسان بإلهام أو بمنام، أو بنوع من التلّقي الذي لا عمل فيه للإنسان ولا يستطيع الوصول إليه باجتهاد، فيحس بها ويعبر عنها.

الثاني: بأن يسمعها من غير أن يرى قائلها الحقيقي، فتصل إلى أذنه ويدركها ويعيها.

الثالث (وهو الأعم الأكثر): أن يرسل الله واحداً من مخلوقاته الخيِّرة المطيعة المغيَّبة عنا، التي تسمى الملائكة، إلى واحد من البشر يختاره الله ويصطفيه، فيبلغه رسالة الله ويأمره أن يبلغها الناس.

فهذه ثلاثة طرق ليس لها رابع: ﴿وما كان لبشرٍ أن يُكلّمه الله

إلا وحياً، أو من وراء حجاب، أو يرسل رسولاً فيُوحي بإذنه ما يشاء﴾.

الغيب الذي يجب الإيمان به

والغيب الذي هو ركن الإيمان والذي يكفر مُنكره ويخرج من ملّة الإسلام هو ما جاء في القرآن، أما الغيب الذي ورد في السنة الصحيحة فلا يكفر منكره ويخرج من الملة، بل يفسق.

وهذا الفرق بين الكتاب والسنة يحتاج إلى شيء من البيان، ذلك أن ما أبلغه الرسول ﷺ من الوحي وما نطق به من الحديث هما في الأصل في درجة واحدة من الحجّية[١]. فالقرآن وحي من الله بلفظه ومعناه، والحديث وحي من الله بالمعنى واللفظ لفظ الرسول، قال تعالى: ﴿وما ينطِقُ عن الهوى، إنْ هو إلّا وَحيٌ يُوحَى﴾. والصحابة الذين سمعوا من الرسول ﷺ الآية يبلغها والحديث ينطق به لم يكونوا يفرِّقون بينهما في وجوب العمل وفي الحجية.

ولكن الفرق نشأ من الرواية والنقل، فالقرآن نُقل نقلاً متواتراً بحيث نجزم بأن النص الذي في المصحف هو الذي نزل به جبريل على محمد ﷺ وهو الذي بلّغه محمدٌ أصحابَه، ما نقص منه شيء[٢] ولا زيد فيه شيء ولا أبدل منه شيء. أما الحديث فنقل

---

(١) أي من قوة الاحتجاج بهما.

(٢) ومن اعتقد -من أتباع الفرق المنسوبة إلى الإسلام- أن الذي في المصاحف ليس القرآن كله وأن من القرآن ما ليس في المصاحف التي يتداولها المسلمون كفر وخرج من ملّة الإسلام، إلا ما كان من الآيات التي قال قوم إنها منسوخة التلاوة، ولم يثبت ذلك بخبر متواتر.

جلّه (إن لم نقل كلّه) آحاد عن آحاد، ولقد بذل علماء الحديث في تمحيص روايته والفحص عن رجاله أقصى ما تصل إليه الطاقة البشرية، ولكنا لا نقطع -مع ذلك- بأن الحديث الذي رواه البخاري ومسلم وأصحاب السنن قد قاله ﷺ وأنه نُقل بلفظه كما نقطع بأن ما في المصحف هو القرآن المنزل.

ولما كانت العقيدة أساس الدين ويترتب على الإخلال بها الكفر والردة، وكان لا يُحكم على مسلم بالردة ما دام في الأمر احتمال ألّا يكون كفر، لذلك قلنا: إن من أنكر عقيدة جاءت بصريح القرآن يكفر ومن أنكر عقيدة وردت في صحيح السنة يفسق ولا يكفر. هذا إنْ ردّها عناداً وخلافاً، أما إذا كان من أهل الحديث العارفين بعلله وردّ الحديث لعلّة في سنده أو متنه فلا شيء عليه.

المغيَّبات

المغيّبات التي أخبر بها الشرع ويجب بها الإيمان ويترتب على إنكارها الكفر هي الملائكة والجن، والكتب والرسل، واليوم الآخر وما فيه من الحساب وما بعده من الثواب والعقاب، والقدَر، وما جاء في القرآن عن خلق السماوات والأرض وخلق الإنسان، وكل ما أخبر به القرآن.

شبهة وردّها

الماديون الذي لا يؤمنون إلا بما يحسون به نرد عليهم بالقاعدة الثالثة من قواعد العقائد التي تبين أنه لا يُشترَط من عدم الوجدان عدم الوجود، وأنه لا يحق لنا أن ننكر أشياء لمجرد أننا لا نحس بوجودها، وبالقاعدة التي بيّنا فيها أن الخبر الصادق يفيد اليقين كما

يفيده الحس، وما دام قد ثبت صدق محمد ﷺ في إخباره عن الله وثبت نقل هذا الخبر إلينا فقد حصل من هنا اليقين لدينا -معشرَ المؤمنين- بوجود هذه المغيِّبات.

أقسام الغيب

عالم الغيب على أقسام، كل قسم منها يسمى غيباً:

١- قسم لم ندركه نحن ولكن أدركه غيرُنا من البشر، كقصة يوسف مثلاً، سمّاها الله غيباً لأن محمداً ﷺ وقومه لم يدركوها بحواسهم، لم يَرَوها ولم يسمعوا بها، ولكن بني إسرائيل (أعني أولاد يعقوب: يوسف وإخوته) أدركوها وعاشوها وكانت هي وقائع حياتهم.

٢- وقسم لم يدركه البشر، وإن كان من الممكن عقلاً أن يدركوه لو قدّم الله موعد إيجادهم، كالحوادث التي كانت في الأرض من قبلهم وأخبار المخلوقات التي كانت تسكنها، ولكنهم لم يعرفوا عنها في الواقع وعن أخبار خلق أبيهم آدم وبداية الحياة البشرية إلا ما جاءهم من طريق الوحي.

٣- وقسمٌ لا يمكن إدراكه بالحواس ولا الحكم عليه بالعقل ولا الإحاطة بحقيقته بالخيال، كصفات الله وما غيّبه عنا من مخلوقاته، كالملائكة والجن والشياطين وأحوال يوم القيامة وما بعده من الحساب والثواب والعقاب.

شبهة وردّها

قد يقول قائل: إن من أمور الغيب التي استأثر الله بها إنزال

الغيث والعلم بما في الأرحام، فكيف تخبر النشرة الجوية عن جوّ الغد، أصحوٌ أم ماطر؟ ويكشف العلم عمّا في بطن الحامل: هل هو ذكر أم أنثى؟

والجواب:

١- إن الذي أنزل القرآن هو الله وإن الذي خلق الكون وما يقع فيه هو الله، فلا يمكن أن يأتي في القرآن نص صريح قاطع بإنكار أمر قائم مشاهَد ملموس، فإذا وجدنا نصاً يظهر أنه مخالف للواقع ندقّق النظر فيه فنرى أن المعنى المقصود منه غير ما بدا لنا[١].

٢- النشرة الجوية إنما تُخبر عن المطر بعد رؤية أسبابه وتمام خلقه، وبيانُ ذلك أن المطر الذي ينزل في سواحل الشام مثلاً تبيّن من العلم بسنن الله في الكون أن سببه الهواء الذي يجيء من البحر الأطلسي، فيمر بمضيق جبل طارق، فيصطدم بكتلة هوائية راكدة، فتتشكل السحب من اختلاف درجة حرارة الهواء القادم والهواء الراكد. فإذا رأوه علموا -استناداً إلى معرفة سنن الله- أنه سيتوجه إلى ساحل الشام بعد كذا.

فهو كمَن شاهد موزِّع البريد من نافذته وقدّر متى يصل إلى

---

(١) وهذا إذا كان النص آية من القرآن. وليس في القرآن آية تدل دلالة قطعية على نفي أمر حكم العقل بوجوده حكماً قطعياً، وأما إن كان النص حديث آحاد (أي نقله واحد عن واحد) فإننا نجزم أن الرسول لم يقله، لأن الرسول صلوات الله عليه لا يقول ما يخالف القرآن ولا الواقع المحسوس.

داره، فقال لأهله: سيأتي موزع البريد بعد خمس دقائق. وكمن يحمل منظاراً يضعه على عينيه فيرى السيارة القادمة فيخبر بها قبل ظهورها للعيان، ما علم في الحقيقة الغيب، ولكنْ رأى الواقع قبل أن يراه غيره. ومثله من يخبر عن نوع الجنين بعد تشكيله.

وأما إنشاء السحاب وإنزالُ المطر في أرض كتب الله عليها الجفاف ومَنْعُه عن أرض أنزله الله عليها، ومعرفة جنس الجنين وهو لا يزال حُوَيْناً منوياً أو حويناً صادف بويضة، فهذا هو المراد من الآية والله أعلم.

* * *

الإيمان بالملائكة والجِنّ

الإيمان بالملائكة والرسل والكتب من أسس العقائد التي لا يكون الإنسان مؤمناً إلا بها. والملائكة رسل الله إلى الأنبياء، والأنبياء رسل الله إلى الناس، والكتب هي الرسالة التي حملها المَلك إلى الرسول ونقلها الرسول إلى الناس.

الوحي وإمكانه ولزومه

الوحي ممكن عقلاً، لأن الله قادر على خلق الملائكة واصطفاء الرسل وشرع الأحكام، لا يمنع العقل ذلك بعد أن آمن بوجود الله وقدرته وإرادته. وهو واقع فعلاً لأن الخبر الصادق ورد به، وقد قدّمنا أن الخبر الصادق طريق من طرق العلم (بمعنى اليقين) وأننا نوقن بما نصدق الخبر به كما نوقن بما نراه ونسمعه. وهو لازم، إذ لولاه لاقتصر البشر على عالم المادة ولجهلوا ما وراءه، ولكانوا كالأنعام والمواشي، يعيشون لدنياهم وحدها، لا يعرفون إلا الطعام والنكاح واللذائذ الجسدية، لا يتصلون بربهم ولا يعملون لآخرتهم، ولولاه لفقدوا السموّ الخلقي والرفعة الإنسانية.

ومهما أوردوا من نظريات في علم الأخلاق[١] وفي الأساس

(١) La morale

الذي تُبنى عليه فإن الأخلاق إذا لم تُبْنَ على أساس من العقيدة كان بناؤها على كثيب من الرمل، لأن الإنسان مفطور على حب نفسه وجلب النفع لها ودرء الأذى عنها، فلا يعمل عملاً لا يكون له فيه لذة أو كسب[1].

ولو أن رجلاً لا يملك إلا ديناراً يدّخره لعشائه ورأى صندوقاً لمساعدة الأيتام، هل يضع الدينار في الصندوق إذا كان لا يؤمن بالله واليوم الآخر ويبيت طاوياً ولا يخبر بذلك أحداً يراه؟ أما المؤمن فإنه يضعه في الصندوق لأنه يعلم أن الله يراه ويعطيه بدله سبعمئة دينار يوم القيامة، المؤمن وحده هو الذي يعمل الخير رآه الناس أم لم يَرَوه، شكروه أم لم يشكروه، أثابوه وعوّضوه عنه أم لم يثيبوه ولم يعوِّضوه. المؤمن وحده هو الذي يدع فعل الشر سواء أكان وحده أم كان مع الناس. أما الذي يعمل الخير للثناء أو للعطاء فلا يعمله إلا إذا وجد من يثني عليه ويعطيه، والذي يدع الشر خوف الفضيحة أو خشية العقاب لا يدعه إنْ أمن أن يبصره الشرطي أو يراه الناس.

ولو حاسب الله الناس في الآخرة على ذنوبهم ولم يرسل إليهم رسلاً يعرّفونهم شرع ربهم لاحتجّوا وقالوا: ﴿ربَّنا لولا أرسلتَ إلينا رسولاً فَنَتَّبِعَ آياتك﴾، ولادّعَوا أنهم لو بُلِّغوا الرسالة لعملوا بها ولو عرفوا الشريعة لاتّبعوها، فكانت الرسالات ﴿لئلا يكون للناس على الله حُجّةٌ بعدَ الرّسُل﴾.

---

(١) انظر كتاب الحكم Maxims لمؤلفه لاروش فوكلد Laroche Faucold

شبهة وردّها

يقول ناس: لماذا لم يهد الله الناس كلهم إلى طريق الجنة؟ ولماذا وضع في نفوسهم الشهوة ثم عاقبهم على الزنا، وغرز فيهم حب المال وحاسبهم على جمعه من غير الحلال؟

والجواب: أولاً: إن الله لا يقال له «لماذا؟» لأنه لا يُسأل عما يفعل ولأنه الحاكم المطلق، له الأمر وله الحكم. ثم إن هذا القول كقول طلاب المدرسة: لماذا لا يعطوننا أسئلة الامتحان من أول السنة، ولِمَ أخفوها عنا وكلّفونا الاستعداد لها؟ إنهم أخفوها ليجدّ الطالب ويقرأ المقرر كله، ولو أعطيناه أسئلة الامتحان من الآن لما بقي معنى للامتحان.

والدنيا دار ابتلاء. والابتلاء في لغة العرب الاختبار (الامتحان)، ليتميز الطائع من العاصي والمستقيم من المنحرف، ولولا حواجز السباق[1] لما بان الخائر الضعيف من الفارس المغوار.

ولو شاء الله لجعل الناس أمة واحدة، ولو أراد لخلقهم للطاعة الخالصة كما خلق الملائكة، ولكن هكذا شاء، ولا رادّ لما يشاء ولا يُسأل عما يفعل، ونواصينا بين يديه، ونحن ملك له راجعون إليه، ما لنا رب غيره ولا إله سواه، إن شاء عذّبنا وإن شاء عفا عنا، ونحن نسأل الله عفوه ورحمته ونعوذ به من عذابه، لأننا لا نستطيع أن نتخلص من عذابه إلا بعفوه ولا نستطيع أن ننال العفو إلا منه وحده.

---

(١) أي سباق الخيل.

وجود الملائكة ثابت وارد في القرآن، فمن أنكر شيئاً مما ورد في القرآن من خبرهم كفر، والذي ورد من خبرهم وصفتهم في القرآن هو:

١- أنهم خُلقوا قبل البشر، وخبّرهم ربّنا أنه ﴿جاعلٌ في الأرض خليفةً، قالوا: أتجعلُ فيها من يُفسد فيها ويَسفك الدماء؟﴾.

٢- أنهم خُلقوا للطاعة الخالصة: ﴿ونحن نُسبّح بحمدك ونُقدِّس لك﴾، فهم ﴿لا يَعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يُؤْمَرون﴾ ﴿ويُسبّحونَه وله يسجدون﴾ ﴿يُسبّحون بحمد ربهم ويُؤمنون به﴾.

٣- وأن الله لمّا أتمّ خلق آدم علّمه الأسماء[1] وامتحنهم بالسؤال عنها، فلم يعرفوها حتى أعلمَهم آدمُ بها، فلمّا بان فضله بذلك عليهم أمرهم بالسجود له، سجود تحية لا سجود عبادة.

٤- أنهم يتشكلون بأشكال مادية أحياناً ويظهرون بصورة بني آدم، ففي قصة مريم ﴿فأرسلنا إليها رُوحنَا فتمثَّل لها بشراً سَويّاً﴾. وضيوف إبراهيم كانوا ملائكة جاؤوا على صورة البشر، فقدم إليهم عشاءهم من لحم عجل سمين: ﴿فلما رأى أيديَهم لا تصل إليه نَكِرَهم وأوجسَ منهم خيفة. قالوا: لا تخفْ، إنّا أُرسلنا إلى قوم لوط﴾.

(١) لم يبين الله ما في هذه الأسماء، لكن الظاهر أنها أسماء الملائكة أو أسماء الأشياء الموجودة يومئذ، ولم يبين اللغة التي علّمه الأسماء بها.

٥- وأن مقرهم السماء ينزلون منها إلى الأرض[١] بأمر الله: ﴿وما نَتَنزّلُ إلا بأمر ربِّك﴾.

٦- وأنهم درجات وأصناف في أصل الخلقة وفي مقام العبودية، جعلهم الله ﴿رسلاً أولي أجنحة مَثْنَى وثُلاثَ ورُباع، يَزيد في الخلق ما يشاء﴾ ﴿وما منّا إلا له مقامٌ معلوم﴾.

فمنهم من ينزل بالوحي، وهو جبريل: ﴿قُل مَن كان عدُوّاً لجبريل فإنه نزَّله على قلبك بإذن الله﴾ ﴿وإنه لتنزيل رب العالمين، نزل به الروحُ الأمين على قلبك لتكونَ من المُنذرين﴾. ومنهم ملك الموت[٢] الموكل بقبض الأرواح: ﴿قُلْ يتوفّاكم مَلَك الموتِ الذي وُكِّل بكم﴾. ومنهم الذي ينفخ في الصور، ومنهم ميكال (ميكائيل)، ومنهم حملة العرش: ﴿والذين يحملون العرش﴾ ﴿ويحمل عرشَ ربك فوقهم يومئذ ثمانية﴾. ومنهم الموكلون بتنعيم أهل الجنة: ﴿والملائكةُ يدخلون عليهم من كل باب، سلامٌ عليكم بما صبرتم﴾، ومنهم المكلفون بتعذيب أهل النار: ﴿عليها ملائكةٌ غِلاظٌ شداد﴾، ومنهم من يسجل على الإنسان أعماله: ﴿ما يلفظ من قول إلا لديه رقيبٌ عتيدٌ﴾ ﴿وإنّ عليكم لَحافظين، كراماً كاتبين﴾، ومنهم من يسوق الإنسان للحساب يوم القيامة

(١) إذا كان في النجوم ما يحتاج الوصول إليه إلى مليار سنة ضوئية، والسماء أبعد من النجوم كلها قطعاً، فبأي سرعة كانوا ينزلون؟ إن العقل يعجز عن تصور هذه السرعة!

(٢) لم أجد -على كثرة ما بحثت- نصاً من كتاب أو سنة ثابتة أن اسمه عزرائيل.

ومن يشهد عليه: ﴿وجاءت كلّ نفسٍ معها سائقٌ وشهيد﴾.

٧- ومن أعمالهم التي خبّر القرآن عنها أنهم يثبّتون المؤمنين في المعارك: ﴿إذ يُوحي ربُّك إلى الملائكة أنّي معكم فثبِّتُوا الذين آمنوا﴾. وأنهم يدعون لهم ويصلّون عليهم ويستغفرون لهم: ﴿هو الذي يصلّي عليكم وملائكته﴾ ﴿ويستغفرون للذين آمنوا، ربنا وسعت كلَّ شيء رحمة وعلماً فاغفر للذين تابوا واتبعوا سبيلك وقِهِمْ عذاب الجحيم، ربنا وأدخلهم جناتِ عَدْن التي وعدتهم ومن صَلَح من آبائهم وأزواجهم وذرّياتهم، إنك أنت العزيز الحكيم. وقِهِمُ السيئات، ومَنْ تَقِ السيئات يومَئذٍ فقد رحمته﴾.

وأنهم يشهدون صلاة الفجر مع المؤمنين: ﴿إن قرآن الفجر كان مشهوداً﴾. ويبشرون المؤمنين عند الموت ويؤنّبون العاصين: ﴿إن الذين قالوا ربُّنا الله ثم استقاموا تتنزّل عليهم الملائكة ألّا تخافوا ولا تحزنوا وأبشروا﴾ ﴿إن الذين تَوَفّاهُمُ الملائكة ظالمي أنفسهم قالوا فيمَ كنتم...﴾ ﴿ولو ترى إذ يتوفى الذين كفروا الملائكةُ يضربون وجوهَهم وأدبارَهم﴾، ويسوقونهم من بعدُ إلى النار ويوبّخونهم: ﴿وسيقَ الذين كفروا إلى جهنم زُمَراً. حتى إذا جاؤوها فُتحت أبوابُها وقال لهم خَزَنَتُها: ألم يأتِكم رُسلٌ منكم يَتلون عليكم آياتِ ربكم ويُنذرونكم لقاء يومكم هذا؟ قالوا: بلى، ولكن حقَّت كلمةُ العذاب على الكافرين. قيل ادخلوا أبواب جهنم خالدين فيها، فبئس مثوى المُتكبّرين﴾. ويستقبلون أهل الجنة ويرحبون بهم: ﴿وسيقَ الذين اتّقَوا ربّهم إلى الجنّة زُمَراً، حتى إذا جاؤوها وفُتحت أبوابُها وقال لهم خَزَنتُها سلامٌ عليكم طِبتُم فادخُلوها خالدين﴾. وأنهم لا يتناكحون ولا يتناسلون ولا

يوصفون بذكورة ولا أنوثة.

هذا جُلّ ما جاء في القرآن من خبر الملائكة، وفي السُّنة الصحيحة كثير من أخبارهم جاءت في أحاديث آحاد، لكن صحت روايتها وثبت سندها.

ومن أنكر شيئاً مما ورد في القرآن عن الملائكة أو غيرهم كفر، فالإيمان بالملائكة أحد أركان العقائد الإسلامية: ﴿آمَنَ الرسول بما أُنزِل إليه من ربّه والمؤمنون كلٌّ آمن بالله وملائكته وكُتبه ورُسلِه﴾.

ثمرة الإيمان بالملائكة

ازدياد الشعور بعظمة الله واستشعار رحمته، إذ وكّل الملائكة بالدعاء للمؤمنين والاستغفار لهم والتحرز عما أمكن من المعاصي، حين يتذكر أنهم يسجّلون عليه كل ما يقوله ويفعله، والإقدام والشجاعة في الجهاد حين يتصور أنهم يؤيدون المجاهدين بأمر رب العالمين، والعمل للجنة ليكون ممن يسلّمون عليه، والبعد عن أسباب دخول النار لئلا يكون ممن يوبّخونه. ومن ثمراته الإجمالية التشبه بهم في لزوم الطاعة واجتناب العصيان وتقوية الجانب الملائكي في الإنسان.

الجن

خبّر الله في القرآن بأنه خلق خلقاً آخر تعجز عيوننا عن رؤيتهم على صورهم الأصلية (كما تعجز عن رؤية الملائكة، ورؤية الأشعة التي هي فوق البنفسجية وتحت الحمراء، ورؤية

الموجات الصوتية، ورؤية التيار الكهربائي وهو يمشي في سلك النحاس) وهذا الخلق هو الجن. والذي يجب الإيمان به ويكفر منكره هو ما جاء من أخبارهم في القرآن، وإن لم يخصّصه الله بالذكر ويجعله من أركان الإيمان صراحة كالإيمان بالملائكة.

الجن في القرآن

١- خبّر القرآن أن الجن خُلقوا من النار. ولا يلزم من هذا أن يكونوا ناراً تحرق ما تمسّه، ولا يمنع أن يكون الله قد حوّلهم فيما بعد إلى طبيعة أخرى، فالإنسان خُلق من طين ولكنه لم يبقَ طيناً بل أنشأه الله خلقاً آخر، فجعله مركباً من عظام ودم وأعصاب على سنة الله في الكون، إذ يحوّل المخلوقات من حال إلى حال، فيجعل من الخلية أحياء مختلفي الصفات والهيئات والطبائع، ويجعل من البذرة اليابسة شجرة خضراء الأوراق ملونة الأزهار.

٢- وخبّر أنهم خُلقوا قبل خلق الإنسان: ﴿والجانَّ خلقناه من قبلُ من نار السَّموم﴾.

٣- وأنهم يروننا ولا نراهم. وليس في هذا عجب، فمن كان بيده المنظار رأى الشخص البعيد وذلك الشخص لا يراه، ونحن في الدنيا وُفقنا إلى صنع آلات كالرائي (التلفزيون) والهاتف المرئي، نرى منها المتحدث وهو لا يرانا. قال: ﴿إنه يراكم هو وقَبيلُه من حيثُ لا ترَونهم﴾.

٤- وأنهم مكلَّفون مثلنا، يحاسبون على أعمالهم كما نحاسَب ويُثابون ويُعاقبون كما نثاب نحن ونعاقب، وأن جهنم

(والعياذ بالله منها) تمتلئ بالجن والإنس معاً، قال تعالى: ﴿وما خلقتُ الجنَّ والإنسَ إلا ليعبدون﴾ ﴿وتمت كلمة ربِّكَ لأملأَن جهنم من الجِنَّة والناس أجمعين﴾.

٥- وأن رسالة محمد ﷺ بَلَغتهم كما بلغتهم من قبلها رسالة موسى: ﴿قالوا: يا قومنا إنا سمعنا كتاباً أُنزل من بعد موسى مصدِّقاً لما بين يديه يهدي إلى الحقِّ وإلى طريق مستقيم﴾.

٦- وأنه كان منهم الصالحون والعاصون، وأنهم كالبشر أصناف: ﴿وأنّا منا الصالحون ومِنّا دون ذلك، كنّا طرائقَ قِدَداً... وأنّا مِنّا المسلمون ومنا القاسطون﴾.

٧- وأن الله سخرهم لسليمان: ﴿يعملون له ما يشاء من محاريب وتماثيل[1] وجِفان كالجَواب وقدور راسيات﴾.

٨- وأنهم لا يعلمون الغيب، لذلك لبثوا يعملون لسليمان بعدما مات: ﴿ما دلَّهم على موته إلا دابّةُ الأرض تأكل مِنسأتَهُ، فلما خَرَّ تبيَّنَت الجنُّ أن لو كانوا يعلمون الغيبَ ما لبثوا في العذاب المهين﴾.

٩- وأن الله تحداهم (كما تحدى البشر) أن يأتوا بمثل القرآن: ﴿قل: لئن اجتمعت الإنسُ والجِنُّ على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتونَ بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظَهيراً﴾.

---

(١) التماثيل بالمعنى المعروف، وهي الصور المجسمة، وهي محرَّمة قطعاً في ديننا.

١٠- وأنهم كانوا يتحسسون أخبار السماء من الملائكة، فلما جاء الإسلام مُنعوا من ذلك ورُمُوا بالشهب: ﴿وأنّا كنا نقعد منها مقاعدَ للسَّمع، فمَن يستمعِ الآن يَجِدْ له شهاباً رَصَداً﴾.

الشياطين

وهم كفار الجن، أبوهم إبليس. وقد قال قوم أن إبليس من الملائكة، ولكن الصحيح أنه من الجن. أولاً لأن الله صرح بذلك في القرآن فقال: ﴿فسجدوا إلا إبليسَ كان من الجنِّ ففسقَ عن أمر ربّه﴾. ثانياً: لأن إبليس عصى ربه، والملائكة لا يعصون الله ما أمرهم. ثالثاً: لأن القرآن صرّح بأنه خُلق من النار: ﴿قال أنا خيرٌ منه خلقتني من نار وخلقتَه من طين﴾.

الشياطين في القرآن:

١- الشيطان هو العدو الأول للبشر، أخرج أباهم من الجنة، وهو يعمل على منعهم من دخولها ويبعدهم عن طريقها ويغريهم بسلوك طريق النار، وهم -مع ذلك- يتبعونه ويدَعون شرع الله إلى وسواسه وهديَ الأنبياء إلى ضلاله.

وقد وبّخهم الله على فعلهم وعلى هذه الحماقة منهم، إذ يستجيبون لعدوهم الذي يريد العذاب لهم ولا يستجيبون لربهم الذي يدعوهم ليغفر لهم ويرحمهم: ﴿أفتتّخذونه وذُريّتَه أولياءَ من دوني وهم لكم عدو؟ بئس للظالمين بَدَلاً﴾.

٢- دلت هذه الآية على أن الشياطين يتناسلون وتكون لهم ذرية وأنهم جميعاً ذرية إبليس.

٣- سلط الله الشيطان على الناس، ولكنه لم يعطه القدرة على النفع والضرر ولم يمنحه القوة التي لا تُدفع، بل أعطاه الكيد: ﴿إنّ كيدَ الشيطان كان ضعيفاً﴾ ﴿وليس بضارِّهم شيئاً إلا بإذن الله﴾ ﴿وما كان له عليهم من سُلطان﴾.

٤- عمَلُه الوسواس والإغراء بالشر والدعوة إلى القبائح: ﴿يعدكم الفقر ويأمركم بالفحشاء﴾ ﴿يَعِدُهم ويُمنِّيهم، وما يعدُهم الشيطان إلا غُروراً﴾. يحملهم على الخمر والميسر وأمثالها، وأمثالُها ﴿رجسٌ من عمل الشيطان﴾. برنامجه كله ينحصر في الشر والفحش والخلاف، وأول مادة في هذا البرنامج وأول ما فتن به آدم وحواء التكشّف والتعرّي ولبس القصير من الثياب: ﴿يا بني آدم لا يفتِنَنّكمُ الشيطان كما أخرج أبوَيْكُم من الجنَّة، ينزِعُ عنهما لباسَهما لِيُريَهما سَوْءاتهما﴾. فكان نزع الثياب وإبداء العوارت أول مادة في هذا القانون الشيطاني.

ومن شأن إبليس أن يحسّن في عيون أتباعه السيئ حتى يروه حسناً ويجمّل لهم القبيح فلا يبصروه قبيحاً: ﴿وزيَّنَ لهم الشيطانُ ما كانوا يعملون﴾. ومن شأنه أن يدفع أولياءه إلى إثارة الشُّبَه في وجوه المؤمنين وشَغلهم عن دعوتهم، دعوة الحق، بالجدال والمراء. وقد نبهنا الله إلى ذلك وقال لنا: ﴿وإنّ الشياطين لَيوحون إلى أوليائهم ليجادلوكم﴾ فلا تستجيبوا لهم ولا تسقطوا في شركهم ﴿وإنْ أطعتُموهم إنكم لَمشركون﴾. ومن شأنه أن يشغل المؤمن عن ذكر ربه حتى ينساه فيُقْدم على المعاصي، فالعاصون ﴿استحوذ عليهم الشيطانُ فأنساهُم ذِكْرَ الله﴾. ولكن ﴿الذين اتّقوَا إذا مسَّهم طائفٌ من الشيطان﴾ فأنساهم ربهم ﴿تذكروا فإذا هم مبصرون﴾.

٥- لكن الشيطان رغم دأبه على الإفساد وثباته على عداوة بني آدم، وأنه يأتيهم عن أَيمانهم وعن شمائلهم ومن أمامهم ومن خلفهم، وأنه يقعد لهم كل مرصد، وأنه يستفزّهم بصوته ويَجلب عليهم بخيله ورجله وأنه يشاركهم في الأموال والأولاد... إنه على هذا كله لا يملك إلا الوسواس والإغراء بالشر، لا يقدر على نفع لهم ولا ضر، وحين يتجادل الكفار والشياطين في الآخرة يقول لهم: ﴿وما كان لي عليكم من سلطان إلا أن دعوتكم فاستجبتُم لي، فلا تَلوموني ولوموا أنفسكم﴾.

ولمّا دعا إبليس ربه أن يؤجل موته وأجابه: ﴿قال ربِّ بما أغويتَني لَأُزيّنَنَ لهم في الأرض ولَأُغوِيَنَّهم أجمعين، إلا عبادك منهمُ المُخلَصين﴾ قال الله عزّ وجل: ﴿هذا صراطٌ عليَّ مستقيم، إنّ عبادي ليس لك عليهم سلطانٌ إلا من اتَّبَعك من الغاوين، إنه ليس له سلطانٌ على الذين آمنوا وعلى ربِّهم يتوكّلون، إنّما سلطانُه على الذين يتولَّونه والذين هم به مُشركون﴾.

٦- وهو يَخذل أتباعه ويتخلى في ساعة العسرة عنهم ويخون عهدهم: ﴿وإذ زَيَّنَ لهم الشيطانُ أعمالهم وقال[١] لا غالبَ لكم اليوم من الناس وإني جارٌ لكم، فلما تراءت الفئتان نكصَ على عقبيه وقال إني بريءٌ منكم، إني أرى ما لا ترون﴾، يعني الملائكة التي نزلت يومئذ لتأييد المؤمنين. ﴿كمثل الشيطان إذ قال للإنسان اكفُر، فلما كفرَ قال إني بريءٌ منك، إني أخاف الله﴾.

---

(١) أي يوم بدر للمشركين من أهل مكة.

شياطين الإنس

هذا بعض ما ورد في القرآن الكريم من صفات الشيطان، إنه يعمل على نشر الكفر وإذاعة الفاحشة وكشف العورات، يزيّن للناس ما هم عليه من القبيح ويحسّنه لهم حتى يقيموا عليه ولا يتحولّوا عنه، يثير الشُّبَه ويجادل بالباطل ويوقع العداوة بين المسلمين ويفرّق جمعهم، حتى إذا استجابوا له واتبعوه واحتاجوا يوماً إلى نصره ومعونته فاستعانوا به واستنصروه تخلى عنهم وتبرأ منهم.

وكل من تخلق بهذه الأخلاق من الناس كان حكمه حكم الشيطان: ﴿قل أعوذُ بربِّ الناس، مَلِكِ الناس، إله الناس، من شرّ الوسواس الخنّاس الذي يُوسوس في صُدور الناس، من الجِنَّة والناس﴾.

فمن رغّب بالفاحشة وزيّنها للناس، بالصور العارية أو القصص الداعرة أو الأدب المكشوف، فهو من شياطين الإنس. ومن دعا إلى عصبية جاهلية، من الجاهلية الأولى أو الجاهلية الجديدة، تجعل أمة محمد أمماً وتحيل وحدتهم تفرّقاً، فهو من شياطين الإنس. ومن صرف الناس عن طريق الجنة إلى طريق النار وأنساهم ذكر الله واليوم الآخر فهو من شياطين الإنس: ﴿وقل ربِّ أعوذُ بك من هَمَزات الشياطين، وأعوذ بك ربِّ أن يَحضُرون﴾.

* * *

الإيمان بالرُّسُل

وأول ما يقرره القرآن أن الملائكة والجن والرسل خَلقٌ من خلق الله، كلهم عباده، وهو أوجدهم وهو المتصرف فيهم، وأنهم لا يملكون لأنفسهم (فضلاً عن غيرهم) نفعاً ولا ضراً إلا بإذن الله.

الرسل جميعاً بشر، يولدون كما يولَد البشر ويموتون كما يموتون ويمرضون مثلهم ويصحّون[١]، لا يختلفون عنهم في تكوين أجسادهم ولا في تصوير أعضائهم ولا في جَرَيان دمائهم وحركات قلوبهم، يأكلون ويشربون كما يأكل الناس ويشربون.

ليس فيهم شيء من الألوهية لأن الألوهية لله وحده، ولكنهم بشر يوحَى إليهم. وقد عجبت الأمم الأولى من الوحي فقال لهم الله عزّ وجل رادّاً عليهم مبيِّناً أنه لا مكان لعجبهم: ﴿أكان للنّاس عَجَباً أن أوحَيْنا إلى رجُل منهم أن أنْذِرِ النّاسَ وبشِّرِ الذين آمنوا؟﴾

---

(١) الرسل جميعاً بشر، يشبهون البشر في كل شيء إلا ما كان من ذلك منافياً لاصطفائهم للرسالة، كالأمراض المشوِّهة المنفرة أو المانعة من القيام بالدعوة.

وعجبوا أن يكون الرسول من البشر ومنعهم من الإيمان ﴿أن قالوا: أبَعَثَ الله بشراً رسولاً؟﴾ فردّ الله عليهم بأن الرسول إنما يكون من جنس مَن أُرسل إليهم، فالبشر يُرسل إليهم رسول من البشر: ﴿لو كان في الأرض ملائكةٌ يَمشون مُطْمئِنّين لنزَّلنا عليهم من السماء مَلَكاً رسولاً﴾.

وناقشوا رسلهم: ﴿قالوا إن أنتم إلا بشرٌ مثلنا... قالت لهم رُسُلهم إنْ نحن إلا بشرٌ مثلكم، ولكن الله يَمُنُّ على من يشاء من عباده﴾، وقد مَنَّ علينا فأوحى إلينا الشريعة وأمرنا بتبليغها.

﴿وقالوا: ما لهذا الرسول يأكلُ الطعامَ ويمشي في الأسواق؟ لولا أُنزل إليه مَلَكٌ فيكون معه نذيرا﴾، فردّ الله عليهم مخاطباً رسوله محمداً ﷺ: ﴿وما أرسلنا قبلك من المرسَلين إلا إنهم لَيَأكلون الطعامَ ويمشون في الأسواق﴾. وقال لهم رداً عليهم: ﴿وقالوا لولا أُنزل عليه ملكٌ، ولو أنزلنا ملكاً لقُضي الأمرُ ثم لا يُنظَرون. ولو جعلناه مَلَكاً لجعلناهُ رجلاً[1] ولَلَبسْنا عليهم ما يَلبِسون﴾.

حقيقة الرسول

الرسول بشر يمتاز بالوحي، وقد قال تعالى لمحمد ﷺ: ﴿قل إنّما أنا بشرٌ مثلُكم يوحَى إليّ﴾. وقد أكد بشريّتَه باستعمال «إنما»، وهي تفيد الحصر والقصر وتنفي عنه ما ينافي البشرية، ثم أكدها مرة ثانية بقوله «مثلكم».

(١) أي على هيئة رجل.

هو مثلنا في تكوين جسده وطبيعة خلقه، ولكنا لسنا جميعاً مثله في خُلُقه ولا في مزاياه ولا في عظمته، ولو لم يكن محمد خاتم الأنبياء لكان -بلا جدال- أعظمَ العظماء وبطل الأبطال.

فإذا كان بشراً مثلنا يجوز عليه ما يجوز علينا، فهل يخطئ كما نخطئ؟ والجواب:

١- إن الخطأ إما أن يكون في مجال التبليغ عن الله وفي بيان الشريعة، وهذا النوع من الخطأ يستحيل وقوعه من الرسل جميعاً لأن الرسول ﴿لا ينطق﴾ إذا بلّغ عن الله أو بيّن شريعته ﴿عن الهوى، إنْ هو إلا وَحْيٌ يُوحَى﴾، والله يقول: ﴿يا أيّها الناسُ قد جاءكم الرسول بالحق من ربكم﴾.

ويستحيل أن تقع من الرسول -بعد رسالته- معصية أو يأتي ما يجرح العدالة أو يُخِلّ بالمروءة أو ينافي الكمال، لأن الله جعله قدوة وأمر المسلمين أن يتأسّوا به وأن يتبعوه في فعله: ﴿لقد كان لكم في رسول الله أُسْوةٌ حسنةٌ﴾، وهذه الأسوة ثابتة للرسل جميعاً: ﴿لقد كان لكم فيهم أُسوةٌ حسنةٌ﴾، وذلك يقتضي العصمة من ارتكاب المعاصي وإتيان النقائص.

٢- وإما أن يكون الخطأ في أمر شرعي اجتهد فيه الرسول ولم ينزل عليه فيه شيء من ربه. وهذا النوع من الخطأ ممكنٌ وقوعُه من الرسل، ولكن الله لا يقرّهم على الخطأ بل يبيّن لهم وجه الصواب فيه، كما وقع من الرسول في قصة الأعمى وفي قصة أسرى بدر، اجتهد فبيّنَ الله له أنه لم يُصِبْ في اجتهاده.

وقد فكرت في موقف الرسول ﷺ يوم جاءه الأعمى وقلت

لنفسي: لو لم ينزل الله هذه الآيات من سورى «عبس» وعُرض موقفه على عقلاء الدنيا وساستها وعلمائها، هل كان فيهم أحد يقول بأن في موقف الرسول ﷺ ما يُنتقَد أم يقرر الجميع أن الذي فعله هو عين الصواب؟ رجال من كبار القوم يتألّفهم ويحاول أن يكسبهم لنصرة الدعوة، فيأتي واحد من أتباعه يسأله عن مسألة ليست مستعجَلة ولا ينشأ عن تأخيرها ضرر وهو يستطيع أن يسأل عنها في كل وقت، فيُرجئ جوابه حتى ينتهي مما هو فيه. هل يفعل أحدٌ من الناس غيرَ هذا؟ هل في الدنيا من لا يقول بأن عمل الرسول هو الذي يرونه الصواب؟

إنه هو الصواب في مقياس المنطق البشري، ولكنْ لمّا نزل الوحي بمقياس آخر تبيّنَ أن ميزان الله أقوم من موازين الناس وأن حكم من خَلَق العقل أصحّ من حكم العقل، بل هو الحكم القويم وحكم العقل هنا هو المعوجّ المنحرف.

ومثل هذا يقال في موقفه ﷺ يوم أسرى بدر، أي أن ما وقع منه ﷺ إنما كان خطأ بالنسبة لحكم الله، ولو لم ينزل الوحي بتخطئته لكان عند أعقل الناس صواباً. فليس في ذلك خطأ بالمعنى المعروف وقع من محمد بوصفه عظيماً من عظماء البشر، بل إن فيه الدليل على أن وحي السماء فوق حكمة الأرض.

٣- وإما أن يكون الخطأ في أمر من الأمور الإدارية والحربية، وهذا أيضاً ممكنٌ وقوعُه لأن الرسول بشر يفكر في هذه الأمور تفكيراً بشرياً، وقد كان الصحابة يسألونه في مثل هذه الأحوال: هل القرار الذي قرره بأمر من الله ووحي أو باجتهاد منه؟

فإن خبّرهم بأنه ليس لديه فيه أمر من الله وأنه رأي شخصي عرضوا عليه آراءهم فأخذ بها أو ردّها.

كما وقع في حادثة اختيار المعسكر يوم بدر، إذ قالوا له: يا رسول الله، أهذا منزل أنزلَكَه الله ليس لنا أن نتقدم عنه أو نتأخر، أم هو الرأي والمكيدة؟ فلما بين لهم أنه رأيه الشخصي عرضوا عليه رأياً غيره، فأخذ به وعدل عن رأيه. ووقع مثل ذلك في حفر الخندق وفي حادثة الصلح مع غطفان في تلك المعركة.

٤- أما الأمور الدنيوية الخالصة فكان الرسول يتكلم فيها برأيه الشخصي، وقد يخطئ في الأمور الصناعية والزراعية والطبيّة التي لا يعرفها في العادة إلا أهلها، كما أخطأ في مسألة تأبير (أي تلقيح) النخل. وليس في هذا عيب أو نقص، لأنه لا يُطلَب من العظيم (ولو كان عالماً، ولو كان أكبر علماء الدنيا) أن يعرف كل الذي يعرفه أرباب الصناعات ورجال الزراعة والتجارة وسائر المهن.

ومسألة تلقيح النخل مسألة زراعية فرعية أبدى فيها ﷺ رأيا عارضاً، لم يُلزمهم به ولم يحملهم عليه ولم يقل لهم أنه من الدين وأن الله أوحى به، فلما تبين له خطؤه قال: «أنتم أعرف بأمور دنياكم»[(١)].

---

(١) ولعل الحديث الوارد في الذباب إذا سقط في الإناء من هذا القبيل، والدليل على ذلك أنه لم يقل أحد من العلماء أنّ غمس جناحَي الذبابة واجب وأن مخالفة هذا الأمر وعدم غمسه حرام.

الرسول لا يعلم الغيب

القرآن قد صرّح بأن الرسول لا يعلم الغيب وأمر الله الرسولَ في القرآن أن يخبر الناس بأنه لا يعلم الغيب: ﴿قُل: لا أقول لكم عندي خزائن الله ولا أعلمُ الغيب ولا أقول إني مَلَكٌ، إن أتَّبعُ إلا ما يُوحَى إليّ﴾ ﴿قُل: لا أملك لنفسي نفعاً ولا ضراً إلا ما شاء الله، ولو كنت أعلمُ الغيب لاستكثرتُ من الخير وما مسّنيَ السُّوءُ، إنْ أنا إلا نذيرٌ وبشيرٌ لقوم يُؤمنون﴾.

فخبّر الناس بذلك وتلا عليهم هذه الآيات، وبقيت قرآناً يُتلى في المساجد ويُقرأ به في الصوات.

الرسل كثيرون وأصول الرسالات واحدة

بيّن الله في القرآن أن لكل أمة من الأمم رسولاً أرسله الله إليها: ﴿وإنْ مِنْ أُمّةٍ إلا خلا فيها نذيرٌ﴾ ﴿ولكل أمّةٍ رسول﴾. ولكن الله لم يذكرهم جميعاً في القرآن، بل ذكر بعضاً منهم: ﴿ورُسُلاً قد قَصَصْناهُم عليك من قبلُ ورسلاً لم نَقْصُصْهم عليك﴾.

ولكنهم جميعاً بُعثوا بتوحيد الله والتصديق باليوم الآخر واتباع ما شرع الله، فأصول الإسلام هي نفسها أصول الديانات السابقة التي بُعث بها الرسل الأولون: ﴿شرع لكم من الدين ما وصّى به نوحاً والذي أوحينا إليك وما وصَّيْنا به إبراهيم وموسى وعيسى، أن أقيموا الدينَ ولا تتفرَّقوا فيه﴾.

أرسل كل رسول إلى قومه وجعل رسالته إليهم بلسانهم

ليكلّمهم ويُفهِمهم: ﴿وما أسلنا من رسول إلا بلسان قومِه ليُبَيِّن لهم﴾، وختم هذه الرسالات برسالة محمد ﷺ وجعلها عامة للناس جميعاً وجعله خاتم النبيين، فلا نبيَّ بعده ولا وحيَ ينزل من السماء بعد أن انقطع بموته، وكان بها كمال الدين وإتمام النعمة: ﴿اليومَ أكملتُ لكم دينكم وأتممتُ عليكم نعمتي ورضيتُ لكم الإسلامَ ديناً﴾.

سؤال وجوابه

قد يسأل سائل: كيف كانت رسالة محمد للناس كلهم وكانت رسالة كل رسول إلى قومه، وكيف بقيت إلى يوم القيامة لا تُنسَخ ولا تُعدَّل وقد نُسخت الشرائع من قبلها وعُدّلت؟

والجواب والله أعلم: إن شريعة الإسلام جاءت مرنة تصلح لكل زمان ومكان. وبيان ذلك أن العقائد والعبادات في الإسلام جاءت بها نصوص قطعية مفصّلة لا تقبل التعديل ولا التبديل، لأن العقائد والعبادات لا تتبدل بتبدل الأزمان ولا تختلف باختلاف الأعراف.

والأوضاع الدستورية والمعاملات المالية والأحوال الإدارية التي يؤثر فيها تبدل الزمان واختلاف العرف جاءت فيها نصوص عامة هي كالأساس والدعائم في البناء، وتُرك لنا أن نضع لكل زمان ما يصلح له بشرط المحافظة على هذه القواعد. وأمثّل على ذلك بأمثلة أعرضها عرضاً موجزاً:

من الأمثلة أن الإسلام أوجب أن يكون الحاكم منتخَباً برأي الأمة وأن يكون فيه من الصفات ما يمكّنه من القيام بأعباء الحكم،

وأن يلتزم بالدستور الإسلامي الذي هو القرآن، وأن يستشير أهل الحل والعقد. وترك لنا تحديد أسلوب الانتخاب (أي البيعة) وطريقة تعيين أهل الحل والعقد وكيفية الاستشارة، إلخ. وألزَمَنا أن نحكم بين الناس بالعدل، ولكنه ترك لنا رسم الطريق الموصل إلى العدل وأن نحدد أسلوب تعيين القضاة وأصول المرافعات.

ووضع للعقود قواعد عامة تضمن أهلية المتعاقدين وحريتهما وصحة صيغة العقد وتعبيرها عن إرادتهما ومحل العقد، ومنع أنواعاً من العقود فيها مضرة عامة أو فيها تغرير بأحد الطرفين، وترك لنا تنظيم الأوضاع التفصيلية للعقود بأنواعها. وجعل الأعمال الفردية والمعاملات المالية جائزة مباحة، لا تحرم إلا إن ورد بنص تحريمها أو دخلت تحت أصل محرَّم.

وفتح لنا باب الاستصلاح، فكل أمر فيه مصلحة للمجتمع وليس في الشرع ما يوجبه أو ينهى عنه إذا أمر به الحاكم المسلم صار واجباً دينياً، كالقوانين المالية وقانون أصول المحاكمات والأنظمة الإدارية، كنظام السير ونظام البلديات وأمثالها.

فالإسلام فيه من المرونة ما يجعله صالحاً لكل زمان ومكان، ولكن بعض الفقهاء المتأخرين (لضيق أذهانهم) يضيّقون على الناس ما وسّعه الشرع حتى يَضطروهم (كما قال ابن القيم في كتاب «الطرق الحكمية») إلى ابتغاء التوسعة في غير ما جاء به الإسلام.

وسبب آخر: هو أن الأمم كانت على عهود الرسل الأولين تعيش في عزلة، لا تقاربَ بينها ولا اتصال إلا على الدواب

والجمال، فتعارفت الأمم بعد رسالة محمد ﷺ، ودنا البعيد وطُويت للمسافر الأرض، حتى وصلنا إلى زمان تُلقى فيه الخطبة في أميركا فيسمعها من في الصين قبل من كان قاعداً أمام الخطيب(١)، وصارت الدنيا كأنها بلد واحد والأمم كلها أمة واحدة، ولو أن المسلمين قاموا بما يجب عليهم من الدعوة لدينهم وتبليغ رسالة الإسلام لَعَمَّت هذه الدعوةُ الأرضَ كلها.

الإسلام لا يفرق بين الرسل

وإذا كان في أتباع الأنبياء (ممّن يدّعون الانتساب إلى واحد منهم) من يطعن على غير نبيه فإن الإسلام أوجب على المسلم تعظيم الأنبياء والرسل جميعاً، فإذا أساء القولَ في واحد منهم أو طعن عليه خالف طريق الإسلام: ﴿آمَنَ الرسول بما أُنزل إليه من ربّه والمؤمنون، كلٌّ آمَنَ بالله وملائكته وكتبه ورسله، لا نُفرّقُ بين أحدٍ من رُسُلِهِ، وقالوا سمعنا وأطَعنا غُفرانَك ربَّنا وإليك المصير﴾.

فالمسلم يحب موسى وعيسى وغيرَهما كما يحب محمداً، ويجلّهم ويكبرهم كإكباره محمداً وإجلاله. واليهودي الذي دخل النصرانية لمّا جاء بها المسيح لم يخسر موسى ولكنه ربح معه عيسى، والنصراني الذي يدخل اليوم في الإسلام لا يخسر عيسى وموسى ولكن يربح معهما محمداً، صلى الله على محمد وعلى جميع الأنبياء والمرسلين.

---

(١) هذه حقيقة، لأن انتقالها عن طريق الموجات الإذاعية أسرع من انتقالها عن طريق الاهتزازات الهوائية.

الرسل في القرآن

المسلم يعتقد أن القرآن كلام الله، نزل به جبريل على محمد وبلّغه محمد كما سمعه من جبريل، وأن ما بين دفّتَي المصحف هو القرآن كله كما نزل به جبريل، فمن أنكر شيئاً منه أو شكّ فيه خرج من الإسلام.

وقد ورد في القرآن ذكر خمسة وعشرين نبياً جُمعت أسماؤهم في خمس آيات، هي قوله تعالى: ﴿وتلك حُجّتنا آتيناها إبراهيمَ على قومه، نرفعُ درجاتٍ مَن نشاء، إنّ ربك حكيمٌ عليمٌ. ووهبنا له إسحاقَ ويعقوبَ كُلّاً هدينا، ونوحاً هدينا من قبل، ومن ذريته داودَ وسليمانَ وأيوبَ ويوسفَ وموسى وهارونَ، وكذلك نجزي المحسنين. وزكريا ويحيى وعيسى وإلياس، كلٌّ من الصالحين. وإسماعيل واليَسَع ويونس ولوطاً، وكُلّاً فضّلْنا على العالمين﴾. وقوله تعالى: ﴿واذكر في الكتاب إدريسَ إنّه كان صِدّيقاً نبيّاً، ورفعناه مكاناً عَلِيًّا﴾. وقوله: ﴿وإلى عاد أخوهم هوداً﴾ ﴿وإلى ثمود أخاهم صالحاً﴾ ﴿وإلى مَديَنَ أخاهم شعيباً﴾ ﴿وإسماعيل وإدريس وذا الكفل كُلٌّ من الصّابرين﴾. وذكر آدم ولم يصرّح بأنه كان رسولاً، ولكن قد تدل الآيات التي ذُكر فيها على ترجيح القول برسالته.

خمسة وعشرون، منهم من اقتصر على ذكر اسمه كإدريس وذي الكفل، ومنهم من أورد قصته موجزة كإسماعيل وإسحاق ويونس، ومنهم من أورد قصته مفصَّلة كإبراهيم وموسى ويوسف وعيسى. وكل ما جاء به في القرآن من قصص الأنبياء حق وصدق

يجب الإيمان به: ﴿تلك الرُّسُل فضَّلنا بعضَهم على بعض، منهم من كَلَّمَ الله ورَفَع بعضَهُم درجات﴾.

المعجزات

لمّا أُسري برسول الله ﷺ من مكة إلى القدس فذهب وعاد في ليلة واحدة لم تستطع قريش أن تصدق ذلك وعدّته مستحيلاً لأنه لا يمكن تحقيقه بوسائلها المعروفة وهي الإبل والدواب، ولكن هذا المستحيل صار اليوم أمراً ممكناً مألوفاً لا يُعجَب منه ولا ينكره أحد.

ولو قيل لأكبر علماء الطبيعة قبل قرن أو قرنين من الزمان: إن الناس سيركبون متن الريح بمراكب من الحديد والفولاذ ويخترقون نطاق الهواء، ويسجلون حديث المحدّث وخطبة الخطيب فيُسمعونها مَن شاؤوا متى شاؤوا، ولو مات المحدث والخطيب، لقال أن ذلك مستحيل! مع أنه وقع اليوم وصار معروفاً.

فكيف تحقق المستحيل؟ الجواب:

إن المستحيل قسمان: مستحيل في العادة، كالأمور التي ذكرتها، ومستحيل في العقل، كاجتماع النقيضين، الوجود والعدم مثلاً، فلا يكون الرجل نفسه موجوداً في هذا الوقت في هذا المكان وهو غير موجود فيه. وكتبدُّل هوية الشيء، فلا يكون الكتاب ملعقة في الوقت الذي يكون فيه كتاباً.

المستحيل في العقل لا يُتصوَّر وقوعه، أما المستحيل في

العادة فقد رأينا كيف أن العلم (علم العبد بقوانين الطبيعة)[1] صيّره ممكناً، فهل يعجز الخالق الذي أوجد هذه القوانين أن يصيّره مُمكناً؟ لا شك في قدرته على ذلك، فوقوع المستحيل في العادة ممكن لله عز وجل، فإذا صحّ الخبر به تحقّقنا من وقوعه وأيقّنا به.

الكرامات

وقد جاء في القرآن ذكر ثلاثة أنواع فيها وقوع المستحيل في العادة:

نوع وقع على يد الرسل لمّا تحدّتهم أقوامهم، إثباتاً لرسالتهم وتأكيداً لصدقهم، ويسمى «المعجزة». فإبراهيم أُلقي في النار فبدّل الله طبيعة النار المحرقة وجعلها برداً وسلاماً، وموسى ألقى عصاه فانقلبت حيّة وضرب بها الصخر فانبجس منه الماء والبحر فانحسر حتى مشى فيه الناس، وعيسى أحيا الموتى بإذن الله، وكذلك كل ما جاء في القرآن من المعجزات.

ونوع وقع على يد وليّ لله صالح، كوجود الطعام عند مريم في المحراب، وإحضار الذي عنده علم من الكتاب عرشَ بلقيس من اليمن إلى فلسطين في أقل من لمح البصر، وتسمى «الكرامة».

ونوع وقع على يد كافر، كما صنع السامِريّ لبني إسرائيل من الحُلِيّ عجلاً له خوار، وتسمى «استدراجاً».

---

(١) أي سنن الله في الكون.

ويجب الإيمان (أولاً) بأن الأنواع الثلاثة ممكنة الوقوع لأنها وردت في القرآن، ويجب الإيمان (ثانياً) على وجه التفصيل بكل ما ورد من ذلك في القرآن.

أما ما يرويه الناس من الكرامات ينسبونه إلى بعض من يسمونهم أولياء فهو خبر يحتمل الصدق والكذب، فإن كان واقعاً من وليّ[1] ولم تكن فيه معصية وصدّقت به لم يكن عليك من الله شيء، وإن لم يصحّ عندك فلم تصدّق به لم يكن عليك من الله شيء. أما إن كانت الكرامة المزعومة تشتمل على معصية[2] أو كانت واقعة من غير مؤمن أو من غير تقيٍّ فليست كرامة.

المعجزة والسحر

لما كانت المباراة بين موسى وسحرة فرعون أَلقَوْا حبالهم وعَصِيَّهم فرآها الناس حيات وثعابين، وألقى موسى عصاه فصارت حية وأكلت تلك الحيات والثعابين، فهل الأمران سواء؟ هل عمل موسى من جنس عمل سحرة فرعون؟

إذا كان من جنسه فلماذا آمن السحرة؟ لقد كان عمل السحرة خداعاً للبصر وإيهاماً للناس، أَرَوْهم حيات وثعابين مع أن الحبال والعصيّ لا تزال على حالها، حبالاً وعصياً، أما عصا موسى فقد تحوّلت فعلاً إلى حية، ولو كان ثمة آلة التصوير والتقطت صورتها

---

(١) والولي هو المؤمن التقي: ﴿ألا إنّ أولياءَ الله لا خوفٌ عليهم ولا هم يحزنون، الذين آمنوا وكانوا يتّقون﴾.

(٢) كبعض ما يروي الشّعراني في «الطبقات».

لظهرت في الصورة حية حقيقية، على حين تظهر حيات السحرة حبالاً وعصياً.

لذلك آمن السحرة هذا الإيمان السريع. إنهم رأوا شيئاً ليس من السحر ولا من التخييل ولا من التهويل، شيئاً هزَّ قلوبهم حتى اضطَرّها إلى الإيمان، وبلغ منهم الإيمان مبلغاً جعلهم يتحدَّون فرعون ولا يبالون به. إنهم تصوروا عظمة الله الذي آمنوا به فهانت عليهم عظمة فرعون الزائفة وربوبيته المكذوبة، لقد صغرت الدنيا في عيونهم فلم يحفلوا بتهديد فرعون إياهم بالصلب وقطع الأعضاء.

إن فرعون لا يملك إلا تعذيبهم في الدنيا، وما الدنيا في جنب الآخرة؟ وما عذابها المؤقت عند نعيم الآخرة الدائم؟ لذلك صرخوا في وجهه مستهينين بقضائه: ﴿فاقضِ ما أنتَ قاضٍ، إنّما تَقضي هذه الحياةَ الدنيا﴾. إني أتمنى والله، وأنا المولود في الإسلام الذي تسلسل في آبائه الإسلام، أن يكون لي مثل هذا الإيمان الذي كان لسحرة فرعون بعد دقائق معدودات من إسلامهم[1].

---

(١) الإسلام له معنى عام ومعنى خاص ومعنى أخص، فالمسلم بالمعنى العام: كل من اتبع رسولاً وقت رسالته، والمسلم بالمعنى الخاص: من اتبع رسالة محمد ﷺ، وبالمعنى الأخص: ما ورد في حديث جبريل الذي شرح معنى الإيمان والإسلام والإحسان. وإطلاق الإسلام هنا بالمعنى العام.

المعجزتان الكبريان: القرآن، وهذه المزايا المفردة التي جعله الله بها أهلاً لحمل رسالة الإسلام.

ترجمة حياته ﷺ كانت في ذاتها معجزة. كان بشراً وأمره الله أن يقرر هذه الحقيقة ويعلنها للناس لئلا يتخذوه إلهاً أو يمنحوه من صفات الألوهية، قال له ربه جلّ وعلا: ﴿قُل إنما أنا بشرٌ يُوحَى إليّ﴾. بشر مثلكم في المقوِّمات العامة للصفة البشرية، ولكن ليس في البشر (على التحقيق) مَن هو مثله في عظمته، ولم يخلق الله من هذا الطراز من أبناء آدم جميعاً إلا رجلاً واحداً اسمه محمد بن عبد الله، صلى الله عليه وعلى أبيه إبراهيم وعلى موسى وعيسى وجميع الأنبياء.

وأنا أعجب لماذا حاول المتأخرون من مؤلفي السيرة الاستكثار من المعجزات والتوسع فيها وإضافة معجزات لم تكن. وما حاجتهم إليها وكل موقف من سيرة الرسول ﷺ وكل جانب من شخصيته هو معجزة من أكبر المعجزات. وما المعجزة؟ أليست الأمر الذي يَعجز الناس عن مثله؟

إن صدقه وأمانته معجزة، ولن أسرد عليكم أمثلة كثيرة ولكن أعرض مثالاً واحداً، حادثة مررتُ بها في مطالعاتي مئات المرات فكنت أقرؤها على أنها خبر عادي، ثم تنبّهت إليها يوماً فجأة فإذا هي أعجوبة، وكم في السيرة من أمثال هذه الأخبار!

كلكم تعرفون أنه لما هاجر الرسول إلى المدينة ترك عليّاً مكانه ليرد الودائع التي كانت عنده لقريش، فهل فكرتم يوماً: ما

قصة هذه الودائع؟ يردها لقريش لا للمسلمين، إذ لم يبقَ أحد من المسلمين في مكة لما هاجر الرسول لأنه كان آخر من هاجر، بقي كما يبقى الربان في السفينة الجانحة، لا يتركها حتى ينزل الركاب جميعاً ويصلوا إلى قوارب النجاة، وهذه مَنْقبة ذكرتها عرضاً.

قصة الودائع هي أن قريشاً كانت (على كل ما كان بينها وبين الرسول) لا تجد من تأتمنه على ذخائرها إلا محمداً. فتصوروا حزبين مختلفين، الحرب قائمة بينهما، حرب اللسان واليد والمبدأ والعقيدة، ثم يأتمن أفراد الحزب على أموالهم وأوراقهم رجلاً من الحزب الآخر! هل سمعتم بمثل هذه الحادثة؟ وكيف يستودعونها هذا الخصمَ إنْ لم يكن في أخلاقه وأمانته معجزة من المعجزات والشكُّ فيه أحدَ المستحيلات؟ هكذا كان محمد ﷺ[١].

كانت سيرة حياته كلها معجزة عجز عظماء العالم جميعاً عن أن يتركوا لهم سيرة مثلها، في كل ناحية منها عزة وعظمة: في قوة جسده وتكوينه الرياضي، في روحه الرياضية وأنه لا يستخفه النصر حتى يبطره ولا تزلزله الهزيمة حتى تثير غضبه أو تذهب بعزمه، في ثباته في المعامع الحمر حتى كان أبطال الصحابة يحتمون به، وفي شجاعته التي تضعضع أمامها صناديد الرجال، وفي تواضعه للمسكين والفقير ووقوفه للأرملة وللعجوز.

وفي بيانه وفصاحته وأنه كان أبلغ من نطق وأبان. وفي إقراره بالحق، وفي صدق التبليغ عن الله حتى إنه بلّغ الآيات التي نزلت في تخطئته وفي عتابه، وفي احترامه العهود وحفاظه على كلمته

---

(١) انظر مقالة «خبر من السيرة» في كتاب «مقالات في كلمات» (مجاهد).

مهما كلفه الحفاظ عليها من مشقة ونصَب، سواء عنده في ذلك معاملاته الشخصية وشؤون الدولة.

وفي ذوقه وحسّه المرهف، وأنه هو الذي سَنّ آداب الطعام وقرر قواعد النظافة في وضعه مع أصحابه إذ يعلمهم ويعمل معهم، ويعيش مثلما يعيشون ويستشيرهم ويسمع منهم، ويجلس حيث يجد المكان الفارغ في آخر المجلس حتى كان القادم عليه لا يراه، ينظر في وجوه القوم فيقول: أيكم محمد؟ لأن محمداً لم يكن يمتاز عليهم في جلوسه ولا في ثيابه، كان مثلهم في كل شيء، في سلوكه المهذّب العفيف مع النساء، وفي سيرته في بيته ومع أهله، ومزحه الصادق وانطلاق نفسه وأنه كان محبَّباً إلى كل قلب. في تواضعه ورفضه أن يُعَدّ ملكاً ونهي أصحابه عن القيام له، وأنه كان يقوم بحاجة أهله ويخصف بيده نعله، وأنه عاش حياة الفقر زهداً في الغنى لا عجزاً عنه، ولو شاء لكان قصره أفخم من إيوان كسرى ودارة قيصر، ولكنه اختار الآخرة فكانت دور نسائه جميعاً، نسائه التسع، لا يتجاوز طولها كلهاخمسة وعشرين متراً.

كل ذلك فيه الإعجاز وفيه الدليل على أن الله ما اختاره لأسمى الرسالات وما جعله خاتم الأنبياء حتى أعده لذلك إعداداً جعله واحداً في بنى آدم ليس له في شمائله نظير ﷺ، و﴿الله أعلم حيث يجعل رسالته﴾[1].

* * *

---

(١) للتوسع في مناقب النبي وشخصيته ﷺ انظر فصل «شخصية الرسول ﷺ» في كتاب «سيد رجال التاريخ» (مجاهد).

الإيمان بالكُتُب

القرآن

القرآن هو معجزة محمد ﷺ. والذين زعموا أن القرآن من تأليف محمد أنكروا عليه أنه نبي ولكنهم وصفهم بأنه إله، ونحن نشهد «أن لا إله إلا الله وأنه عبد الله ورسوله». ذلك أن القرآن لا يستطيع أن يأتي به بشر ولا يمكن أن يأتي إلا من عند الله، فمَن قال إن محمداً ألّفه فقد منح محمداً صفة الألوهية!

وإلا فأروني رجلاً كان أميّاً لا يقرأ ولا يكتب كما كان محمد، ولم يدخل في عمره مدرسة، بل لم يكن في بلده مدرسة، بل هو لم يكن في بلدة كبيرة من بلدان الحضارة بل كان في قرية متوارية بين الجبال السود وراء رمال الصحراء، لم تدرِ بها روما ولا القسطنطينية ولا مدائن كسرى ولم يدر أحد فيها بفلسفة اليونان والرومان ولم يسمع واحد منهم بأدب الهند وإيران، قرية ليس فيها عالم ولا باحث ولا مثقف ثقافةَ صغارِ المفكرين في ذلك الزمان، وهو لم يخرج منها إلا إلى قرية مثلها أو أكبر قليلاً منها، هي بُصرى الشام من أرض حوران، ولم يُقم فيها إلا يوماً أو أياماً قليلات معدودات... هل يمكن لمثل هذا

الرجل أن يأتي بمثل القرآن؟

هذه تواريخ العباقرة والنابغين بين أيديكم، تواريخ الأمم كلها في العصور كلها، فهل فيها حادث مثل هذا الحادث؟ لقد ألف موزارت قطعة موسيقية وهو دون العاشرة، ونظم بشار الشعر وهو في مثل هذه السن، ونبغت مؤلفة «جين إير» وأختها كاتبة «أعالي وذرنغ» نبوغاً مفاجئاً[1]، وترك شكسبير هذه الثروة الأدبية ولم يكن من أكابر أدباء عصره ومثقفيه... كل هذا ممكن، ويمكن أن يؤلِّف شاب مغمور كتاباً يأتي فيه بقصة رائعة أو نظرية علمية جديدة لأنه عبقري، فالعبقرية ليست وقفاً على المتعلمين ولا على خرّيجي الجامعات، وقد تظهر العبقرية حيث لا يُتوقع ظهورها، ولكنّ مَن عرفهم التاريخ من عباقرة العلم والأدب والفن إنما سبقوا زمانهم بقرن مثلاً، زادوا على أقرانهم خمسين في المئة أو مئة في المئة. إن لسبقهم حدوداً، إنه سبق معقول.

وليس في التاريخ كله رجل كانت له ظروف محمد ﷺ، يأتي بكتاب هو في الأسلوب الأدبي في أبهى صور الجمال، وهو في مجال التشريع قانون في ذروة الكمال، وهو في الإلهيات والإخبار عن المغيَّبات يأتي بما لا يعرفه أحد من البشر ولا يمكن

---

(١) مؤلفة «جين إير» هي شارلوت برونتي، وأختها مؤلفة «أعالي وذرنغ» هي إميلي برونتي، ولهما أخت ثالثة روائية مثلهما اسمها آن، وهي أقل شهرة منهما. ومن رواية «أعالي وذرنغ» استوحى جدي قصته الطويلة «على ثلوج حزرين» التي نشرها في «الرسالة» سنة ١٩٤٧ في خمس حلقات، وهي في كتاب «قصص من الحياة» (مجاهد).

أن يدركه بنفسه العقلُ البشري، وهو في الطبيعة يشير إلى قوانين وظواهر لم يكن يعرفها أحد في عصره ولا في العصر الذي تلا عصره ولا في العصور العشرة التي جاءت بعد ذلك، فيه إشارات إلى قوانين لم تُكشف إلا بعده بألف وثلاثمئة سنة وقوانين لم تُكشف للآن.

كتاب أمره الله أن يتحدّى به الناس جميعاً، فتحدى الإنس والجن أن يأتوا بعشر سور من أمثال سوره، بل أن يأتوا بسورة واحدة، فعجزوا! وهذا التحدي قائم إلى الآن والعجز مستمر إلى الآن.

إعجاز ثابت، ولكن لا تبحثوا (كما بحث علماء البلاغة) عن مواطن الإعجاز، فإن موطن الإعجاز ليس في ألفاظه وحدها ولا في أخباره عن المغيَّبات فقط ولا في أمر واحد من الأمور التي ادّعَوا أن الإعجاز فيها، بل فيه كله مجتمعاً. كالمرأة الجميلة، ليس جمالها في لون بشرتها وحده ولا في عينيها وحدهما ولا في أي عضو من أعضائها، بل جمالها فيها كله. وإن كان كل ناظر في القرآن يلمح الإعجاز من الجهة التي ينظر فيها.

تعرفون قصة رئيس قسم تحقيق الشخصية الذي أسلم لما سمع قوله تعالى: ﴿بلى قادرين على أن نُسَوِّيَ بنانَه﴾. فكّرَ: لماذا خصّ البنان بالذكر؟ ماذا فيه؟ فيه بصمات الأصابع. هذه المعجزة الإلهية العجيبة، كم ظهر على الأرض من ناس؟ إنه ليس فيهم اثنان تتفق بصمة أحدهما وبصمة الآخر. إنها ظاهرة عجيبة لكنها عُرفت من قريب، لم يكن يعرفها أحد على عهد محمد ولا في القرون العشرة التي تلت عهد محمد. فلا بد إذن أن يكون محمد

ﷺ قد تلقاها من عند الله ولا بد أن يكون القرآن كلام الله.

وفي القرآن مئات من أمثال هذه الإشارة لا نزال نجد كل يوم من ينتبه إلى واحدة منها، كلما درس القرآنَ دارسٌ بدت له من إعجازه جوانب لم يدركها الأولون، لأنه لا تَفنَى عجائبه. لذلك يجب أن يفسَّر القرآن في كل زمان تفسيراً جديداً: يفسره الأديب، ويفسره الحقوقي، ويفسره الفلكي، ويفسره عالم النفس وعالم الاجتماع والمؤرخ... كل واحد منهم يجد فيه مجالاً لعلمه واختصاصه ودليلاً من اختصاصه وعلمه على أن القرآن كلام الله.

إن معجزات الرسل الأولين وقعت مرة وانقضت، ولكن معجزة محمد قائمة تتكرر كل يوم. ومعجزات الرسل دليل من غير جنس الرسالة على صحة الرسالة، ومعجزة رسالة محمد هي رسالته نفسها، صلى الله وسلّم عليه وعلى إخوانه الأنبياء والمرسلين.

الإيمان بالكتب

نحن نؤمن بالقرآن وبالكتب المنزَّلة التي خبّرنا عنها القرآن، وهذه الكتب هي: صحف إبراهيم، وصحف موسى (وهي التوراة) وزَبور داود وإنجيل عيسى.

والقرآن هو الحاكم عليها والميزان الذي يُعرف به صحيحها من الذي حُرِّف منها، قال تعالى: ﴿وأنزلنا إليكَ الكتابَ بالحقّ مُصَدِّقاً لما بين يديه من الكتاب ومُهَيْمِناً عليه﴾. فما أخبرَنا الله في القرآن أنه من هذه الكتب آمّنا به وقلنا بكفر من أنكره، وما وافق القرآن من أخبار هذه الكتب اعتقدنا أنه باق على صحته

وأن التحريف لم يصل إليه، وما جاء من أخبارها مخالفاً لما رواه القرآن عنها اعتقدنا أنه محرَّف عن أصله.

صحف إبراهيم

خبّرنا الله أن مما جاء في صحف إبراهيم وتكرر في صحف موسى ﴿ألّا تَزِرَ وازرةٌ وِزْرَ أخرى، وأنْ ليس للإنسان إلا ما سعى، وأنّ سعيَه سوف يُرى، ثم يُجزاه الجزاءَ الأوفى، وأنّ إلى ربك المُنتَهى﴾. وأن من ذلك قوله: ﴿قد أفلح مَن تزكّى، وذكر اسمَ ربه فصَلّى. بل تُؤْثِرون الحياةَ الدنيا، والآخرةُ خيرٌ وأبقى. إنّ هذا لَفي الصُّحُفِ الأولى، صُحُفِ إبراهيم وموسى﴾.

التوراة

التوراة منّزلة من عند الله، فيها هدى للناس وفيها حكم الله؛ قال تعالى: ﴿وكيف يُحكِّمونك وعندهم التوراةُ فيها حُكمُ الله﴾ ﴿إنّا أنزلنا التوراةَ فيها هُدى ونور﴾.

ومما خبّرنا به عن أحكام التوراة قوله: ﴿وكتبنا عليهم فيها أنّ النّفسَ بالنفس والعينَ بالعين والأنفَ بالأنف والأُذُنَ بالأُذن والسِّن بالسِّن والجُروح قِصاص﴾(١).

وخبّرنا أن فيها بشارة بمحمد ﷺ، قال: ﴿الذين يتّبعون النبيَّ الذي يجدونه مكتوباً عندهم في التّوراة﴾. وأن فيها وصف المؤمنين: ﴿محمّدٌ رسولُ الله، والذين معه أشدّاءُ على الكفار

(١) لبعض العلماء بحث فيه هذه الأحكام: هل كُلِّفنا نحن المسلمين بها أم لا؟ راجع تفسير المنار.

رُحَماءُ بينهم، تراهم رُكَّعاً سُجّداً يبتغون فضلاً من الله ورضواناً، سيماهم في وجوههم من أثر السّجود، ذلك مثله في التوراة﴾.

الزَّبور

قال تعالى: ﴿وآتينا داودَ زَبُوراً﴾، وخبّرنا أن مما كُتب في الزبور وراثة الصالحين الأرضَ، قال تعالى: ﴿ولقد كتبنا في الزَّبور من بعد الذِّكرِ أنّ الأرضَ يرثُها عبادِيَ الصالحون﴾. ولعل المراد بالأرض الجنة، لقوله تعالى حكاية عن المؤمنين الذين يدخلونها: ﴿وقالوا الحمدُ لله الذي صدقَنا وعدَهُ وأورثنا الأرضَ نتبوّأ من الجنَّةِ حيث نشاء﴾.

الإنجيل

قال تعالى: ﴿وآتيناه الإنجيلَ فيه هدى ونورٌ ومُصدِّقاً لما بين يديه من التوراة﴾. وبيّن أن الإنجيل المنزَّل يشتمل على أحكام تشريعية: ﴿وَلْيَحْكُمْ أهلُ الإنجيلِ بما أنزلَ الله فيه﴾، وفيه تعديل لشريعة التوراة: ﴿ومُصدِّقاً لما بين يديَّ مِنَ التّوراةِ ولِأُحِلَّ لكم بعضَ الذي حُرِّمَ عليكم﴾. وفيه كالتوراة بشارة بمحمد ووصف للمؤمنين به.

ونحن نؤمن بكل ما أنزل الله من صحف وتوراة وزبور وإنجيل، ونحترم الأنبياء كلهم وفيهم إبراهيم وموسى وداود وعيسى، صلى الله عليهم جميعاً.

* * *

خاتمة

هذه هي العقائد الإسلامية، من اعتقدها واعتقد بكل ما أخبر به القرآن من خلق السماوات والأرض والإنسان وظهرت آثار هذا الاعتقاد في عمله فهو المسلم الكامل، يعمل بالقرآن الذي اعتقد صحته، لا يكتفي بتلاوته بلا فهم ولا بتلحينه والتطريب به بلا علم، بل يتخذه دستوراً لحياته، يحلّ حلاله ويحرّم حرامه، يعمل ما أوجبه ويترك ما نهى عنه.

إن كانت ديانات الناس للمعابد وحدها فالإسلام ليس للمسجد وحده، ولكن للمسجد وللدار وللسوق ولقصر الحكم وللحرب وللسلم. الإسلام يلازم المسلم دائماً، يبيّن له ما يُباح له وما يحرم عليه. هو معه إنْ خلا بنفسه ومعه إن انفرد بأهله، وهو معه في تجارته وفي عمله، فكل عمل من أعمال المسلم له حكم من الأحكام الخمسة، ومنها الإباحة الأصلية.

وإنْ كانت الديانات الأخرى عبادات فقط، لا علاقة لها بالسياسة ولا بالعلم، فالإسلام عبادة وقانون مدني وقانون جزائي وقانون دولي، ونظام إداري ومذهب خلقي، وهو علم وهو سياسة وهو عمل وهو جهاد. افتحوا أيّ كتاب من كتب الفقه

وانظروا في فهرسه تروا هذه الجوانب كلها فيه[1]. وإنْ كانت العبادات في الديانات الأخرى صلاة فقط فالعبادة عندنا ليست صلاة وصياماً فقط، بل إنّ كل عمل ينفع الناس -إن قصد به فاعله وجه الله- كان له عبادة.

وإذا فصلوا بين الدين (الذي هو عبادة فقط) والعلم فالإسلام دين العلم. أول كلمة نزلت من كتابه كانت «اقرأ»، لم تكن قاتل ولا اجمع المال ولا ازهد في الدنيا. «اقرأ» هذه أول كلمة أُنزلت من القرآن وجاء بعدها ذكر العلم، ما مَنَّ الله على الإنسان بما أعطاه من مال ولا قوة ولا جاه، بل بأنه علّمه ما لم يَعْلم.

وكل عمل يحتاج إليه مجتمع إسلامي يكون تعلّمه فرضَ كفاية على القادرين عليه، فهل في الوجود دين إلا الإسلام يجعل تعلم الكيمياء والطب والطيران من الفروض الدينية؟

والإسلام دين الغنى. الله سمى المال في القرآن خيراً فقال: ﴿وإنّه لِحُبِّ الخير لَشديدٌ﴾ وقال في آية الوصية: ﴿إنْ ترك خيراً ...﴾ أي: مالاً. فينبغي أن يكون المسلمون أغنياء، ولكن بشرط أن يجمعوا المال من الحلال وأن يكون المال في أيديهم لا في قلوبهم. والمال وكل ما في الكون مسخَّر للإنسان، والإنسان المسلم يُحسّ أنه عبد الله، ولكنه سيدٌ لِما في الكون من أشياء، يتصرف فيه تصرف السيد، يستجلب النفع الذي أودعه الله فيه،

(١) صار هذا اليومَ من المقررات المعلومة التي لا تحتاج إلى بيان، ولم يكن كذلك لمّا كنت أكتبه وأحاضر به في أواخر العشرينيات وأوائل الثلاثينيات، وكتاباتي فيه كانت بحمد الله سابقة رائدة.

فهو يرغب في النافع ولكن لا يعظّمه لذاته، فإنْ عظّمه لذاته صار عبداً له وكان بذلك قد أشركه في العبادة مع الله.

والمال جعله الله لجلب النفع، فإنْ أنتَ ادّخرته وخبأته ولم تنتفع منه صرت خادماً له وعبداً، وقد قال الرسول ﷺ: «تَعِس عبد الدرهم». والثياب جُعلت لدفع البرد وستر الجسد، فإن عظّمتها لذاتها فحفظتها ورعيتها ولم تنتفع بها صرت عبداً لها، وقد «تعس عبد الخميصة».

والإسلام دين القوة، ولكن بلا ظلم. والإسلام للدنيا والآخرة: ﴿ربَّنا آتِنا في الدنيا حسنة، وفي الآخرة حسنة﴾.

وهو يريد من المسلمين أن يَصْدقوا الإيمان وأن يتبعوا الشرع، وأن يكونوا -مع هذا- أرقى الأمم وأقوى الأمم وأعلم الأمم وأغنى الأمم ليجمعوا حسنة الدنيا وحسنة الآخرة، وأن يعلم كل مسلم -بعد هذا- أن عليه واجباً آخر، هو التعريف بالإسلام والدعوة إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة، فلا يُكره الناس على الإسلام ﴿لا إكراهَ في الدّين﴾ بل يعرض عليهم محاسنه حتى يرغبوا فيه، ولا يدعو بلسان مقاله فقط، بل بلسان حاله، بأن يكون المجتمع الإسلامي صورة مجسَّمة لمبادئ الإسلام، لا بأن يكون صورة مشوهة لها تنفر منها وتبعد عنها كما هي الحال الآن. بأن يكون الداعي قويَّ العقل ليقيم الحجة، عالماً بالإسلام ليحسن العرض، مثقّفاً بثقافة العصر ليكلّم الناس بلغة العصر، وأن يكون لطيف المدخل خفيف الظل، لا فظّاً ولا غليظاً ولا جافياً عاتياً، وأن يعلم أن الإسلام لا يفزع من المناظرة ولا يهرب منها، وأن كل شيء فيه بالدليل وبالحجة والبرهان، وأنه يطالب

بالدليل حتى ممن يدعي ما يخالف الإسلام: ﴿قُل هاتوا بُرهانكم إنْ كنتم صادقين﴾ ﴿ومَنْ يَدْعُ مع الله إلهاً آخرَ لا بُرهان له به﴾ لو كان له برهان، ولكن يستحيل إقامة الدليل على خلاف التوحيد.

لو وُجد هؤلاء الدعاة إلى الله لدخلت الدنيا كلها في دين الله.

والله أنزل هذا الدين وهو قد تعهد بحفظه: ﴿إنّا نحن نزّلنا الذِّكرَ وإنّا له لَحافظون﴾. فالإسلام باقٍ لا يزول، والعاقبة له، ولكن إما أن نعود -نحن المسلمين- إلى ديننا فيكون لنا شرف النصر في الدنيا وثواب الله في الآخرة، أو يستبدل الله بنا قوماً غيرنا يدخلون في الإسلام ويتولَّون الدعوة إليه والدفاع عنه.

نعوذ بالله من أن يستبدل بنا، ونسأله أن يردّنا إلى ديننا وأن يكتب النصر له على أيدينا، وأن يغفر لنا ويرحمنا. وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

* * *

إلى القرّاء الكرام

لقد بذلتُ في تصحيح هذا الكتاب غايةَ ما استطعت من الجهد، لكنّي لا آمَنُ أن يكون فيه خطأ سهوتُ عنه، لأن الكمال ليس لأحد من البشر، إنما هو من صفات خالق البشر. فأرجو أن يَمُنّ عليّ قارئه (وقارئ سائر كتب جدّي التي صحّحتُها وأعدت إخراجها من قريب) فينبّهني إلى أي خطأ سهوت عنه لكي أتداركه في الطبعات الآتيات، وأنا أشكره وأدعو له اللهَ بأن يجزل له الأجر والثواب.

مجاهد مأمون ديرانية
mujahed@al-ajyal.com

المحتويات

من آثار المؤلف

(١) أبو بكر الصديق	١٩٣٥
(٢) قصص من التاريخ	١٩٥٧
(٣) رجال من التاريخ	١٩٥٨
(٤) صور وخواطر	١٩٥٨
(٥) قصص من الحياة	١٩٥٩
(٦) في سبيل الإصلاح	١٩٥٩
(٧) دمشق	١٩٥٩
(٨) أخبار عمر	١٩٥٩
(٩) مقالات في كلمات	١٩٥٩
(١٠) من نفحات الحرم	١٩٦٠
(١١) حكايات من التاريخ (١ - ٧)	١٩٦٠
(١٢) هتاف المجد	١٩٦٠
(١٣) من حديث النفس	١٩٦٠
(١٤) الجامع الأموي	١٩٦٠
(١٥) في أندونيسيا	١٩٦٠
(١٦) فصول إسلامية	١٩٦٠
(١٧) صيد الخاطر لابن الجوزي (تحقيق وتعليق)	١٩٦٠

(١٨) فِكَر ومباحث	١٩٦٠
(١٩) مع الناس	١٩٦٠
(٢٠) بغداد: مشاهدات وذكريات	١٩٦٠
(٢١) تعريف عام بدين الإسلام	١٩٧٠
(٢٢) فتاوى علي الطنطاوي	١٩٨٥
(٢٣) ذكريات علي الطنطاوي (١-٨)	١٩٨٥-١٩٨٩
(٢٤) فتاوى علي الطنطاوي (الجزء الثاني)	٢٠٠١
(٢٥) فصول اجتماعية	٢٠٠٢
(٢٦) سيّد رجال التاريخ (محمد ﷺ)	٢٠٠٢
(٢٧) نور وهداية	٢٠٠٦
(٢٨) فصول في الثقافة والأدب	٢٠٠٧
(٢٩) فصول في الدعوة والإصلاح	٢٠٠٨
(٣٠) البواكير	٢٠٠٩
(٣١) الذكريات: الفهارس والصُّوَر	٢٠١١
(٣٢) كلمات صغيرة	٢٠١٦
(٣٣) أعلام من التاريخ	٢٠١٩